دار الآداب

حنا مينة

حكاية بحّار



حنا مينة

حكاية بحّار

رواية

دَارالآدابــــ ـ بَيروُت

الطبعة الاولى

شباط (فبراير) ١٩٨١

الاهداء

الى أختي قدسية مينه ،
أمي الصغيرة .

حنا مينــه

- ١ -

كان سعيد حزوم يستلقي على الرمل الحار مستسلماً بكل جوارحه الى دفئه الذي ينعش قواه . كان يفتح عينيه ويغمضهما ، ويشد بجسمه على الرمل كما لو أنه يود أن يغوص فيه . وقد قال في نفسه : « وداعاً أيها البحر » . قال أيضاً : « علي أن أودعه كبحار. لقد انتهى كل شيء الآن . لم يعد الماء ملعبي ومملكتي . كابرت كثيراً ، ورفضت تقبل هذه الحقيقة ، وأصررت على أنني لن أهرم ، وسأظل ذلك البحار الذي كنته ، لكن الأعوام ، الأعوام الطويلة ، أوهنت قواي ، وصار علي منذ الآن ، أن أقف على الشاطىء وأخوض في الماء بمقدار . سأسبح كما يفعل الآخرون ، وقد أذهب في العمق قليلا ، لكنني لن أكون فارس البحر بعد اليوم. لقد ترجل الفارس وظلت الفرس شموساً . ظلت أرنّة ، فتية ، بطرة ، قادرة على أن تعدو مارقة في الفضاء خطفاً كأن قوائمها لا تلامس الأرض . لقد تعب

البحار ولم يتعب البحر ، وهاهو كعهدي به يترقرق بموجه على الشاطىء ، وديعاً ، رفيقاً ، حيياً ، مختزناً قواه للشتاء ، آن العواصف ثورة مدمرة تكتسح الحواجز ، وتحطّم المراكب ، وتهزأ بالبحارة . وبانتظار ذلك يحيا البحر قانونه ، ويجدد شبابه ... البحر يجدد شبابه ، والبحار يمضي إلى الشيخوخة .. آه ، لماذا البحر يجدد شبابه والبحار يمضي إلى الشيخوخة ؟» .

انقلب سعيد على ظهره وحدق في السماء ، عالية هي السماء . شمس ساطعة في فضاء لامتناه ، وزرقة موشحة بآثار بياض ، وابتسامة عريضة ، ماسية ، متوهجة ، تتسع للكون وتغمره بكل ما فيه ، من الرمل إلى الجبل . الشمس تغمر كل شيء ، وتتلألأ على البحر مرايا ، والرمل أسمر ، تلتمع حباته كنثار الزجاج ، وخيمات منصوبة في أقصى المكان من جهة المقهى ، ومظلات ملونة ، مغروزة الأوتاد في تنكات من الاسمنت ، ورجال ونساء وأطفال على الشاطىء بثياب الاستحمام ، أو باللباس الكامل ، وتشكيلة الألوان للمنظر كله ، تعطيه مشهد مهرجان أو عيد ، بكل ما في المهرجانات والأعياد من صخب وضجيج وألوان ذات مفارقات . الكل يلهو على الشاطىء . ثمة رجال يلعبون الكرة بأقدام حافية ، وشباب يسيرون على الرمل المبتل ، يعرضون جسومهم ويستعرضون أجسام المستحمّات ، ونساء

يستلقين في الشمس مغمضات الأعين لإكساب بشراتهن اللون البرونزي ، وأطفال يعبثون بالرمل ، يبنون بيتاً أو يحفرون نفقاً ، فلا يلبث الموج أن يهدم البيت ويقوض النفق ، وشخص يتكىء على ذراعه وينخل الرمل بحركة آلية ، وآخر يكتب شيئاً على العجينة الرملية ، فيمد الماء لسانه ويمحو ما كتب . وفي البحر السابحون والسابحات ،ـــ يتصايحون . يتراشقون الماء ، يغوصون ، يقفزون ، وامرأة بدينة قد أدخلت خصرها في دولاب مطاطي خشية الغرق ، وفتيان يعاكسون فتيات ، ورجل يحاول أن يعلم زوجته السباحة بغير طائل ، وفتيان يسبحون برشاقة كأنهم ضفادع تنطلق في أشكال سهمية وهي تغوص وتظهر ، وتحرك يديها وقدميها في حركات ايقاعية انسيابية بالغة الاتقان .

ظل سعيد مستلقياً على الشاطىء ، يتقلب على الرمل ، يحدق في الفضاء ، يتفرس فيما حوله ، يراقب الشمس الكسول في السماء ، راغباً في أن تهبط اليه ، أو ترخي شعورها فيتعلق بخصلة منها ويرتفع اليها ، حيث يصبح جرماً صغيراً يدور حولها .

لقد وصل أمس مع الغروب . كان سعيداً حين وصل مع الغروب ، كان يعدّ نفسه فتى بحر . ولم يكن يأبه للشعر الأبيض في رأسه وصدره . لم يفكر أن جسمه سيخذله كما حدث اليوم ، ومن فرط اعتداده بنفسه فرض وصايته على

من معه من الصحب ، وصار مرجعهم في شؤون البحر .

قبل ذلك ، فيما هم على الطريق ، تحدث عن البحر طويلا ، كانوا قافلة من السيارات ، وكان في السيارة التي يركبها ، يتحدث إلى من معه عن البحر كما يتحدث ملك عن مملكته ، وقد برقت عيون النساء وهن ينظرن إليه بإعجاب ، وقالت طفلة وهي تستسلم لأحضانه في نوع من الاطمئنان :

ـ هل البحر كبير يا عماه ؟

ـ كبير جداً يا بنيتي .

ـ بحجم السماء ؟

ـ وأكبر !

فنظرت الطفلة إلى السماء وابتسمت . كانت هذه كبيرة إلى درجة لا تحد ، وكان البحر قد صار أكبر من السماء في خيالها ، وهي لا تعرف شيئاً أكبر منها .

قالت الطفلة :

ـ وماذا في البحر ؟

قال سعيد :

ـ في البحر كل ما في البر .. جبال ووديان ، أشجار وغابات ، سهول وتـلال ، مغائر وكهوف ، نباتات وأعشاب ، وفيه مخلوقات من كل الأنواع .

– مخلوقات مثلنا ؟

– ليس مثلنا تماماً ، مخلوقات البحر على شكل أسماك .

– وماذا أيضاً ؟

– ماذا تريدين ؟

– هل في البحر عصافير ؟

– فيه طيور وزواحف وحيوانات أليفة ومفترسة .

– وهل فيه أطفال ؟

– طبعاً ، للأسماك صغارها أيضاً .

– وصبايا ؟

– في البحر سمكة برأس آدمي ، يقال لها عروس البحر ، وفيه سمكة بذيل ، يقال لها فرس البحر .

قالت الطفلة دهشة ومسرورة :

– وفيه سمك أحمر ؟

قال سعيد :

– سمك أحمر ، وفضي ، وأصفر ، وأخضر ، ومن كل الألوان .

ازدادت دهشة الطفلة ، وسرورها ، بل ان بعضاً من هذه الدهشة والسرور كان قد ران على السيدات ، وهذا ما ضاعف شوقهن للوصول إلى البحر ، فطلبن من السائق أن يزيد من سرعة السيارة وقالت سيدة منهن :

– هل رأيت يوماً عروس البحر ؟

قال سعيد :

ــ أنا لم أرها . لست صياداً يا سيدتي . أنا بحار . أعني كنت بحاراً . وعروس البحر لا ترى في الأعماق . يقال انها تتبع السفن في ضوء القمر ، ولقد وقفت في مؤخرة السفن التي عملت عليها طويلا ، لكنني لم أر عروس البحر . رأيت الدلفين وكلب البحر والقرش .. ومرة رأيت الحوت . يا إلهي ما كان أكبر الحوت ؛ إنه بحجم مركب صغير ، ولو شاء أن يقلب سفينة لغطس تحتها ورفعها بظهره فقلبها . ولهذا فإنهم يجعلون غاطس السفينة حاداً كشفرة سكين .

قالت سيدة أخرى :

ــ من رأى عروس البحر إذن ؟

ــ بعض الصيادين . يقال ان عروس البحر تعشق أنسياً . وفي بعض الليالي تخرج من الماء وتمشي على الشاطىء ، وقد تتمدد على الرمل فتنام ، فإذا أشرقت عليها الشمس عجزت عن الحركة والعودة إلى الماء ، وعندئذ يصطادونها .

ــ وماذا يفعلون بها ؟

ــ يفتتنون بها . يحافظون عليها ، ويبذلون حياتهم إرضاء لها إذا طلبت منهم ذلك .

ــ ولماذا لا يتزوجونها ؟

ــ لا يستطيعون .. شرطها للزواج أن يذهب معها

الصياد إلى مملكة أبيها في أعماق البحر ، فإذا رفض فارقته ، لكنها إذا أحبته فلن تنساه ، وفي الليالي المقمرة تخرج اليه ، حاملة حفنة من لآلىء البحر .

– ولماذا لا يذهبون معها إلى مملكة أبيها ؟

– لأن الانسان الذي ولد وعاش على هذه الأرض ، لا يقوى على مغادرتها . السمكة تحب البحر ، والانسان يحب الأرض ، وهذه هي المسألة .

– الصيادون يعيدون عروس البحر إلى الماء إذن ؟

– من يحب امرأة يخضع لها .. والذي يحب عروس البحر لا يؤذيها . يعيدها إلى البحر كما تطلب . وهي لا تنسى المعروف . السمكة وفية كالانسان ، بل أكثر وفاء من الانسان .

– وماذا تعشق عروس البحر في الصياد ؟

– شبابه .. الانسان أجمل المخلوقات في الشباب .

– وفي الشيخوخة ؟

– كل الحيوانات أجمل منه . تأملي وجه فرس عجوز ووجه امرأة عجوز .

صاحت سيدة :

– هذا مخيف !

– لكنه واقع ..

ـ أنت تعشق عروس البحر كما يبدو .. فكيف تقول انك لم ترها ؟

صمت سعيد . كانت السيارة تنطلق في السهل ، بين الدبوسية وطرطوس ، والشمس كرة ذهبية تزحل على طرف الأفق الغربي وضوء المساء الفتان يغمر الأراضي الممتدة على جانبي الطريق ، وريح رخية تستقبلهم حاملة رائحة البحر المنعشة ، وهو يفكر فيما قالته السيدة . تساءل : « هل أعشق عروس البحر حقاً ؟ » واعترف في ذات نفسه : « بلى ، أنا أعشق عروس البحر ، لكنها غير العروس التي رأسها امرأة وذيلها سمكة . إنها امرأة حقيقية ، وستخرج يوماً من البحر كما فعلت في ذلك اليوم » .

وفكر في البحر فقال في نفسه : « هذا حبيبي ، الأزرق الرحيب حبيبي . منه الخير والعطاء والنعمة والبركة ، ومنه المرأة التي أحب ، والمرأة التي سأحب كل حياتي » .

وبعد أن تنهد بحرقة أضاف : « لكم أحببتها وتعذبت في حبها ؛ ولكم كابدت الشوق وقاسيت الحرمان ، وظللت رغم ذلك عاجزاً عن نسيانها ! » .

لقد حدث ذلك في ليلة صيف .

كان يتمدد على الشاطىء وحيداً ، وكان الليل مضاء بالقمر ، والفضاء منوراً ، والنجوم مصابيح مشعة ومتناثرة ،

والزبد ينفرش رغاء أبيض مخرماً على الرمل ، وخرير الموج موسيقى ناعمة ، وسكينة الليل المخملية تبعث على النشوة والحذر .. كان كل شيء بهياً آسراً إلى درجة أنه تمنى ألا ينقضي الوقت ولا تتنفس الكائنات من حوله فتفسد روعة تلك الليلة التي غمره ضياء قمرها واحتواه جمالها .

وفجأة ، خرجت تلك المرأة من البحر ، هو لم يرها تخرج من البحر ، ولم يرها تأتي من اليابسة ، ولعلها انبثقت من رمل الشاطىء ، أو لعلها هبطت من الفضاء ، لم يفكر آنئذ إلا أنها ابنة الماء ، غادرته لتتنزه قليلا هناك ، على مبعدة يسيرة منه .

كانت ترتدي غلالة بيضاء . ولها كتفان عاريان موردان ، وساقان من مرمر ، وقامة مهيبة ، ورأس مرفوع يتطاير شعره الغزير في الريح التي تنسم من الأعماق . كانت جميلة حتى يشفق المرء أن يلمسها فيفسد ذلك الانسجام الإلهي في قوامها .

ذهبت وجاءت . كانت تخطو على الرمل الأملس ، وتترك قدماها العاريتان آثارهما على صفحته المستوية البليلة ، وتداعب الريح غلالتها فتكشف عن صدرها العاجي الناهد تحت هفهاف الريح ، وتفاحتان تهتزان بفعل السير ، وذيل الغلالة يطير في الريح كأنه ذيل حورية من الجنة .

لم يستطع صبراً فاستقام جالساً في مكانه . وإذ رأته

دهشت . نظرت اليه بإعجاب ، ورنا إليها مفتوناً ، تلاقت العيون ، فنهض للقائها . مشى إليها كأنه سائر في نومه ، ومد يده فرآها تمد يديها ، وحسب أنه بلغها ، وأنه سيمسك بها ، لكنها ، في لحظة التلاقي ، تراجعت وتراجعت ، وغابت ، وشاهد البحر يفور ، ويفور فيه جسم أبيض ، ورغاء ينداح على السطح ، ويتلاشى الرغاء ، والقمر يغيب ويظل هو وحيداً في عتمة الصبح ، على الشاطىء الوادع .

* * *

كانت السيارة تنطلق الآن على محاذاة البحر . والطفلة تتأمل وجه سعيد المستغرق فيما يشبه الحلم ، ثم هزته من كتفه وقالت :

ـ هل تصطاد لي سمكة حمراء ؟

ـ ليس معي صنارة .

ـ أمسكها بيدك .

فداعب رأس الطفلة وقال :

ـ السمكة لا تمسك باليد يا صغيرتي .

اغتمّت الطفلة لأن سعيد لا يستطيع إمساك سمكة حمراء لها ، ورانت على محياها ظلال أسف ، وظلت صامتة حتى وصلوا البحر .

هناك توقفت السيارات ، واستعد سعيد لأن يقوم بواجبه

كدليل وبحار معتمد من قبل الصحب ، ونزل الركاب فتمطوا وتمشوا ليتريضوا ، وشرعوا مع غلمان المقهى بنقل أمتعتهم إلى الشاطىء ، حيث سبقهم سعيد لانتقاء بقلعة التخييم .

إنه يعرف شغله جيداً . رسم بقضيب حديدي أمكنة الخيام الثلاث ، وحرص على أن يكون موضع خيمته أدنى ما يكون إلى الماء ، وطفق في دق الأوتاد ، ونصب الأعمدة ، وساعده الرجال في رفع الخيام وربطها بالأوتاد ، ثم دخلوها وارتدوا ألبسة البحر ، ونزل الجميع إلى الماء ، بينما ظل هو يقوم بالواجب الذي التزم به .

لقد أحسن انتقاء الأماكن وتوجيه أبواب الخيام كيلا تتلاعب بها الريح ، وأعاد هندسة الأوتاد ، حتى إذا راق له كل شيء ، رضي عن نفسه ، وقدر أنه سيفوز بمزيد من احترام من معه ، هو البحار الذي طوّع البحر ، ويعرف كل بقعة فيه على هذا الشاطىء .

كان قد عرّى جذعه . بقي في بنطاله فقط . استعاد بفرح طفولي حاله يوم كان بحاراً ، وعليه منذ أن يرسو المركب أن يقوم بطيّ الأشرعة ، وترتيب السطح ، وإصلاح ما يجب إصلاحه ، وإشعال « اللوكس » .. هذا الذي تعطي انعكاساته على الماء فيضاً من أضواء اندياحية رجراجة ، حتى إذا فرغ

من ذلك كله ، نزل البر ، أو قام بنوبة الحراسة إذا كان الدور عليه .

هنا لا توجد مراكب . إنها خيام . مراكب راسية على الرمل ، تطوى وتنشر كالقلوع ، غير أنها لا تنزل الماء ولا تبحر في الأبعاد . وهو لم يعد بحاراً ، مضى زمن البحر ، ترك المهنة ومعها مسرات قلبه ، ويخيل إليه أحياناً أنه نسيها ، أو أنه أصبح قادراً على نسيانها ، فإذا عاد إلى البحر ، عاوده عشقه له ، وتقمّص من جديد صورة البحار الذي كانه .

نقل غلمان المقهى بعض الطاولات والكراسي ، فتناولها وصفّها أمام الخيام، وبسط على الطاولات بعض الأواني ، ورتب الحقائب في الداخل ، وأشعل « اللوكسات » الثلاثة لتكون جاهزة ، وعلقها على الأوتاد الأمامية للخيام ، وأحضر زجاجات من البيرة المثلوجة كان قد حفظها في خيمته ، وخبّ في الرمل خفيفاً ، مرحاً ، وقدماه العاريتان تغوصان فيه ، ثم قرفص وأشعل سيكارة ، فيما الشمس تغرب ، ووشاح الليل يهبط رويداً رويداً على الأرض .

كان الآن أشبه بصاحب حديقة يقرفص أمام كوخه وينظر إلى الزروع الموسمية التي تنبعث في حديقته ، أو كفلاح يرنو إلى الأرض التي اكتست بالنبت الأخضر في مستهل الربيع ، ويتأمل الجني المقبل لأراضٍ تعب شهوراً في حراثتها وبذرها .

ولم يكن أمام الخيام أحد غيره . كان وحده يدخّن ، ويفكر ، وكان حياً ، يقظاً ، يمور صدره بأحاسيس بهيّجة ، كصياد انتهى من نصب خيمته ، وأنجز استعداداته لاستقبال الليل ، حيث ينطلق في الصباح الباكر إلى الصيد .

وكان البحر أمامه قد غدا منبسطاً رحيباً ترفّ عليه آخر ظلال النور . هذا عالمه ، هذه دنياه ومرتع صباه . كانت المراكب في الميناء تلوح صواريها في الغبش مسلات خشبية تتعالى وتتأرجح . بعض خامها منشور ، وأكثره مطويّ . وكانت الريح تتلاعب بها ، وهو يحس بهذه الريح إحساساً قوياً ، اعتاده من إصغائه الطويل إلى مناسم هبوبها ، وخاصة في المواعيد التي تسبق الاقلاع .

ومن بعيد ، حول جزيرة أرواد ، كانت تلوح مراكب أيضاً ، وحولها الفلائك ، وزوارق ذات محركات تمخر البحر ، ذاهبة آيبة ، وأضواء تلوح ، وأفق ينداح ، مديداً مديداً في الأبعاد ..

خرج المستحمّون من البحر. تراكضوا يخبّون في الماء فيتطاير الرذاذ من أمامهم وورائهم ، وقطراته تتدحرج على الجسوم المتوردة بفعل الحركة وبرودة الماء ، هرولوا جميعاً باتجاهه ، فرحين بما فازوا به من متعة ، وقد لوّح بعضهم بالأيدي ، وهجموا على الخيام ليبدأوا الاغتسال وارتداء ثيابهم قبل حلول الظلام .

لم يبق في البحر أحد . هجره السابحون ، وغابت الشمس عنه ، وظلّت الريح وحدها تداعب سطحه ، وتدفع بموجه نحو الشاطىء . إن روحاً غريبة ستطوف بالبحر ليلا . تتناسل من الظلمة ، وتمسح خديها بذوائب الموج ، وتطير بأجنحة غير مرئية فوق كائناته المائية التي تفشي سرّها للنجوم ، في صلاة ابتهالية تصعدها من الأعماق ، نجوى قلوب حبيسة في قيعان المرجان والياقوت ، منغلقة على ذواتها انغلاق المحار على ذاته التي تصير مع تقادم الزمن لؤلؤاً أبيض .

هو ، سعيد حزوم ، يعرف هذه الروح . لم يلمسها ولم يعاينها ، لكنه يعرفها ، يدركها بحواسه الخمس ، بمسامه التي تتنفسها كما تتنفس أعشاب البحر رائحة يودية خاصة في مثل هذه الأمسيات .

بدأت المصابيح تشتعل على طول الشاطىء . واشتد اللغط في الخيام . لقد عاد المستحمّون من الحمامات ، وصار في وسعه أن يترك نوبة حراسته . سيلقي بنفسه في الماء الآن ، ما أعذب اللحظات التي تسبق إلقاء الجسم في الماء ؛ سيسبح بعيداً ، وحيداً ، ويقول في ذاته للبحر كعادته : « حبيبي ؛ يا حبيبي لقد عدت إليك » .

نهض وتريّض ، طمر عقب سيكارته في الرمل بقدمه ، لحق بسرطان صغير خرج من وكره وراح يدب على الرمال . السرطانات تخرج من أوكارها مع الغروب ، ولسوف تدبّ

على الرمل المبلل أيضاً ، وهو يحبها ، حيوانات البحر الصغيرة هذه .

ركض أخيراً باتجاه الماء . ركض مندفعاً كقذيفة ، وكسهم انقذف في الماء ، وغاص في البحر الذي تلقاه بذراعين مفتوحتين وغمره كله ، فتطاير الرذاذ ، وغاص الجسم إلى القاع ، وذهب كسمكة فيه ، مستشعراً نداوة ونشيشا ، وحضناً دافئاً يحتويه .

صاحوا به من الشاطيء :

– سعيد !

– يا سعيد !

– ارجع يا سعيد !

وسمع صيحاتهم مسروراً . كان يسرّه أن ينادوه وهو يبتعد . معنى هذا أنهم يخافون عليه . ولكن مم يخافون عليه ؟ من البحر ؟ كيف يقول لهم : « لا تخافوا البحر ؟» عبثاً ، إذا شرح لهم ما يحسه ماتت الكلمات على شفتيه . أن تحب يعني ألا تتكلم . أحبَّ بصمت ، بصمت ، بصمت . أنظر في العينين . ماذا تقول العينان ؟ ومن يترجم ما تقوله العينان ؟ بئس الصوت . النظرة صوت ! النظرة صوت .

– سعيد !

– يا سعيد !

– ارجع يا سعيد !

ولم يرجع سعيد . كان يطيب له ألا يرجع . ليس فقط لأنه يحب البحر ويريد أن يذهب فيه بعيداً وعميقاً ، بل لأنه يريد أن يستثيرهم ، ويخيفهم ، ويريهم الفرق بين أن يلهو المرء في البحر وأن يعشقه .

بلغ نقطة لم يعد يرى منها جسوم الذين على الشاطىء . الأضواء وحدها كانت تتراءى له من مطلاّتها العليا في النوافذ والشرفات وسطيحة المقهى . وأصبح البحر من حواليه بساطاً داكناً من ماء رصاصي ، والظلمة هبطت فحجبته تماماً ، وعندئذ أدرك أنه نأى كثيراً عن الشاطىء ، وأن عليه أن يكبح شهوته إلى السباحة وإلاّ بقي في الماء إلى الصباح ، فعاد مستلقياً على ظهره ، سابحاً بتؤدة وهو يعد النجوم بسعادة بالغة .

لو كان في البسيط لأشعل النار . إشعال النار متعة . السهر على البحر متعة ذات طقوس . ففي الليل ، وعلى الشاطىء ، يحلو السمر على وهج النيران ، والقوم من حوله كقبيلة بدائية ، يرقصون ويغنون ويدورون بها على إيقاع مجنون .

هناك الغابات تجاور البحر . ومن الغابات ينثّ عطر الصنوبر ، وتغدو الأشجار في الليل متداخلة مثل كتلة ضخمة من سواد ، فإذا أشرق القمر بدت كعرائس جنّ ترفع

أصابعها إلى أعلى في تعبير إيمائي ، كما عند الختام لرقصة مجوسية .

هنا لا غابات ولا نيران . ومع ذلك فإن « اللوكسات » تنشر ضوءاً يتراءى ماسياً على الرمل ، وتجعل البقعة المضيئة شعلة نور وسط ليل ساج ، وتزيد في سحر الجو الذي يبدو كأنه ينطوي على سر عميق . ووسط هذه البقعة المضيئة يتحرك الناس وظلالهم تتراءى وتتطاول من حولهم ، ثم يجتمعون في تلك الجلسة الليلية العذبة التي لنسيمها على الأجسام تلك اللذعة الحلوة التي لأقراص النعناع على الألسنة ، وهي تعطي نكهة ذات برودة منعشة .

انسل إلى خيمته ليتهيأ استعداداً للعشاء . ذهب فاغتسل وارتدى ثيابه . فتح زجاجة بيرة مثلوجة فترشّفها بلـــذة ونهم ، كعادته دائماً عندما يخرج من الماء ، وراح من مجلسه أمام الخيمة يتابع حركات الصحب النشطة والمألوفة ، وهم يعملون كعائلة متحابّة في تهيئة طعام المساء ، والنساء يعددن الحساء الحار الذي يرتفع بخاره من القدر ، ويتعالى كدخان أبيض في الفضاء ، ويفتحن المعلّبات ويبسطن الطعام ، ويرتبن الصحاف . لقد كانت هذه الوجبة بعد السفر الطويل والابتراد في البحر ، من أشهى وجبات الرحلة ، وكانوا يقبلون عليها بشهية ملحوظة ، ويتبادلون خلالها الأحاديث والنكات التي تطلق الضحكات في مرح طفولي من الصدور .

وكانت الخيام ، بمصابيحها المعلقة على الأوتاد ، تعطي المشهد منظر قوم يخيّمون في صحراء، وأمام إحداها أعدّت المائدة ، وهرولت كلاب أليفة لتلتقط الفضلات ، وتابعت السرطانات الصغيرة الخروج من أوكارها ، وازداد مدّ البحر مع ضوء القمر ، وفي سكينة الليل تصاعدت معزوفة المرج الرخيمة والرتيبة على الرمل ، وعندما انتهوا من الطعام شرعوا يدخنون ، وبدأت تلك السهرة الليلية الحبيبة بجوار البحر . وكان هو يحب السهر على البحر ، ويفتنه ضوء القمر ويعرف أن النوم ، في مثل هذه الليالي ، يجفوه ، ويحس بعد تفرّق الصحب بحاجة إلى الصمت والتأمل ومداراة تلك الانفعالات الذاتية التي تنتابه .

لقد كان مسروراً في سهرته مع أصحابه . كان يصغي إلى أقوالهم عن البحر بفرح طفولي ، كأنما يتحدثون عن شيء يخصه جداً ويحبه جداً . وقد روى لهم حكاية بحار شيخ ، كان في نوبة حراسة على رأس السارية ، فلما سمع صوتاً جميلا من المركب ، تملكته نشوة عارمة ، وعندما صاح المغني بمطلع بيت من الشعر ، ألقى البحار بنفسه في الماء تعبيراً عن الاعجاب .

قالت سيدة بنبرة استغراب واستنكار :

– في الماء ؟

فأكد سعيد :

ـ نعم يا سيدتي في الماء !

وقال رجل :

ـ إنه مجنون !

فنفى سعيد :

ـ بل كان عاقلا جداً .

وقالت سيدة :

ـ أما خاف الغرق ؟

قال سعيد :

ـ وما أهمية ذلك ؟ أقول لكم كان معجباً بالصوت .

قالت السيدة :

ـ ويموت من فرط إعجابه ؟!

سكت سعيد ، وقال في نفسه : « لن يفهموا علي » . ثم انسحب إلى خيمته ، وتفرق القوم ، وبعد قليل أطفئت المصابيح وأسدلت أبواب الخيام .

تمدّد على الرمل أمام الخيمة ، ونظر إلى صفحة الماء المتلألئة بأشعة القمر الفضية ، واستراح إلى معزوفة الموج الرتيبة . كان قريباً من البحر يستعيد، وهو يرنو إلى النجوم، صورة « عروس البحر » التي خرجت إليه ذات ليلة صيف ، ويتساءل : « ترى تحدث المعجزة وتخرج إلي ثانية في ليلة

الصيف هذه ؟ » أصحابه ينامون الآن ، وكذلك تنام الطفلة التي جاءت اليه في أول الليل تسأله عن السمك الأحمر والأخضر والأصفر ، هذه اللوحة الملونة التي تشغلها ، والتي ستحلم بها ، كما تحلم بالسمك الذي تفكر كيف تمسكه بيديها الطفليتين . وقال في نفسه : « هنيئاً للخليّين ! إنهم يناءون بينما أسهر أنا .. إنني أحب السهر وحيداً . أنا والليل والقمر ، وهذا يسعدني ويكفيني » .

استرخى في استلقائه على الرمل ، وراح يتابع انعكاسات الضوء الفضي على المرج المتكسر على الشاطىء ، حتى غلبه النعاس فنام .

في اليوم التالي أشرقت عليه الشمس وهو نائم مكانه على الرمل ، ابتسم للشمس ما أن فتح عينيه ، واستشعر رطوبة في مفاصله ، فنهض وراح يعدو على الشاطىء لينشط جسمه ، ثم نزل الماء وسبح ، وسرعان ما استعاد نشاطه ، وخرج فتناول قهوة الصباح ، ودخن سيكارة ، ثم افطر وقصّ على الطفلة حكاية صغيرة عن البحر ، وحملها ونزل بها الماء .

في الضحى امتلأ الشاطىء بالناس.بدأ الصخب والضجيج المألوفان ، وشرع المستحمون بالسباحة . كان عليه ، كما يليق ببحار قديم ، أن يقوم بمهمته قياماً حسناً ، لا بتعليم الذين لا يعرفون السباحة فحسب ، بل أن يكون منقذاً لمن

يحتاج منهم إلى إنقاذ أيضاً . لهذا جعل يعطي تعليماته ويوجه نصائحه وإرشاداته . يشجع ، ويصحح ، يقوم بإعطاء أمثلة عملية عن أفضل طرق السباحة والغوص ، وينأى بمن معه عن دائرة الناس الذين تكاثروا ، ويجنّبهم الأماكن الخطرة ذات المنخفضات الرملية أو الدوامات المائية .

لكنه سرعان ما اصطدم بما لم يكن يتوقعه .

نبق قربه ، فجأة ، فتى مدبوغ الجلد بالملح وأشعة الشمس ، إنه شاب وسيم ، في مقتبل العمر ، وقد ناداه ، على مسمع من الجميع :

ـ هيه ، أنت ، هل أنت بحار ؟

قال سعيد وهو يروزه :

ـ كنت بحاراً ، فماذا تريد ؟

ـ وهل أنت معلّم سباحة ؟

ـ كلا ، لماذا تسأل ؟

ـ أراك تعطي الأوامر للجميع !

ـ أعلمهم السباحة كما ترى ..

ـ وهل تعرف أن تسبح أنت ؟

ضحكت سيدة قربه ، كان السؤال سخيفاً بالنسبة اليها ، لكن سعيد فطن فوراً إلى ما وراءه ، فاغتمّ وآثر أن يلاطف الفتى ويصرفه .

ـ أسبح قليلا ، فماذا تريد ؟

ـ أن نتبارى بالسباحة ، فنذهب في البحر ونرى من يسبق ؟

ثارت ضحكات متفرقة رنت في أذني سعيد كمطارق. لقد وثق به ، هؤلاء ، وعليه الآن أن يبرّر ثقتهم ويقبل السباق

فكر قليلا ، وراز الفتى من جديد ، وقال بخجل شديد:

ـ لا ، لن أسابقك.

قال الفتى :

ـ تعترف بالهزيمة سلفاً ؟

ـ أعترف ...

ـ وتخرج من الماء ؟

ـ لماذا تريدني أن أخرج من الماء ؟

ـ لأنك ترفض السباق.

أطرق سعيد وقد كسره هذا التحدي. وكان عليه أن يخرج من الماء أو يقبل السباق ، ولأنه رفض الخيارين فقد استدار الفتى ، بحركة احتقار ، وغادره إلى جهة أخرى. لكنه ما كاد يبتعد حتى ناداه سعيد :

ـ هيه ، أنت ، أيها الفتى ، تعال إلي !

ـ ماذا تريد ؟

— غيرت رأيي .

— تسابق ؟

— نعم ..

بوغت الفتى ، وسرى في الجمع تعجّب مقرون بالاشفاق وقالت سيدة معترضة :

— ما لنا وللسباق .. دع عنك ذلك يا سعيد !

وقال رجل :

— ابق معنا .. لماذا نعكر علينا مسراتنا ؟

وقال الفتى دون ان يخفي تحدّيه :

— علام استقرّ رأيك ؟

— على السباق .

— ولماذا رفضت أولا ؟

— قلت لك غيّرت رأيي ..

كان سعيد يرتجف . لقد أهانه الفتى بغير شفقة . ومع أنه كان على ثقة قليلة بالفوز ، إلا أنه قرر ألا يترك الساحة قبل العراك . قد تكون هذه آخر مغامرة له ، وقد يهزم ويودّع البحر مهزوماً ، لكن هذا يظل أفضل من أن يغادره مسحوباً من المعركة .

تقدم منه الفتى مزهواً . كان على يقين من النصر . إن هذا الكهل لن يصمد أمامه في الماء ، ولسوف يسبقه بغير مشقّة ، وستشهد الشمس ، والبحر ، والحاضرون ،

نهاية بحار شيخ يريد أن يسابق بحاراً فتى .

ولم يقل سعيد شيئاً وإن كان توتره قد ازداد بصورة ملحوظة . لقد قبل التجربة وانتهى الأمر . هو يعرف النتيجة لكنه لن ينكص . قبل قليل كان سباحاً لا يضاهى ، كان استمراراً للماضي الذي ارتطم الآن بالحاضر . إن الحاضر سيكون حدّاً بين ماضيه ومستقبله ، وهو لن يرفض مهما يكن . سيبذل جهده ، ويستنجد بكل قواه ، ويقذف بنفسه في اللجة تاركاً لها أن تقرر مصيره .

نظر إلى الفتى بإعجاب وبغير عداء . إنه خصمه ولكنه لا يستشعر حياله بعداء الخصومة . رازه من جديد وتفرّس في جلده المدبوغ بالشمس والملح والريح ، وقدّر أنه لن يكون شيئاً بالنسبة اليه إذا ما قبل السباق على وجه الماء . هو يعرف نقطة ضعفه هنا . كان سباحاً مشهوراً ، لكن السباق في قطع المسافات على وجه الماء يشكل نقطة ضعفه . وكان الغوص ، بخلاف ذلك ، نقطة القوة ، إنه غواص لا يجارى ، ومهما يكن تأثير السنّ فإن هـــذا ميدانه ، وسيحمل الفتى على السباق في هذا الميدان لا سواه .

مدّ يده وأمسك بالفتى من رمّانة كتفه . جذبه نحوه وقال له :

ـ هذا هو البحر .. وسننزل تحت الماء ، ومن يسبق يفز ..

قال الفتى :

ـ حسناً !

كان الفتى غواصاً هو الآخر . وكان الناس قد تحلقوا من حولهما ، وسطعت الشمس وتلألأت على صفحة البحر ، وبدا المدى الأزرق الرحيب ساكناً ، حابساً أنفاسه بانتظار النتيجة . وكانت الطفلة إلى جانب أمها تسأل عما يجري ، وقد دهشت لهذا التبدل الذي طرأ على سعيد ، وأفزعها عبوسه وتقلّص عضلات وجهه، وهمّت بأن تناديه، لكنه في اللحظة نفسها ، كان قد غطس في الماء ، وغطس الفتى إلى جانبه في وقت واحد .

فتح سعيد عينيه في الماء كعادته . كان قد نزل في الماء بحركة قفز عمودية ، ثم استقام وقد شدّ جسمه ، وجعل يفتح ذراعيه ويشق بهما الماء مندفعاً إلى الأمام بحركة إيقاعية مع انفتاح ساقيه وانغلاقهما ، وكان يحافظ على مسافة دانية من سطح القاع الرملي الأملس ، ويرى أمامه جيداً ، ويرى إلى جانبه الفتى يندفع بمثل حركته ، ويأمل ، مع تطاول الزمن والمسافة ، أن يرى الفتى متخلفاً عنه . وقد جرّب هذا أن يقوم بحركة اعتراضية تجعل خصمه وراءه ، لكن سعيد تفادى الاعتراض ومرق كسهم وحافظ على المسافة المتساوية معه . إنه يكره هذه المناورات ، ويريده سباقاً شريفاً ، فروسياً ، يحترم الرجولة والبحر .

غير أنه لاحظ أن قوة الدفع ، في حركة ساعديّ الفتى ، إلى أمام وإلى وراء ، من الصلابة بحيث تفوق حركة ساعديه ، وأن الفتى يعرف مثله أن يكون لصيق القاع ، ليتفادى التيار ، ولم يبق له من أمل في الفوز سوى طول النفَس ، والقدرة على البقاء أطول مدة ممكنة في الماء .

وراحت الثواني تمرّ ..

وراح النفس الحبيس الذي ملأ به صدره قبل الغطس يتناقص ، وشعور بالضيق ينتابه ، ثم تحول الضيق إلى ما يشبه الاختناق ، وأحس أن طبلتي أذنيه تكادان تتمزقان ، ومع ذلك أصر على البقاء في الماء ، وجاهد ، مستنفداً كل رصيده من القوة ، كي يمضي إلى أمام ، لائذاً بكبريائه وخبرته ، ومستقتلا حتى الموت ،.

وكان الفتى ، من جهته ، قد استشعر الضيق أيضاً . فهم لماذا آثر سعيد السباحة غطساً ، وقال في نفسه : « يا له من بحار ! » خطر له أن يمد يده ويمسكه ، أن يجعله يخرج إلى السطح معه في وقت واحد ، ليكون التعادل بينهما ، غير أن سعيد رفض هذه الحركة ، وقام الفتى ، للمرة الثانية، بمحاولة اعتراضية لم تخف على البحار القديم ، وإن كانت قد استثارته ، فمرق بانحراف جانبي ، وتملص من خصمه وسبقه ، وعندئذ استبدت بالفتى روح الخصومة الطائشة ، ومال إلى العراك تحت الماء ، فأرسل قبضته في خاصرة سعيد .

كانت الضربة من السرعة واليأس بحيث طاشت عن هدفها ، واختل بفعلها توازنه الانسيابي الذي حافظ عليه حتى الآن ، واضطر إلى رفع ساعديه إلى أعلى ، بينما تصلب ساقـــاه كرمحين باتجاه القاع ، واندفع إلى السطح بقوة .

خرج سعيد في اللحظة نفسها أيضاً . كان من الاعياء بحيث ترنح ، وكاد يغيب عن الوعي ، لكنه تماسك ، وبجهد فتح عينيه اللتين حرقهما الملح ، ونظر إلى الشمس وعاد فأغمضهما . إن فوزه الذي هلل به الحاضرون لم يسعده ، كان فوزاً صعباً ، لا يليق به ، ولا يتكافأ مـــع ماضيه . إن البحر منذ اليوم ، لم يعد ملعبه ومملكته ، ولئن غلب الفتى هذه المرة ، وبهذا الثمن الباهظ من الجهد ، فإنه يشك أن يغلبه في أيما مرة مقبلة ، إنه يشيخ ، وتلك هي الحقيقة .

شيء واحد رغبه في أعماقه : أن يصفع الفتى ، ثم أن يقبّله . لقد كان فتى قوياً ، وبحاراً له المستقبل . كانت تنقصه الدربة ، هذه التي سيكتسبها يوماً ، وإنما كان يلجأ ، في تعجّله الفوز ، إلى حيل صغيرة ، لا تتلاءم وشرف البحار . وكان سعيد يكره هذا ، ويحب أن يحافظ ، حتى الرمق ، على نقاء الأشياء . لكنه عذر الفتى ، صغير السن .

وقال له الفتى :

— ربحت .

قال سعيد بصوت ابح :

ــ لا ، لم أربح .. أنا لا أعدّ هذا ربحاً ..

قال الفتى بكل طيبة :

ــ أما أنا فقد خسرت ..

وقال سعيد في نفسه : « أنت لم تخسر .. البحر لك يا فتاي ، ولكن لا تعد إلى لعبة الإعتراض هذه وأنت لست بحاجة اليها . إنها أسوأ من الخسارة »، لكنه لم يستطع أن يتلفظ بذلك ، بل نظر إلى الفتى بحنان ، وأحس أن الفتى فهم ما أراد ، ووعاه جيداً .

ثم استدار نحو الشاطىء ، وأولى ظهره للبحر : وداعاً للبحر !

كان يمشي ببطء ، ويحس أنه سيسقط لدى كل خطوة ، وقد تجنّب أصحابه فلم يبادلهم كلمة واحدة ، وآثر أن يخرج من الماء ، قبل أن يكتشفوا حالة الاعياء التي هو عليها .

مضى يترنّح وحيداً ، مجهداً ، إلى درجة التلاشي .. وكانت الشمس ساطعة ، وطيور النورس تحوم وتحط على ذرى الأمواج ، وفي الأبعاد مراكب صيد ، وعلى الشاطىء جمع غفير ، وقد دهش أصحابه لانسحابه على هذا النحو المفاجىء . ولهذا الاربداد في سحنته ، هو الذي فاز ومن حقه أن يزهو ويهلل .. أما هو فلم يكن يبالي بما يقولونه

أو يفكرون به . كانت مشاعره المتضاربة تتشوّش لدى كل خطوة وتغيم الرؤية في عينيه حتى لايكاد يتبين طريقه .

سار إلى الرمل وارتمى عليه . أغمض عينيه ليطرد الدوار من رأسه ، واستسلم للدفء فاستشعر الراحة . إنه في النقطة التي تتساوى عندها الأشياء ، وليس يحسّ حقداً ولا عتباً، ولا يرغب سوى في النوم .

كان يضغط بجسمه على الرمل ، يضغطه بقوة ، كمن يودّ أن يغوص فيه ، وعندما رفع رأسه ، بعد قليل ،ونظر في البحر ، استطاع أن يميّز الفتى بجهد . كان هذا يسبح كدلفين نحو الاعماق .. كان فتى وكان قادراً أن يسبح كدلفين نحو الأعماق .

وقال سعيد في نفسه : « اذهب بسلام أيها الفتى »وعاد فأغمض عينيه ، ومن جديد ألصق جسمه المكدود بالرمل، وود لو يغوص عميقاً في الرمل .

لقد أدرك الآن لماذا لم تعد تظهر له « عروس البحر » .

- ٢ -

نام ثمة وفي الحلم رأى أطيافاً من الماضي . أحبّها اليه كان طيف أمه . « آه يابني – قالت له – اليوم عدت من السفر ، كنت بعيدة وعدت من السفر ، لكنني لم أجدك في المحطة . كان الناس ينتظرون الناس . ولم يكن هناك من ينتظرني ، وفي الزحمة ضاعت حقيبتي ، عبثاً بحثت عنها ، بكيت .. استشعرت الغربة والوحدة فبكيت .. ثم وجدت نفسي في عرس . كنت أنت العريس ، وكنت ملهوفة إليك. حاولت التقدم فلم أستطع . ردني المحتفلون إلى وراء . صرخت : « أنا أم العريس ». ناديتك « ياسعيد ، يابني» لكنك لم تلتفت إلي . كنت حزيناً ولم تلتفت إلي . غبت عني من جديد . فلما خرجت رأيتك ، لا أدري كيف ، قد سبقتني . كنت عند الباب ، في يدك باقة ورد ، لكن ثيابك لم تكن جديدة ، وذقنك نابتة . قلت لي : « هيا بنا نمضي سريعاً» « والعروس ؟» « لا أريد العروس .. لست لائقاً بها»

« ولكنك زينة الشباب ». « كنت كذلك يوماً يا أماه..الآن ضاع كل شيء .. أسرعي ، فالذين في الداخل يريدون القبض علي ».

أخذ سعيد ، وهو لايزال مستلقياً تحت الشمس ، يمر بكفه على الرمل . بعض الأحلام تبدو حقيقية كأنها وقعت في اليقظة . « لو أن الحلم يصدق في المنام ، ليالي كتير صادفنا الحباب » تأوه. الآن : في الحلم ، صادف الأحباب. لقد سمع هذا الموال من بحار عجوز . لعله صادف ، هو أيضاً ، أحبابه ، ثم أفاق فلم يقبض إلا على الوهم . الأحلام جميلة ، مؤسية ، وكلما تقدم المرء في العمر ، رآها عذبة ، تستثير حنيناً دفيناً .

أغمض عينيه واستسلم لرقدته المريحة . كانت بقايا الحلم عالقة في أجفانه ، إنه يستعيدها مترفقاً ، وخدر لذيذ يسري في أوصاله . الحلم ليس مخدراً ، هو يعرف طعم المخدرات . يعرف كل شيء . كل الموبقات . كان بحاراً . شرط البحار أن يعيش حياة غير عادية . يجرب كثيراً .رهيبة حياة البحر ... رهيبة وآسرة ، تعطي البحار مزاجاً خاصاً، تجعله في الشجعان أو الأشقياء ، وتقوم لديه مقام المرأة . البحار يتزوج البحر .. يندمج فيه حتى يحس بالانفعال كما مع المرأة . إنه يفهم المرأة لأنه يفهم البحر ، كلاهما متقلب ، المرأة والبحر ، ومن أجل ذلك كان البحارة أحلى الرجال

وأبغض الرجال على قلوب النساء .. هو أيضاً كان كذلك . الفتاة الصغيرة تلك شمّت فيه رائحة البحر ، شمت طهره ، البحر طاهر ونجس ، صاف كعين الديك وعكر كالسيل . حدثها عن السمك . قال لها : « في البحر أنواع من الأسماك». الألوان سحرتها . غداً، عندما تكبر ، ستسحرها من البحر أشياء أخرى . ستعرف أن هذا المدى المترامي يختزن ذاته في ذاته . يحفظ سره وسر الآخرين : يئن .. يخر، يغني ،وفي العاصفة يزأر. يتكلم في كل فصل على طريقته الخاصة ، والناس يمرون به ولا يفهمون عليه ، لو فهموا لعشقوه. نداء جسد هو ، نداء ريح وملح ، وقاع عميق يزخر بالأعاجيب . الفتاة الصغيرة تحب البحر .. من لايحب البحر؟ لكن حبه هو يختلف . يستمد عنفه من عنف النوء ، ورقّته من رقّة الموجة المتكسرة على الشاطىء . إنها لغة أخرى ، والسعيد من حل لغزها ..

الخدر مستمر .. لقد عرف كل أنواع المخدرات ، تلك ضريبة المرافىء . دفعها راضياً ، سعيداً ، صارت شيئاً في الدم . دخلت الجسم مع ملح البحر ، مع خدره الخاص، الخدر الذي يستشعره الآن ، ويستسلم له بكل جوارحه .

ظلت يده تعبث بالرمل . سبحة هو . الرمل كالنار ، كالكأس ، له حديثه ، جاهل من لايعرف حديث الرمل والنار والكأس . في الصمت الكبير ، العميق ، تتحدث

الأشياء الخرساء . تتحدث المرأة أيضاً . شعر المرأة سبحة أيضاً . حين تداعب شعر المرأة ، وتتخلله انامك المحمومة، لُذْ بالصمت . لا تقل شيئاً . شعرها وانامك . سيغتلم الشعر وتغتلم الأنامل . تأتي اللذة الكبرى مترفقة كماء ساخن يسري في الصلب . تحس الشعر جسداً آخر ، إحساس شيخ يمر براحته على الظهر الأملس لصبية مراهقة . إنه شلال ليل ، وأنت فيه كما في مطر من الريش . وقد يكون ذهبياً ، عندئذ تحس كأنك تداعب أشعة شمس في الأصيل . والمرأة نشوى. تستكين وتصمت . تكتشف حبك من أناملك . أنامل الرجل مسارب لذة . منها تنقط . تلج الجسد من المسام ، تنفتح المسام وتغدو فوهات حارة . حين تهتاج المرأة يغدو جسمها كله فوهة حارة .. تكون الأنامل قد تكلمت ، ويكون الصمت تاماً ، تقطعه تأوهات مدفوعة من الداخل ، لاتدري أهي من لذة أم من ألم ..

أحس بالرمل كما يحس بجسد امرأة . إنه ناعم ، أملس، حارّ . حرارته لذيذة يستمد منها دفئاً لقلبه المثلوج ، بينما جفناه المسبلان يتمسكان بمزق حلمية غاربة ، متناثرة . إنه يذوب في النداء الأول ، للمرأة الأولى التي احتضنته . يستعيد بكثير من الإصرار ، شتات الصورة ، ويؤلف منها ملامح مسترجعة للأم التي منذ هنيهات ، قبل أن يستفيق ، كانت إلى جانبه ، تتحدث اليه ، مثلها أيام زمان ، يوم

كانت وكان ، ويوم وجهها أجمل اللوحات ، وصدرها أحب الوسادات .

قال في نفسه « يالقلب الأم ، حتى وهي تحت الثرى، تستشعر حزن ابنها فتهرع اليه مواسية ، جزعة كأنما وقر الثرى لا يبلغ أن يحجب عنها صوته الذي لم تندّ عنه شفتاه».

وقال وهو يفتح عينيه ويحدق في السماء الواسعة الزرقاء من فوقه : « الآن لا أمّ» وانبعث في ذاته هذا التمني الأسيف: « آه لو ترجع الأم ، لو يعود الماضي ، ومرة أخرى ، كما في شريط ، ترجع الحياة ، وأيام الصبا والشباب ».

ظل مستلقياً على ظهره ، غير قادر على التقلب أو تغيير وضعه.خاف إن فعل ذلك أن تفلت منه بقايا الأشياء .واصل استرخاءه مستسلماً إلى راحة جسدية بعد تعب السباق .ومع أنه فتح عينيه ، فان آثار الحلم بقيت على شفتيه . تهيأ له أن أمه إلى جانبه ، وأنه قادر أن يكلمها ، أن يلمسها ، وأن أية حركة ستجعلها تنفر عائدة إلى العدم الذي جاءت منه .

وإضافة إلى أنه غير مستعجل ، فهو لايريد شيئاً ، ولا يرغب في شيء . لقد خاض تجربة قاسية هذا الصباح . تجربة شاملة ، مع البحر والعمر والحياة . ان له بقية قوة . حسناً ، عليه أن يفيد منها ، وأن ينازل كل أبناء العاهرات الذين يتحدّونه . لقد طارد الحياة طويلاً ، ولن يقبل أن تطارده فيما تبقّى من العمر . ستصرعه يوماً . هو يعرف

هذه الحقيقة ، لكنها لن تجده هارباً . سيواجهها .. « أيتها الحياة ، يا صاحبتي العزيزة ، كلانا يختصر الوجود في ذاته. كلانا مسلح بارادة البقاء والمقاومة . ولئن كان عليّ ، لكي تستمري أنت ، أن أفنى أنا ، فـــان لذلك شرطاً : أن تأتيني من أمام .. أنا لا أحب الغدر ، كنت بحاراً ولم أكن غداراً . رأيت الذين يواجهونك في قلب العاصفة ، والذين يتحدّونك في الهول ، والذين يموتون وأنت مذعورة أن تموتي قبلهم ، ورأيت الذين ينوحون ، والذين يتوسلون ، وأولئك الذين يتخلّون عنك خوفاً من وطأة أعبائك ، لكنني أنا ، سعيد حزوم ، لن أسمح لك بمطاردتي .سآتيك وجهاً لوجه . كما يليق ببحار من سواحلنا . سآتي في اللحظة الموعودة ، وأظل أقاوم حتى أنهار ، وبعد ذلك افعلي بي ما شئت ، غيّبيني في الأعماق ، القي بي من فوق الصخور ، جندليني برصاصة أو مدية ، دعي جسدي نهباً للوحوش ، أتركيه للطيور وقيظ الشمس .. أنت ، حين لا أكون أنا ، حرة أن تفعلي ما تشائين .. ولكن قبل ذلك لا ، حذار .. أحبك .. وأباركك ، فلا تكوني ساقطة .. إني لا أحب الساقطين ».

ابتسم لنفسه بإشفاق . سرّه أنه تكلّم كما يجب . فكّر على نحوٍ حسن . عروس البحر لم تظهر له ليلة أمس . اليوم أدرك السبب . لم يعد سيد البحر . ذلك الفتى بين ذرى الموج،

وهو هنا ملقى على الرمل . وامرأة رأت . تخلت ربما، عشقت الآخر ، القوي . ماهم « حبوا علينا ولكن حبوا مثلنا » ودائماً يوجد هذا المثل . الأرض ليست عاقراً . الرجال ينبتون كالزيتون،فيهم خضرته وقدرته على المقاومة، وفيهم صلابتة حتى حين يصيرون حطباً . لقد سابق اليوم. شرف السباق أن تمضي به إلى نهايته ، وهو ، برغم السن ، مضى حتى النهاية .. والآن ، عليه أن ينهض ويسير ..هناك، على الشاطىء ينتظرونه – تلك السيدة قالت له : « بيتي ، على البحر ، بيتك .. في الشتاء يقفر الشاطىء . نعود ، نحن المصطافين ، إلى المدينة . نخاف الريح والموج والعاصفة . تبقى البيوت فارغة ، مهجورة ، وتستطيع ، أنت ، أن تقيم .. أن تشعل المدفأة ، وتجلب المعلبات وزجاجات النبيذ، وتجاور البحر ، وتتحدّاه كما تريد ، أو تتعبّده كما تريد أيضاً .. » .

وقال لها : « هذا مناي ، ويدك كريمة . سأكون حارساً جيداً . أعتني بالبيت ، وأبعد عنه اللصوص ، وأشرع نوافذه للشمس ، حتى لا تعشّش فيه الرطوبة .. وحينما ، في الصيف ، تعودين ، أبدأ رحلتي من جديد ، على طول هذا الشاطىء .. إنني منذور للبحر ياسيدتي ، ونداؤه ، من أعماق اللجة ، سكُبُ استثارة في أذني ، وعالمه ، هذا الذي لا يحدّه بصر ، عالمي ، وساحله ، على المدى المجهول ،

دربي .. وعندما تأتين أنت أكون أنا قد شرعت بالرحيل، فلا أعود إلا في الشتاء ، يوم تغادرين ، وهكذا لا نلتقي. أظل حارس البيت ، وتظلّين سيدته ».

قالت السيدة :

ــ لا أريدك حارساً .. أنا لا أخاف اللصوص ولا قفرة البحر .. أريدك جاراً وفياً لي .

ــ وفائي للبحر .. وجيرتي له وحده ..

ــ وأن أكون أنا .. ؟

ــ لا أكون أنا ..

ــ تهرب ؟ .

ــ من البحر إلى البحر ..

ــ من المرأة إلى البحر ..

ــ معاذ الله .. كلاهما يأسرني .. غير أني وهبته ماتبقّى من عمر ..

ــ وفي ليالي الشتاء ؟

ــ أغزل من نار المدفأة غلالة ذهبية لحبيبي ..

ــ وان أسألك مثلها .. ؟

ــ النار لا تكون غلالة للنار ..

ــ لن تفتكرني إذن ؟

ــ حتى لا أفتقدك ..

– أنت تخافني ..

– أنت امرأة ..

– وأنت رجل ..

– أنا حارس في الشتاء ..

– والسهر يحلو مع الحرّاس في الشتاء .

– حين يكون لديهم ما يقولونه ..

– اصمت إذا شئت ..

– الصمت عين خائنة ..

– تخفي أشياءك عني ؟

– أقولها للبحر ..

– وفي الصيف يفشي البحر سرّك لي ..

– البحر أمين مؤتمن ..

– البحر رسول ..

– إلى عرائسه فقط .

– وعرائس الأرض ؟..

– لفهود الأرض ..

– وتبقى وحيداً ؟

– أبقى حارساً ...

– هواك مع البحر ...

ــ وهو الهوى الأبقى ..

ــ فاذا استبدّ بك الشوق ..؟

ــ الماء أمامي ..

ــ وإذا جئتك منه ؟

فكر سعيد دون أن يقول شيئاً . أن تحدث المعجزة فليس بوسع أحد إيقافها . كل ما يأتي من البحر يصنع سعادة البحار ، لكنه ، في الشرط المسبق ، يحدد وضعه ولا يتجاوزه .هي تريد أن تستبيح الشرط ، ولكل امرأة ، هدفها أن تروض المشروط ، أن تلهو به في نزوة عابرة ..

قال لها :

ــ لا تفسدي عليّ وحدتي .

ــ سأجعلها أكثر امتاعاً ..

ــ أريدها وحدة خالصة .

ــ المرأة لا تفسد وحدة ..

ــ المرأة مع البحر زائدة ..

ــ البحر دون المرأة ناقص ..

ــ هذا تبرير ..

ــ كل شيء دون المرأة ناقص ..

ــ وهذا ادعاء ..

ــ جرِّب إذن .. كن كما في بيتك .. غايتي أن تكون سعيداً

ـ سأكون حارساً سعيداً ..

ـ ستكون ناسكاً قانعاً ..

ـ القنوت مع البحر طيّب ..

ـ لك ما تريد .. اذهب حيث شئت ، فاذا أعولت رياح الشتاء ، تذكر أن لك مأوى قرب البحر .

ـ لن آتي ..

وقالت بوثوق :

ـ بلى ؛ ستأتي !

وقال سعيد في نفسه : « إنها تتحدّاني » وقال أيضاً : « رياح الخريف قريبة، فهل تصدّق نبوءتها »؟ وفكر فيها على نحو معذب ، محاولاً فك لغزها : أتكون ساحرة ؟ شيقة ؟ إنسانة ؟ قلب كريم في مفازة جن ؟ وأنا ؟ من أنا؟ وماذا أصير ؟ أذهب اليها تلبية للدعوة ، أم أضرب في الأرض هائماً على وجهي ؟» وقال بتصميم : « لن أذهب.. لنْ أذهب » وضرب يده على الرمل متحدياً بنفسه هذه المرة.

لقد أحسّ ، منذ هذه اللحظة ، أنه مشدود إلى ذلك البيت الموعود ، وأن دورة الحياة حين توشك أن تكتمل ، تبرز الحاجة إلى مأوى وقلب ، وأنه لا مناص من إلقاء عصا الترحال ، إن لم يكن اليوم فغداً ، وسيسعده ، في الاستمتاع

ببقية القوة ، إن يكون جاراً للبحر ، وصديقاً لسيّدة طيبة.. لكنه حين يفعل ذلك ، يصبح عاطلاً ومأجوراً .. يفقد حريته وزهوه .

اضطرب . فتح عينيه على وسعهما للشمس . الرمل الحار ، والرقدة المريحة . وسماء عالية ،ورائحة البحر القريب، وذكرى الصباح ، وجماعته في الخيام .. ماذا يقولون عنه ياترى ؟ والطفلة تحلم بالسمك الاحمر والأخضر والأصفر ، وهو ، الآن ، ليس لديه سمك أحمر وأخضر وأصفر ، سيكون أقل قدرة على الكلام ، وأقل قدرة على التباهي ، ولن ينظر في عيني النساء .. ولن يقرأ شفقة عليه في ابتسامات الوجوه .. ولن يبالي . حسبه أن ينهض ويرحل . سيسير على الشاطىء ، وسيحكي كل شيء للشاطىء ، ولن يتوقف ليكتب على الرمل . سترافقه الريح ، وتغامزه النجوم ، وتداعب قدميه الأمواج ، وحين يمر به البحارة أو الصيادون سيرحل معهم ، وفي المدى المترامي ، حيث لا حـد ولا حدود ، سيلقي بنفسه في الظلمة ويتابع التسيار .

ازداد تصميماً . جلس على الرمل . زايله الحَذر قليلاً . ظل مستسلماً لشعور بالانفلات من قبضة همّ . يكفي ما فكّر منذ أفاق ، هو والبحر والشمس . السماء عالية ، وخيّل اليه أنها عالية أكثر اليوم . فراح يتملاّها ، ويعجب لزرقتها الفيروزية ، ويلاحق سحباً تتشكل منها حيوانات خرافية ،

تسوقها الريح فتتمدد ، وتستدير ، وتنبت لها رؤوس وأطراف وتمضي مسرعة إلى الغرب فتتجمع وتتلون بالشمس الغاربة .

صار ، الآن ، مندمجاً بكل ما حوله . استشعر الألفة إلى أبعد حد . ذاب في الطبيعة وترك نفسه على هواها . استرخى وقد أحس أن النسيم الرهو ، يحمل من البحر نداوة المساء المبكرة . الناس على الشاطىء يلهون كأطفال .يعودون إلى عفويتهم . يتخلّصون من رقابة العقل ، يتصرفون على السجية ، دون قيود اجتماعية ، دون خجل من حماقات صغيرة هي ملح العيش .

وقف وتمطى . زايله ما تبقى من خدر ، تذكر أنه لم يطعم شيئاً في الظهر ، وعجب لأنهم تركوه نائماً ، وردّ ذلك إلى قناعتهم أنه متعب بعد السباق ، وبحاجة قصوى إلى الراحة . وقال في ذاته « ليس لي بينهم أمّ ولا حبيبة ». لم يغضب لذلك . ربما ، الطفلة وحدها ، فكرت فيه . ما همّ . يكفي أن تفكر به الطفلة وحدها . إنه يحب الأطفال، وقادر ، حتى في حالته هذه ، أن يحكي للصغيرة حكاية ..

لم يفكر في العودة إلى السباحة . كان الآن حيادياً تجاه البحر ، انقلب الشوق اليه إلى نوع من حنين مقهور في ذاته، تماماً كما يحس الرجل ازاء امرأة فارقها عاجزاً لا مرتوياً . ولكي يطرد هذا الشعور ، توقف لحظة على الشاطىء ، ثم انقلب إلى خيمته مسرعاً ، ومر بالناس من حوله دون

أن يلتفت إلى أحد ، ودون أن يأبه لأي من الأجسام المتمددة على الرمل من حواليه .

كان به ظمأ إلى الشراب . ورغم حالته النفسية غير المتوازنة ، انتصرت فيه الرغبة إلى الخمارة ، إنه بحّار بعد كل شيء . ليس له أن يخرج من جلده ، وهو لا يريد ذلك أصلاً ، فالحزن لا يمنعه من الشراب ، وكذلك العمر ، ومثله الإحساس الأسيف بأنه لم يعد سيد البحر ، هذه كلها كانت تدفعه إلى السكر ، إلى الغيبوبة عن وعي يذكّره بما جرى، يشجّعه على مواجهة الحقيقة بالتخفيف من وطأتها ، لكنه ، هو ، لن يسكر ، سيشرب ، لأنه اعتاد أن يفعل ذلك ، لكنه لن يشرب ليسكر .. وحين أراد تمثيل دور المنهزم ، انسجاماً مع المشاعر التي خرج بها من السباق ، وجد رفضاً من ذاته فاجأه . وحين ، تحت وطأة الابهاظ ، نازعته نفسه إلى الهرب ممن جاء معهم ، تمرّد داخله على هذا النزوع .. كانت الرجولة في أعماقه ، تصارع ضد ما يهينها ، وعلى السطح الظاهري للوعي ، كانت صرخة الاستهانة بكل شيء وبكل ما جرى ، هي التي تطلب التعبير عن نفسها بابتسامة استهزاء وشتيمة مقذعة .

شيء واحد عتب له ، أن امرأة واحدة بين هؤلاء النسوة ، لم تكن له أماً ولا حبيبة ، ولم تتحدّ من معها وتأتِ إليه ، وتسأله ما به، وتلامس شعره لتزيل ما به، ولم يكن

يدري أكان ذلك جبناً أم استهتاراً أم لامبالاة . الجواد ، حين يكبو ، لايطلق عليه فارسه . البحار ، حين تصرعه عاصفة ، لا يشمت به رئيسه . والرجل ، حين يضعف ، لسبب ما ، لا تشمت به امرأة . قد يفعل ذلك الرجل ، لكن المرأة لا تفعله . كل ما تفقده هو اعجابها ، حبها ، لكن الشفقة تظل تملأ قلبها الحنون ، وكان سعيد يرفض الشفقة، لكنه لا يرفض الكلمة الطيبة في موقفه ذاك .

مهما يكن فقد أعدّ نفسه ، وهو تحت وطأة المعاناة الرهيبة ، ينوء بشعور حزين مما جرى ، أن ينهض ويتابع طريقه إلى الشاطىء . أن ييأس ، من شيء ما ، لبعض الوقت على الأقل . وكان يلاحظ ، في استلقائه على الرمل ، أن كل شيء معدّ لتكريس فجيعة داخلية،غير أنه،منذ استيقظ ، استردّ عافية البحار ، وهاهو بدلاً من الهروب ، يعود إلى المواجهة ، وعوضاً عن متابعة الشاطىء يقصد الخمّارة .

كان استقبال جماعته له كريماً ومغرياً . الطفلة ركضت إليه وهي في ثياب البحر . كانت مشوقة ولا شك . كانت طفلة وتريد أن يحكي لها عن السمك الأحمر والأخضر والأصفر . ترغب في ذلك وتعمل ، شأن الأطفال جميعاً ، على تحقيق ما ترغب فيه بغير مداورة . وقد سرّه ذلك . احتضن الطفلة وربّت على كتفها . داعب شعرها وخدّها. وعدها بحكاية في المساء .

ـ وجدناك متعباً فلم نشأ أن نوقظك ..

قال أحد الرجال .

ـ حسناً فعلتم .

ـ كان البحر جميلاً اليوم .

« بالنسبة إلي لم يكن كذلك » قال في نفسه .

ـ البحر جميل دائماً ..

ـ وكان السباق قصيراً ومثيراً ..

ـ هذا ما يحدث دائماً .. فتيان الشاطىء يحبون السباق.. ويحبون العراك أكثر ..

وتكلمت سيدة كان يعلّمها السباحة حين برز ذلك الفتى :

ـ السباق أضاع علينا الفرصة ..

قال سعيد محاولاً إقناعها :

ـ لم يضع شيء .. يمكنك ، بعد أن تعلّمت العوم ، أن تتابعي لوحدك .. ما يلزمك هو التمرين ..

ـ حين تكون إلى جانبنا تحلو السباحة أكثر ...

« هذه كلمة مجاملة ، تصلح لمداراة الموقف ..».

ـ السباحة حلوة في كل الأحوال ..

ـ صحيح .. ولكن ..

ـ تابعي التمرين .. هذا كل شيء .. البحر يتكفّل بالباقي ...

– غداً تستأنف تدريبي .. وعدتني بذلك .. ألا تذكر ؟

– طبعاً ..

وقال الرجل :

– ستدرّبنا جميعاً .. لقد تعهّدت بذلك !

وقال سعيد :

– طبعاً ، طبعاً ..

وقالت السيدة محتجّة :

– انتظروا حتّى يفرغ من تدريبي .. الرحلة طويلة .. لا تستعجلوا .

أضافت في نبرة استئثار :

– ستهتم بي وحدي .. أليس كذلك ؟

قال سعيد :

– نعم .. هذا واجبي .

– أقلقنا خروجك من البحر ونومك على الرمل .

– آسف لأنني تسبّبت في قلقكم ..

– يبدو من تصرفاتك أنك ملول .. هل مللت صحبتنا ؟

– صحبتكم لا تُمل ..

– هل تزعجك الصغيرة ؟

– أنا أحبّ الصغيرة ، وبودّي لو أصطاد لها سمكاً أحمر .

قالها ودخل إلى خيمته ، فجاءه صوت من الخارج :

— لكنك لم تأكل بعد .

أخرج رأسه وقال :

— لا شهية لي .. سأغتسل وأرتدي ثيابي قبل كل شيء.

قالت إحدى السيدات :

— سنعدّ لك طعاماً على كل حال .

— سأذهب إلى المقهى .. لديّ ما أفعله هناك .

— ولكننا ننتظرك .. يجب أن تأكل ..

لم يجبها بشيء . لا يريد أن يأكل ولا أن يتحاور . كان مسروراً الآن ، هاهي امرأة تهتم به على خلاف ما توقّع . حادث الصباح لم يكن له ، كما حسب ، من تأثير مغاير ، ربما لم يفطن أحد لمعنى ذلك السباق ونتيجته . هو وحده يقدر دلالة الحدث ، وأثره بالنسبة اليه كبحار .

وضع المنشفة على كتفه. حمل صابونته واتجه إلى الحمام القريب ، معطياً ظهره لشمس الأصيل المعلقة بشكل مائل على صفحة السماء . كان ظله طويلاً . كان يتقدم أمامه على الرمل ، يرسم حركاته بحيدة تامة ، حتى إذا دخل الحمّام اختفى الظل في مكان ما . عندئذ تذكر الأغنية « تعال بلا خيال » وتساءل « من يستطيع الهرب من خياله » ؟ وابتسم في

ذاته لفكرة عارضة : « لو يتكلم الخيال .. كم من فضائح كانت تحدث في هذا العالم » !.

كان الحمّام يعج بالمغتسلين ، كان دائرياً . في وسطه مصطبة اسمنتية مستديرة ، ينتصب فيها عمود تتفرع منه صنابير الماء . وعلى الجوانب ، من حول الباحة ، تقوم بشكل دائري غرف صغيرة ذات أبواب خشبية ، لايتسع كل منها لأكثر من شخصين وقوفاً ، خصصت لثياب المستحمين وأغراضهم . ثيابه هو كانت في الخيمة . لقد أفردوا له خيمة . لم ينم داخلها . آثر الاستلقاء على الرمل ، في ضوء القمر ، ورقاق الموج ، ذات الزبد الأبيض ، على مبعدة ذراع منه ، والخرير موسيقى ناعمة ، موحية ، مهدهدة .. والآخرون ينامون : ينامون ؟ من يدري ؟ ما أطيب أن تكون للرجل ، في خيمة مغمورة بضياء فضي ، امرأة عارية ، يضع ساعده تحت رأسها ؛ لقد حدث في أيام الشباب ، أن كانت له امرأة في خيمة ، وكان ضوء القمر يغمر الخيمة ، فتناول سكينه وأحدث فتحة انسكب منها ضوء القمر على الجسد الغض ، وجلس هـــو يشرب سيكارة ويتأمل .

وقف تحت « الدوش » طويلاً . ترك الماء البارد ، المحيي ، يتساقط على رأسه مدراراً . كان يغمض عينيه ويرفع وجهه إلى الماء . يدعه يهطل قوياً . برودة منعشة تسري

في بدنه كله ، تخترق مسام الجلد وتنفذ إلى الداخل ، إلى القلب ، ومن كل أطرافه ينساب الماء ويجري ، وفرحة غامرة تستبدّ به ، فيتنفّس بعمق ، وراحة ، ورغبة في الاستزادة ، لولا أن هناك من ينتظر دوره ، وعليه ،مهما أطال الاستحمام ، أن ينتهي ، استجابة للذوق السليم ، الذي يحلّه دائماً ، محلّ الاعتبار .

انتشى . كان يعرف أن ينتشي . كان يحب الحياة بعمق، وبعمق يستمتع بكل أعطياتها . ورغم الظمأ الذي يستبد به، لا إلى الشراب وحده ، بل إلى التدخين أيضاً ، فقد آثر ألا يتعجّل ..تصرّف بهدوء ، وثقة ، وإحساس من البهجة.. أن شيئاً في هذا الوجود لا يستطيع قهر من لا يريد أن يُقهر، وهو ، حتى دون تصميم ، كان يرفض أن يُقهر . المقاومة ، في أعصابه ، راسخة . هي الأساس ، وما عداها طارىء. اللحظات التي خرج فيها متعباً من الماء، مرغماً على الإستلقاء فوق الرمل ، والالتصاق القوي بالأرض ، انقضت . استضعفته وهو في الحلم فأعطته رؤى كئيبة ، الليل والنوم، في ساعات الأسى ، يعطيان رؤى كئيبة . تكون الرقابة الصارمة للوعي الذي يرفض التنازل ، غائبة ، وعندئذ ينسج الوهم بيت عنكبوت صغيراً على العزيمة فيضعف منها .

الماء البارد فعل فعله في الرأس والقلب والأطراف . ابترد تماماً . اطّرح كل بقايا الوهن . عاد جديداً. عاد بحّاراً،

رغب أن يغني أو يسمع غناء . خرج من الحمام والمنشفة على كتفه . عند الباب دفع نقوداً للفتى المكلف بحفظ الأمانات. وجد ذلك من متممات سعادته العائدة . الكرم جزء من الرجولة . بغير كرم لا تكتمل الرجولة . والفتى قدم له سيكارة ، يعرفه ؟ ما همّ ، تحية بتحية ، وهو لا يرفض ، ثم إنه يريد . السيكارة هي الشيء الوحيد الذي لا يرفضه ، بل هي الشيء الوحيد الذي يطلبه عند الضرورة . عبّ نفساً وراء نفس . تفتّحت عروقه لدخان التبغ المنتشر فيها . اعتدل مزاجه أكثر . كل شيء متوقّف على درجة الإستعداد للتلقّي ، كان جسمه ، خلايا دماغه ، جوفه الظامىء ، على استعداد لتلقّي موجات التدخين والإنفعال بها . كان الجسم يتطلب ، وتلبيته فورية ، خدر لذيذ ، ولا كذلك خدر الأسى . متشابهان ومفترقان . الدخان يسعد الأسى نفسه ، يخفف منه ويبدده . وكذلك تفعل الكأس . وقال في نفسه : « أي عيش يكون ، لولا السيكارة والكأس » ؟ ليس هما ، في ذاتهما ، هدفاً وحيداً . يعيش المرء لهدف أكبر ، لقضية ، لهواية ، ويأتي الدخان والكأس ، في نهاية الجهد، مكافأة للجسد الذي تعب في مرام النفس . لقد صارع اليوم، لم يخذله جسمه . عضلاته ، رغم الخمسين ، قاومت . ذلك الفتى لم يسبقه . له المستقبل ، هذا لا خلاف عليه ، لكنه لم يسبقه . يستطيع إذن ، حتى لسنوات مقبلة ، أن يبقى بحاراً.

وتلك السيدة التي دعته إلى بيتها المهجور على الشاطىء ، كانت تعرف أن لديه بقيّة . المرأة وحدها ، أكثر من رادار ، تكتشف في الرجل ، بقية رجولة وتحبها . تكون الأشياء ، في هذه الحال ، قد تعتّقت . المرأة تحبّ ما تعتّق في الرجل : المراس والخبرة والقدرة على الاحترام . تنبذ الفتى وتعشق الرجل أحياناً . تبقى مع هذا الأخير عمراً كاملاً ، بينما الفتى ، بدلاله وهشاشته ، يفسد الأشياء ، يجعلها مرفوضة من امرأة تريد شيماً بمقدار ما تريد رلوجاً ، بل إنها ، على المدى ، ترضيها الشيم أكثر .

غادر الحمام نشيطاً . كان حافياً ، وجسمه الفارع ، المنحني قليلاً إلى أمام ، ينتصب تلقائياً . وكان الرمل حاراً ، فاضطر إلى الوطء الخفيف ، المتعجّل ، كأنه يتوثّب في مشيته . وكانت الشمس متألقة والبحر رحيباً ، والشاطىء حافلاً بالاجسام ، والخيام تتبعثر ، بألوانها الزاهية .. خياله فقط تخلّف عنه . صار وراءه ، يتبعه ككلب أمين ، ويتكسّر على الخيام والكراسي . كان خيالاً مرناً ، يرتفع ، ينخفض ، يستطيل ، يتقاصر ، يقتحم جميع الحواجز ملاحقاً صاحبه في دأب عجيب ، حتى إذا دخل سعيد خيمته غاب الخيال في مكان ما ، مترصداً كمن يقتفي أثراً ، دون أن تفتر همّته في الملاحقة .

بعد قليل انقشع ستار الخيمة . كان سعيد ، الآن ،

يرتدي بنطالاً أزرق وقميصاً رمادياً مفتوحاً ، ويعصب رأسه بزنار عنابي ، تاركاً طرفه يتدلى على كتفه ، وفي قدميه حذاء معكوف ، مما يلبسه البحارة ، وعلى ذراعه اليمنى ، من الداخل ، رسم موشوم بالأزرق لامرأة نصفها سمكة .

تبدّى بكامل رجولته . وجه مستطيل ، معروق عريض في الوسط ، له أنف دقيق الرأس ، واسع الفتحتين ، وذقن عظمية ، حليقة ، وشاربان صغيران ، فيهما شعرات بيض ، وكتفان عريضتان ، فوق لوح جذعيّ متين ، وساعدان قويان ، ينتهيان بأصابع طويلة ، وجسم طويل أخمص البطن ، وعيناه العسليتان تغوصان في محجرين على شكل لوزتين كبيرتين .

وقف أمام الخيمة وألقى نظرة شاملة على البحر . شعر بامتنان مفاجىء . زايلته الحيدة الباردة ازاءه . في وسعه الآن ، أن يقول نعم لكل شيء . لقد استعاد نفسه . رجع سعيد حزّوم قبل السباق ... ابن هذا الأزرق الواسع ، ذي المرافىء الغجرية البعيدة ، والنساء والخمارات وكل صنوف الأعمال والشقاوات .

جاءت الطفلة اليه :

– أين السمك الأحمر ؟

– في البحر ياعزيزتي .

ــ ومتى تمسك لي واحدة ..؟

ــ في الليل .. عندما ينام الناس .

ــ تأخذني معك ؟

ــ لا .. أنت لا تستطيعين المجيء معي .

ــ لماذا ؟

ــ أنا سأذهب إلى بعيد ..

ــ إلى أين .. ؟

فكر ببيت المرأة على الشاطىء المهجور ، وبالدعوة الغامضة التي تخيفه وتستثيره وقال :

ــ إلى قصر ملكة البحر .

ــ وماذا تفعل هناك ؟

ــ أحرس القصر ..

ــ عندك بندقية ؟

ــ لا أحتاج إلى بندقية ..

ــ الحرّاس يحملون البنادق ..

ــ هذا صحيح .. ولكنني لا أملك بندقية ..

ــ خذ واحدة ..

ــ من أين ؟

فكرت الطفلة قليلاً وقالت :

ــ من البابا ...

ابتسم سعيد في داخله . كانت الطفلة جادّة ، وعلى استعداد أن تسأل حتى تنام ، وكان يودّ أن يجيبها ، لولا أن أسئلتها تسبب له حرجاً ، وتدعوه إلى شيء من التلفيق ، ولولا رغبته في الذهاب إلى بار المقهى ، كي يبرد جوفه بشيء من البيرة .

أدرك أن الكذبة البيضاء تنقلب إلى كذبة سوداء مع الطفلة . السمك الأحمر والأخضر والأصفر لا وجود له على هذا الشاطىء ، وكان يريد أن يقرّب عالم البحر من ذهن الطفلة ، ويلوّن موجودات هذا العالم في نظرها ، فوعدها باصطياد مثل هذا السمك العجيب ، وها هي تلاحقه طالبة تنفيذ الوعد ، فلا يستطيع أن يفي به ، ولا أن يصارحها بأنه كان يكذب عليها .

فجأة سألته الطفلة :

ــ هل اصطدت سمكاً أحمر لأولادك ؟

ــ اصطدت كثيراً ...

ــ وأين هم أولادك ؟

ارتعش في ذاته . لقد عرف نساء كثيرات ، في مدن كثيرة ، وربما ، في هذا المرفأ أو ذاك ، زرع طفلاً أو طفلة، لكنه ، حين تزوّج ، لم يرزق أطفالاً . كانت زوجه عاقراً،

ولم يقيض له أن يرى طفلا ، من صلبه يوماً ، وقد أسف لذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، فبماذا يجيب الطفلة ؟

— أولادي في بلد بعيد ..

— في البحر ؟

— نعم ..

— في قصر الملكة ؟

— نعم ...

— هل للقصر حديقة ؟

— لها حديقة .. وفيها أشجار عليها عصافير ...

— هل تمسك لي عصفوراً ؟

— حين أذهب إلى هناك ..

— متى ؟

— الليلة .

— تأخذني معك ؟

— لا أستطيع .

— لماذا ؟

وقالت الطفلة وقد رأته متردّداً :

— تعال نستأذن البابا .

وقال لها محاولاً التملص منها :

ـ أنا مشغول الآن .. اذهبي .. سأناديك حين أعود.. هل هذا جيّد ؟

ـ لا تتأخر ..

ـ لن أتأخر ..

قالها وقبّلها . ربت على كتفها وهو يصرفها . وحين غادرته أحس أنه كذب من جديد ، وأنه ، لو بقي معها ، سيكذب أكثر ، وتساءل : «كيف العمل كي لا يكذب الكبار على الصغار» ؟

استدار ، بعد ذلك ، حول الخيمة ، قاصداً المقهى . صمّم على الرحيل الليلة بالذات . ندم لأنه تورّط في أكاذيب مع الطفلة . وجد في ذلك سبباً إضافياً للرحيل . في الصباح لا يجدونه في خيمته . لا يهم ماذا يقولون . الرجال ، وهم دائماً أقل ذكاء من النساء في مثل هذه المواقف ، لن يفهموا بسهولة . سيتوقعون أشياء لا تخطر على بال ، أقلها أنه ذهب إلى المدينة في الصباح الباكر ، أو أنه غرق ، بينما كان يسبح ليلاً ، أو حدث له حادث غامض ، وبعضهم قد يرتاح ، لأنه تخلص من شخص غريب الأطوار ، وربما تفقّدوا محافظ نقودهم ، خشية أن يكون قد سرقهم وهرب ، ومن غير المستبعد أن يتوقعوا عودته ، خارجاً من البحر أو آتياً من البر ، غير أن النساء سيحدسن على نحو مغاير ، فيرجعن السبب إلى السباق ، أو إلى وحشية سلوكه الإجتماعي ،

وقد تقول امرأة جميلة في نفسها : « خاف من التجربة »، والطفلة وحدها ، دون أن يصدقها أحد ، ستقول إنه ذهب إلى قصر الملكة في البحر ليصطاد لها سمكاً أحمر ، أو يمسك عصفوراً من حديقته .

من جديد انبثق ظله واستطال على الرمل . مشى أمامه هذه المرة ، زاحفاً في حركة تمـــاثل خطوه الواسع . كان الخيال يملك ، في ذاتـــه ، دماغاً مستقلا ، فما أن يأتي سعيد بحركة حتى يقوم ، في اللحظة نفسها ، بحركة مطابقة. وكانت القدمان ، تحت ثقل الجسم الذي تحملان ، تغوصان في الرمل الأسمر ، ويقذف النعلان المصطفقان على الكعبين، بنثار يلمع كالزجاج تحت وهج الشمس ، تاركين وراءهما خطاً متعرجاً للسير المتمهل ، متقاطعين مع آثار أقدام مضت قبلهما في اتجاهات شتى .

بعد ذلك صعد الظل الدرجات القليلة لمصطبة المقهى الواسعة ، وامتد على البلاط ، مخترقاً الزبائن الجالسين ، ثم غاب كما انبثق ، مترصداً في زاوية ما . ولم يأبه سعيد له.. لم يكن يلحظه أصلاً . كان قد اعتاده كرجل ملاحَق يعتاد تابعه . وربما ، في الرصد العام ، كانت الظلال ، في هذه المتابعة الملحاح ، هي الأخف ثقلا على النفوس .

وكان الجالسون في المقهى ، بعد أن تخلصوا من ظلالهم التي عادت إلى العدم ، يتوجسون خيفة من ظلال أخرى،

قد لا تتقصدهم هم بالذات ، ولكنها تفسد عليهم مزاجية الجلسة المترفة ، متعجّبين من رجل لا يبالي بمن حوله ، ويمضي متعجّلاً ، مزهواً ، كأنه لا يعرف الزمن الذي يعيش فيه .

أما سعيد فقد قصد « البار » رأساً . كان يفضّل ، على « كازينو » كهذا ، مقهى شعبياً ، إلا أن الأوادم الذين جاء معهم أمس ، فرضوا عليه أن ينزل في هذه البقعة من الشاطىء ، وأن يلتزم شيئاً من السلوك المهذب ، فلا يأتي بالخمرة من الخارج ، بل يطلبها من بار الكازينو .

وبرغبة كاملة في أن يكون كيّساً ، ولا تبدر منه حركة تسيء إلى نظاميّة الجو ، وروح الرصانة المطلوبة ، تقدّم بين موائد الزبائن ، مدهوشاً من الإزدحام الشديد ، الذي اضطر الناس إلى التجمع ههنا ، كأنه لم تعد ثمة ، على الشاطىء كله ، أماكن لاستيعابهم . خيّل اليه أن بطراً قد أخذهم ، وأنه لو فُتح كل يوم مقهى جديد ، أو علبة ليل جديدة ، لامتلأت بالرواد ، فالطبقة الغنية ، التي صارت حديثاً غنية ، تعبر عن نفسها بهذا البَطر الانفاقي ، وأنها باتت لا تعرف ماذا تفعل بنقود لم تتعب في جمعها ، بينما الآخرون ، الذين نُهبت منهم كل هذه الأموال ، يواجهون شظف العيش ، ويجأرون بالشكوى .

وحين بلغ « البار » كانت هذه الأفكار ما زالت تشغل

ذهنه . صحيح أنه لم يعتد التفكير الدائم بقضية الغنى والفقر ، ولا اكترث بالسياسة اليومية ، ولا عرف التأملات الإجتماعية وأبعادها ، لكنه يعيش بين الناس ، ويسمع من الرجال عشرات القصص المؤلمة ، فيروح يتساءل : « لماذا ؟ لماذا ؟.. »

وبرغم أنه يعمل في البحر ، ولا يقترب من المرفأ ، ويكاد عالمه الخاص ، المتوحش ، يبعده عن الاهتمام بما يدور في المدينة ، إلا أن البحارة ، والصيادين ، وعمال المرفأ ، يروون قصصاً لا تنتهي عن تحول المرافىء إلى حظائر لبعض أنواع اللصوصية ، وعن صناديق البضائع التي تُكسر وتنهب ، وعن شاحنات تخرج من كل مرفأ ، حاملةً المنهوبات ، دون أن يستطيع خفير أو حارس أن يوقفها أو يُصادرها .

ولقد ازداد ، وهو على « البار » ، تفكيراً بكل هذا . امتعض لذلك بغير تحفظ . تذكر أن فلاناً وفلاناً ، من أهل المدينة ، لم يكونوا يملكون شيئاً ، ثم فجأة اغتنوا . صارت لهم أراض وقصور وسيارات .. صاروا ، بين عشية وضحاها من أصحاب الملايين . وأن فلاناً وفلاناً ، من أولاد الذوات ، كانوا قبل سنوات مجردين من أبهة السيطرة التي مارسوها فيما مضى ، وكانوا قد شرعوا يعيشون بتواضع ، وقد خيل إلى الجميع أن نيوبهم قُلعت ، فاذا هم اليوم يعودون إلى الظهور ، كأنهم هم ذاتهم بالأمس .

« ما يجري فظيع .. » كان يقول في نفسه ، ثم ينسى ذلك

إلى أن يفجأه منظر ، أو يسمع قصة ، أو يصادف حادثة، فتثور فيه مشاعر ألم أبكم ، تؤرقه بعض الوقت .

وفي وقوفه على « البار» ،عاودته ، الآن ، مشاعر مماثلة. إنه يرى أشياء عجيبة من حوله . وبانتظار مجيء دوره، أو التفات الساقي اليه ، جعل ينقل نظره في صفوف الموائد، ويستعرض الوجوه ، ويتذكر اللافتات في الشوارع ، وإعلانات التلفزيون ، عن عشرات من الكازينوهات وعلب الليل ، وعن مئات من المغنّين والمغنّيات ، وعن أسماء عربية وأجنبية لراقصات توافدن من كل أنحاء العالم ، ليقدّمن تسليات ترفيهية لأصحاب الملايين الـذين تكاثروا تكاثر الفطر في غابة وحشية ، وكان يتساءل بحنق : « لماذا يحدث كل هذا ؟ ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً في ذات نفسه : لا أدري ؛ لا أدري ! ...».

ولكي يتخلّص من شيطان التفكير الذي كدّره ، صاح بعفوية واندفاع :

– زجاجة بيرة إذا سمحت !

أضاف :

– باردة جداً .

لم يسمع الساقي ، أو تجاهله فلم يلتفت اليه . كان مشغولاً بالآخرين ، فاتكأ سعيد على البار ، وراح يتأمل الزجاجات

على الرفوف ، دون أن تقع عيناه على زجاجة عرق واحدة.

ــ أليس عندكم عرق ؟ .

استدار شاب اليه ، وتفحصه ملياً ثم قال :

ــ هنا لا يبيعون العرق ياسيد !

ــ لماذا ؟ .

وقال آخر ضاحكاً :

ــ لأننا في زمن الويسكي ..

وقال رجل يجلس على كرسي مجاور :

ــ العرق صار موضة قديمة ..

ــ مهما يكن ــ قال سعيد ــ العرق مشروب آبائنا وأجدادنا.

فقال الرجل :

ــ الرحمة عليهم أجمعين .. كانوا يعتبرون العرق مشروباً وطنياً .. أما الآن .. انظر.. كلّ هؤلاء يشربون الويسكي ..

وقان الشاب :

ــ في كازينو محترم كهذا لا يشربون سوى الويسكي ..

أضاف :

ــ تستطيع أن تجد العرق في المقاهي الشعبية ..

ــ أعرف ــ قال سعيد ــ أعرف ، ولكن ماذا جرى

للدنيا ؟ .

أجاب الشاب :

– لا شيء ... مازالت تدور .. هكذا يعلّمون التلاميذ في المدارس ..

كان فتى مليحاً ، بادي النعمة ، ثملاً قليلاً ، وقد رازه سعيد ، ثم تحول إلى الساقي وقال :

– زجاجة بيرة من فضلك ..

لم يستجب الساقي للنداء . وحين كرر سعيد الطلب أجابه بحدة :

– ألا تراني مشغولاً ؟ . انتظر ..

– إلى متى ؟ .

– لا أدري .. قلت لك انتظر .. أو اذهب إلى طاولتك واطلب ذلك من النادل ..

– لا أجلس إلى طاولة ...

– كيف ؟ .

– أنزل في خيمة على الشاطىء ..

– مهما يكن .. هنا كازينو .. إجلس إلى طاولة كالآخرين.

قالها وأدار ظهره يلبّي طلب زبون يجلس على أحد

مقاعد البار ، فأمسك به سعيد من كتفه وضغط ،وقال بلهجة قاسية :

– زجاجة بيرة باردة .. فوراً ..

كان العطش قد استبدّ به . لم يعد يستطيع الإنتظار ، وكان الساقي رخواً ، بليد الحركة ، ولأمر ما مال إلى المشاكسة، فدفع يد سعيد عن كتفه بنزق وصاح :

– ليس عندنا بيرة .. انصرف .

فكر سعيد : « هاهو فتى آخر يتحدّاني .. إنك على البر الآن . كان يجب أن يكون لطيفاً أكثر . يبدو أن الفتيان هنا يحبون العراك،وعلى المرء أن يسابق أو يعارك، لا بأس ، الحياة معركة كبيرة ، أو سباق كبير .. لا فرق ».

– اسمع ، أريد بيرة باردة ..

– قلت لك لا توجد بيرة .. انصرف ..

كان إلى جانب البار مدية . كانت مدية ذات رأس . أشبه بخنجر ، وضعت هناك خطأ ، أو نسيها أحدهم . وكان « البار » ، وراء قوس المشرب ، عبارة عن واجهة خشبية مقطّعة، ذات كوى صغيرة، صُفّت فيها زجاجات الكحول بشكل مثير ومغرٍ . وكانت الويسكي ، والكونياك ، والنبيذ

الفرنسي ، في أبرز هذه الكوى ، وفوق الواجهة زجاجة خمر كبيرة كاعلان .

خطر لسعيد ، في جموح غضبه ، أن يتناول الزجاجات الفارغة عن « البار » ، ويقذف بها الواجهة الويسكية ، المتلألئة بصفرة أصيلية . كان قادراً ، ومقتنعاً أيضاً ، أن هذا ما يجب ، وأن معركة مع الساقي تساوي تعبها ، تعبر عن نقمة الناس على كل الحمأ الذي تجمّع في المدينة وانساح على الشاطىء ، لكنه ، لاعتبارات خاصة ، ليس أقلها أنه يأتي البحر هذه المرة برفقة صحب كرام ، أعزاء عليه ، توقّف عن تنفيذ ما خطر له ، وللتنفيس عن غيظه ، تناول المدية من جانب البار ، بخفة أدهشت الساقي الذي طفق يتابعه محدّقاً فيه بعينين مذعورتين .

كان هادئاً جداً ، وكان هدوؤه مشوباً بتوتر داخلي ، وفي نظراته يلتمع وميض برقي ، ووجهه ذو الأنف الواسع الفتحتين ، تختلج عضلاته ، وينبض الدم في شرايينه متسارعاً ، والشاربون على «البار» قد لفتهم تناوله للسكين ، فما يدرون من منهم سيطعن بها .

بسط كفه اليسرى فوق خشبة البار . وانهال بالسكين عليها ، في حركة سريعة ، فجاءت الضربة محكمة كما أراد ، بين الوسطى والسبابة ، وقلب كفه وضرب من جديد ، فجاءت الضربة محكمة أيضاً ، بين الإصبعين المذكورين ،

وهكذا ، بخفة عجيبة ، أتقنها لطول المران ، جعل يضرب بالسكين بيد ، ويقلب كف اليد الأخرى بطناً لظهر ،ويأتي التسديد دقيقاً فما يمس اللحم ولا يغرز في الكف كما توقّع المشاهدون .

لقد تعلّم هذه اللعبة الخطرة في أحد المرافىء . رأى بحاراً بولونياً يقوم بها ، فتدرّب عليها حتى أتقنها ، دون أن يغامر ، كذاك البحار ، بأن يضرب السكين ، في تتابع سريع ، بين الأصابع كلها . اكتفى بحركة واحدة ، هي هذه التي أتاها الآن ، فبدا كساحر يقوم بلعبة غاية في التعقيد ، تدلّ على مهارة ورجولة معاً .

وحين استشعر الراحة،من جرّاء الاسترخاء الذي امتصّ نقمته ، ألقى بالمدية في الهواء،واستلقاها برشاقة من المقبض، ثم وضعها في مكانها بهدوئه الظاهري ، دون أن يصطنع هيئة من أتى أمراً غريباً .

كل ما فعله أنه سأل الساقي :

— هل لديك بيرة باردة ؟ .

وقال أحد الجالسين إلى البار :

— بل ويسكي ... ندعوك إلى قدح من الويسكي ..

بسط كفه اليمنى على صدره وقال :

– شكراً .. أريد بيرة باردة ..

خرج الساقي من صدمة الذعر ، وأسرع بزجاجة بيرة وقدح ، وهو يقول معتذراً :

– ما قصدت الإساءة .. كنت مشغولاً فقط . أنت ترى الناس من حولي ! .

ولم يقل سعيد شيئاً . مدّ يده ونحّى القدح ، فلما فتح الساقي الزجاجة قبض عليها بقوة ، ورفعها إلى أعلى ، فاذا ما فيها من سائل يجري في شدقه المفتوح حتّى أتى على الزجاجة كلها ، وبعد ذلك وضعها على خشبة البار بالهدوء السابق نفسه ، وقال بنبرة آمرة :

– زجاجة أخرى !

وظل الصمت سائداً ، فلم تسمع نأمة سوى كركرة الزجاجة المرفوعة إلى أعلى .

- ٣ -

أطفئت الأنوار على الشاطىء . الخيام أسدلت الستائر على الأبواب ، ولم يبق ساهراً إلا القمر في السماء ، وسعيد حزوم ، أمام خيمته ، على الأرض ، أو هكذا خيل اليه ، حين لم يبق هناك مصباح واحد مضاء ، وحين سادت الظلمة الكازينو ، وتوقف الغناء الذي كان ينبعث من آلة تسجيل مفتوحة على مدى الصوت .

كان قد عاد من البار بعد أن روى ظمأه . حمد لنفسه أنها انضبطت معه في الوقت المناسب ، فهذا الساقي المخلع لا يستحق أن يُضرب . بعض الناس ، في رثاثة شكلهم ، وهشاشة بنيانهم ، لايستحقون حتى أن يضربوا . يشعر الرجل ، حين يعارك نذلاً صغيراً ، أنه اقترف إثماً في حق رجولته ، وكان سعيد من هذا الرأي دائماً ، وقد أنف على كثرة ما طوّف في المرافىء ، أن يعارك الذين لا يستحقون ، وكان يقول ،

بينه وبين نفسه : « لا فائدة من العراك مع الذين يؤجرون أقفيتهم » .

لقد سرّه أن كل شيء انتهى بسلام . وسرّه أكثر أنه لم يُسقط فشل السباق على الساقي ، في محاولة لاشعورية للتعويض عما حسبه إهانة لحقته . كذلك لم ينفجر غضبه على الشاربين حول « البار» أو الجالسين في الكازينو ،فالحقد الذي استشعره من جراء المخازي في المرفأ ، والفساد في المدينة ، وهذا البطر على الشاطىء ، وما أثارته رؤية الويسكي في نفسه من أسى ، غيّضته البيرة في قرارته ، وقال في نفسه وهو يغادر الكازينو حاملاً كيساً ورقياً مليئاً بزجاجات البيرة المثلجة : « انني بحار لا أكثر . أنا أتألم لما أرى وأسمع ، ولكنني لا أفهم في هذه الأمور ، ولا أعرف كيف يمكن إصلاحها ، أتساءل : يأتي يوم نتخلص فيه من الظلم ، من الإضطهاد ، من الإستغلال ، من الفقر ، من العدوان ؟ إلامَ تستمر لعبة الكراسي والحكام ؟ منذ أن وعيت الوجود وأولاد المدارس يتظاهرون ، والأحزاب تتكاثر ، والاجتماعات تُعقد ، ويقولون أشياء كثيرة ، ولكن ماذا يجدي كل ذلك ؟ متى تتحرّر فلسطين ؟ ومتى يستعيد العرب أراضيهم وحقوقهم؟ ومتى يتوقف نهب الأغنياء للفقراء ، وتكف الأسعار عن الارتفاع ؟ إنني ، بعد كل شيء ، مواطن ، وأنا نفسي كنت تلميذاً وتظاهرت ضد فرنسا ، وتحمّست لتأليف نقابة

في المرفأ ، ولزوال نفوذ ذلك العجوز صاحب المواعين ، واشتركت في الحملات الانتخابية التي سقط فيها المرشحون الأوادم .. ثم لحقت البحر ، صار هوايتي وسوستي ،وكففت عن الاهتمام بالسياسة .. لكنني مستعدّ أن أموت في كل وقت لتصبح الأشياء جيدة دفعة واحدة . أموت غداً إذا شاءوا، على أن تتحرّر فلسطين بعد غد ، ويصير لكل عائلة بيت ، ولكل رجل شغل ، ولا يعود هناك فقراء ومرضى وجياع .. إنني لا أملك نَفَساً طويلاً . لا أستطيع قضاء الوقت في المجادلة كالآخرين ، وليس لي الصبر على قراءة الصحف وسماع الأخبار ... ويقولون لي : « الدنيا عوجة » منذ آلاف الأعوام ، وتريدها أن تستقيم في يوم »؟ ولماذا لا ؟ في أسبوع ، في شهر ، في عام ، عام طويل ، فيه الربيع والصيف والخريف والشتاء ، فيه مئات الأيام والليالي ، فيه ما لا أدري من الساعات ، أفليس هذا صبراً طويلاً ؟ محال ! أنا غريب الأطوار وحشيّ الطباع . إنني لست خارجهم ، لا أريد أن أكون خارج الناس ، ولكن كيف السبيل إلى أن يكون لي صبرهم ؟ أعرف رجلاً في حيّنا ، كان يعمل في إدارة الريجي . كان عاملاً بسيطاً ، ميكانيكياً، وكان دخله جيداً ، يكفي عائلته ، وكان يستطيع أن يعيش مرتاحاً ، قرير العين بزوجه وأولاده ، ففضّل على ذلك أن يناضل لأجل نقابة لعمال الريجي . صارت النقابة قضيته ،

يصبح يتكلم فيها ، يمسي يتكلم فيها ، يدور على زملائه العمال بعد الظهر ، يجتمع بهم في الأسواق والمقاهي ، يجمعهم في بيته ، يتحدّث اليهم ويتحدّثون اليه .. وذات يوم أعلنوا الإضراب . وقف على رأس المضربين . تلقّى التهديد بعدم اكتراث ، تلقّى الضرب بلا مبالاة ، وحين هاجم رجال الشرطة المضربين اشتبك معهم في عراك ، وسجن لأجل ذلك ، وبعد السجن أصبح عاطلاً عن العمل، فراح يكتب العرائض ضدّ التسريح التعسفي ، وضدّ إدارة الريجي ، وذهب مع وفد من العمال إلى العاصمة فقابلوا المسؤولين ، وظلّ كذلك سنوات ، ثم أعيد إلى العمل ، وتألفت النقابة ، ولم يرشّح نفسه حتى لرئاستها ، وتحدثت إليه ذات يوم فقال : « أخيراً انتصرنا ؛ صارت لنا نقابة» قلت : « هل تستحق النقابة منك كلّ هذا التعب » ؟ قال: « واكثر .. النقابة ليست القضية بذاتها ، إننا نسعى لنحصل على حقوق العمال ، وتأليف النقابة خطوة كبيرة على الطريق. صار للعمال شكل من التنظيم بعد أن صار لهم وعي نقابي، تضامن بين أبناء المهنة الواحدة » قلت : « والحقوق ؟» قال: « هذه تأتي .. ستكون هدفاً من أهداف نضالنا حتى نحصل عليها » « ومتى تحصلون عليها وترتاحون » ؟ « نحصل عليها كلها » ؟ «نعم كلها » . « هذا يحتاج إلى وقت طويل .. يحتاج إلى عمل مستمر واسع ، وتضامن بين جميع العمال ،وبين

جميع المواطنين ، حتى نستطيع تغيير النظام ، حتى نتوصل إلى الإشتراكية » قلت : « بَعْدَ كَمْ من الأيام يتغيّر النظام كما تقول »؟ فربّت على كتفي وقال : « هذه مسألة طويلة .. مسألة عمر.. قد أموت ولا أراها ، لكن أولادي سيرونها ، فاذا لم يروها رآها أولادهم .. المهم أن ذلك اليوم سيأتي..إننا،الآن،ننتزع حقاً بعد حق.. كان العامل،في الماضي يعمل نصف عمره عند صاحب العمل ، فاذا شاخ ، أو عجز ، أو أقعده المرض ، يلبطه على قفاه ، ويطرده ، دون حقّ ، دون تعويض .. اليوم تغيرت الحال ، صار العامل يأخذ تعويضاً عن سني عمله ، وصار يعمل ساعات محددة في اليوم ، وصارت له أيام عطل مدفوعة الأجر ، وله حقّ التداوي .. وكل هذا بفضل نضال العمال ، بفضل تضحياتهم ، وبفضل موتهم أيضاً .. لقد مات كثير من المناضلين حتى وصلنا إلى هنا ، وسيموت كثيرون ، ويُسجن كثيرون ، ويتشرد كثير ، حتى نصل إلى كامل حقوقنا ».

كان مربوع القامة ، قويّ البنية ، أشيب الشعر ، يداه خشنتان ، يدا عامل ميكانيكي،وكان جدياً يوحي بالإحترام فسألته : « منذ متى تعمل في الريجي »؟ « منذ عشر سنوات » «ومنذ متى تناضل» ؟« قبل ذلك بكثير ..» « وكنت تعرف أن عليك أن تواجه كل هذه المصاعب »؟ « تقريباً» « وتنتظر

كل هذه الأيام حتى تتألف النقابة »؟ « نعم .. نعم ». « ياللك من رجل صبور »! « صبور على ماذا »؟ « على هذا الوقت الطويل طبعاً » « هذا لا شيء .. هذه هي الحياة ، وما نفعها إذا كانت بغير نضال ؟ ومن يبدّلنا حالاً بحال إذا لم نناضل؟ وكيف كنا نستطيع إخراج فرنسا؟ ألم تسمع بالثورة السوريّة.. نلنا الاستقلال بعد عشرين عاماً منها..وكان هذا زمناً عادياً.» قال ذلك وسألني : « هل أنت رجل عصبي »؟ قلت : « لا أدري.. أنا بحّار .. وأنا ابن هذا الوطن ، وكل مافيه يهمّني .. وأريد أن تكون الحال أفضل .. لكنني لا أستطيع الانتظار .. أستطيع أن أموت الآن .. لأجل القضية أموت الآن .. لكن انتظار عشر سنوات وعشرين سنة .. آه ؛ كيف تتحمّلون كل هذا »؟ فابتسم ووجّه إليّ هذه النصيحة : « حين يعمل الانسان ينسى الزمن .. اعمل وكفى ؛ دع كل شيء يحدث في حينه .. أنت بحار .. أنت تحب البحر.. أنا أيضاً أحب البحر .. سافرت كثيراً على متنه .. كن بحاراً جيداً .. تضامن مع البحارة وهذا كل شيء .. أحبّ ،تزوّج، ليكن لك أولاد .. اعمل ما شئت وكن شريفاً .. لاتكن نذلاً .. وإلى اللقاء ».

تنفّس سعيد بعمق . انتبه إلى نفسه فجأة ، فوجد أنه صار في الطرف الآخر من الخيام . كان المساء يقترب ،

وهواء الليل بدأ ينسم من الغرب ، وكيس زجاجات البيرة الباردة فوق يده المركونة على الجانب الأيمن ، والخواطر قد شردت به بعيداً . إن ذلك العامل ليس كل من صادف من هذه الشاكلة . عرف الكثيرين من أمثاله . إنه يحمل لهم احتراماً خاصاً . لا طاقة له على النضال مثلهم . لكنه يحب فيهم نضالهم ، لقد حفظ الوصية جيداً . لم يكن نذلاً في يوم من الأيام،ولم يتخلّ عن البحّارة في قضية أو محنة،ولا فرّط في حق الزمالة ، ولم يغدر بزميل ، غير أنه لا يستطيع أن يصبر على شيء وقتاً طويلاً . نفاد الصبر هذا بليّته الكبرى. كيف يلجم نفاد صبره ؟ كيف يتعلم أن ينسى الوقت ويعمل بنفَس طويل ؟ ذلك العامل ، كما سمع بعد ذلك ، سُجن في قضية حزبية ، كان منتمياً إلى أحد الأحزاب ، وكان له من الصبر أن يناضل نقابياً وحزبياً ، وسأل في ذلك أحد عمال المرفأ فقال له : « مانفع أن يناضل العامل لأجل حقوقه في المعمل وينسى حقوقه في الوطن » ؟ « لكنهم توصلوا إلى تأليف نقابة في الريجي ، فماذا يريدون بعد ذلك »؟. فكر العامل وقال : « لا أدري .. إذا لم يكن الوطن بخير فلن يكون الوضع في الريجي بخير .. الريجي والمرفأ وسكة الحديد واحدة . العمال متضامنون في كل المصالح ، في كل المدن ، في كل أنحاء البلد ، هكذا يقولون ، ويقولون أيضاً : « النقابة بغير سياسة لا قيمة لها .. المهم أن يتحرّر الوطن وأن يتقدّم..

ألا ترى أنه يتقدّم وأننا نتقدّم » ؟ .

قال سعيد في نفسه وهو يستعيد هذه الكلمات : « التقدّم؛ التقدّم ؛ فأين هو هذا التقدّم ؟ ولماذا لا يحدث دفعة واحدة ونستريح ؟ وما نفع كل الجهود التي بذلت إذا لم تصبح الأحوال حسنة كما نريد ؟ وهذه الفئة التي اغتنت فجأة وصارت لا تشرب سوى الويسكي..من يضع حداً لها ؟. »

تذكر العامل والريجي والنقابة وقضية الاشتراكية . أيّ زمن طويل سيمضي قبل أن تتحقق كل الأشياء؟ اعمل، إنْسَ الزمن .. كن بحاراً جيداً .. وقال في نفسه : كيف أنسى الزمن ؟ اليوم امتُحنت كبحّار .. السباق الذي خضته في الصباح أكّد أنني بحّار . غير أنني بحّار عجوز .. قد لا أكون عجوزاً ، لكنني سأصبح كذلك قريباً .. ياللزمن ! يا للزمن ! » .

ومن جديد هاجمته الخواطر ، فأدرك أن اللحظة التي هو فيها ليست حاضراً بقدر ماهي ماض ،وأنه من العبث التفكير في العمر ، وتعذيب النفس لأجله ، وأن استقبال الغد بما يليق به من احتفاء هو وحده الذي يَهَبُ القدرة على الاستمتاع به .

دخل الخيمة دون أن يشعل الضوء . في الظلمة يستريح أكثر . يتابع شرب البيرة والسهر وحيداً ، إذا أشعل الضوء

عرفوا أنـــه عاد فأتوا اليه . ستأتي تلك الطفلة وتسأله هـــل اصطاد لها السمك الأحمر؟ ستلحّ عليه أن يأخذها معه إلى قصر أميرة البحر . كيف يشرح لها الأمور؟ هل يقصّ عليها ما جرى معه في المقهى ؟ ولو دخل في عراك وجُرح ، هل كانت تحزن عليه ؟ ولو مات ؟ في هذه الحال كانت ستأسف لا شك ، ليس عليه هو ، بل على سمكها الملون . السيدات سيقلن في سرائرهن إنه خسر في البحر وفي البر . قد يتألمن قليلاً ثم ينسين . الحزن في هذا العصر لايدوم.. ثم لماذا يُحزن عليه ؟ كان مرافقاً فاشلاً ، كما كان بحاراً فاشلاً ، هكذا سيقول ذلك الرجل،وسيرتاح لأنه تخلص منه.

كانت الخيمة مريحة من الداخل، ذات أرضية بلاستيكية رقيقة عارية ، وفي الوسط عمود معدني ، وقد ربطت جوانبها ، من الخارج ، بأوتاد ، واختار موضعها بنفسه قريباً من الماء ، بحيث يمكنه ، لو أراد ، أن يعبث بالرمل الندي ، وأن يرى إلى حركة الموج الرقراق ، في صعوده وهبوطه ، ويسمع إلى أنينه ذي الموسيقى الخاصة ، الرتيبة ، الحبيبة إلى نفسه .

ومن المقهى ، بعد أن استقر في الخيمة ، جاءته أغنية فيروز « ياماريا ، يامسوسحة (١) القبطان والبحرية ،

---

(١) سوسح : جنّ .

يامسوسحة القبطان ». ومع أنه لم يكن قبطاناً ، ولا قيض له أن يكون رئيساً على أيما مركب ، فان الأغنية كانت تعبر حقاً عن ذات البحّار وذات البحر . شرط الجميلة ، كي تثبت أنها جميلة ، أن تسوسح القبطان . الريّس في كل مكان ، وفي أي مجال ، تظل رياسته مدخولة إلا في البحر . هنا الرياسة صافية . هنا الرياسة جدارة . تعني النبالة والوجاهة والشجاعة والكرم . الريّس ، قبل أن يكون ريّساً ، يمر بالعاصفة، يعرف طعم الموت ويعانقه ، يتقن التعامل مع الريح والموج، يصبح خبيراً بقوانين البحر ومقاييسه ، يتعمّد ويصبح إبناً حبيباً للجّة . في قلب العاصفة ، وتحت مطر يجلد خشبية المركب ، والريح تصفع الوجه وتكاد تقتلع الشعر ،والحبال تتقطع ، ويصبح المركب دمية في يد النوء ، في مثل هذا الجو لا تصبح النجاة مسألة صدفة فقط ، ولا ينالها الريّس بالشتيمة أو الصلاة ، ولا بقيادة البحارة قوة أو استعطافاً . كلاهما باطل. السوط والكلمة باطلان . الحياة وحدها ، حياة الريّس تكتسب ، من خلال تصرّفه ، القدرة على أن تهب الإرادة للجميع ، وأن تسيطر ، بغير كلام ، على الجميع ، فاذا العائلة الإنسانية للبحّارة ، العائلة التي هي خليّة أولى وأخيرة في ذاتها ، في مواجهتها للموت وتشبّثها بالحياة ، تقف متضامنة ، متحدّية ، أمام عائلة الطبيعة ، عناصرها الهوجاء المتضامنة ، المتحدّية بدورها . بهذا يتبدّى الانسان خارقاً.

يتهاوى كخرقة بالية ويتلاشى ، أو يزأر كأسد محاصر بنبال مسددة اليه . هو الملك الآن . الريس ملك المركب ، ملك القبيلة البشرية التي على المركب . وهو ملك أسطوري ، من رحم الفروسية وُلد ، والبحر ، من جهته ملك ، وقبيلته عناصر الطبيعة من حوله ، والأفضلية له ، فالماء مملكته ، والأنسان هو فاتح أو غاز . عُدّته خشبة عائمة ، عليها ينهض غارزاً قدميه حتى الإدماء ، فاذا اقتلعته الريح انكسر ، وإذا أخافته اندحر ، وإذا استطاعت ، بأظافرها الوحشية ، أن تفقأ عينيه ، وتنتزع قلبه ، ترنّح المركب وأسلمته اللّجة إلى العدم . برهانه ، في هذه المعركة ، جسارته . ولن تكون ، في ممارسة القوة إلا حماقة ، إذا لم تكن نتاج يقين داخلي بالنصر .. إن اليقين ، في العراك الدامي ، يصبح توأم الشجاعة ومحركها الداخلي . ولأن الريس ، قبل أن يصبح ريّساً ، يمر بكل هذا الهول ، فان رياسته ، كالفولاذ ، تسقى بالتجربة النارية ، قبل أن تُغمس في الماء وتنصهر بالمعاناة فتتكرس هيبة في الوجه .

والبحّار ، حتى لو كان متعلماً مثل سعيد ، لا يعرف أن يحلّل الأشياء ، ويرتّبها على هذا النحو . يُحسها إحساساً ، يعيشها قناعة ، ويثق ، ويحب ويتهيّب ، وحتى يبغض ويكره ريّسه على أساس منها . إنه قادر أن يقتل هذا الريّس ، لكنه غير قادر على الاستخفاف به . الريس الذي يستخف

به بحارته ليس ريّساً . الريّس هو ، على شكل ما ، إلَه في معبد ، ورعيته بحّارته . ولأن الإ له قادر في كل وقت ، وعلى أي شيء ، فان الريّس ، في نظرته الثاقبة ، في نخوته الكبيرة ، في شجاعة قلبه ، في برهانه من خلال العاصفة ، يرتفع إلى مستوى لا يدانيه فيه البشر ، ويصبح افتتانه بامرأة ما ، شهادة على أن هذه المرأة من الجمال ، من الطغيان ، من قوة الشخصية ، من سحر الفتنة ، بحيث استطاعت أن تسوسح الريّس نفسه .

وقال سعيد في ذات نفسه : « نعم ، نعم ، الريّس هو كل ذلك ، وإلا ما كان ريّساً » ومن جديد تتالت الخواطر : الكلمات غير ملفوظة ، لكنها حيّة ، نابضة ، فالبحّار يؤمن تماماً بكل هذا ، يؤمن لأنه ابن التجربة ، ابن المغامرة، ولأن التردد ، في اقدام الريّس عند الخطر ، كلمة محذوفة من القاموس . إن الريّس يستطيع ، أو يجب أن يستطيع ، تحقيق المعجزة ، لكنه يتطلع أبداً إلى المعجزة العظمى ، وهي توحيد كل بحارته في طريق التفاهم ، والكفاح ، والصيرورة عائلة واحدة ، مقدسة ، هو ربها ، وما وسيلته إلى ذلك ؟ المحبة . أن يحب بكبر ، ولا يحمل الحقد ، برغم أنه لا يعرف الضعف حيال القرصنة من أي نوع ، وحيال الدناءة من أي شكل . يفعل ذلك بالتضحية الشاقة ، بنبذ الأكاذيب والزيف ، وقول الحقيقة ، والمجاهرة بالرأي ،

في أشد الظروف حراجة . بالصعود إلى أعلى ، في ممارسة القيادة ، عارفاً أن طريق الجنة تمر عبر النار ، وأن عليه أن يتطهّر بها في كل لحظة ، دون أن يرفض الخطيئة التي هي ناموس البحر ، بل يتذوقها بكل ألوانها ، بكل أحجامها ، ويبلغ الموت ، حين يكون لابد منه ، بكل ارادته ، بكل إصراره على ألاّ يرفض هذا السمّ ، حين تقدّمه له كاهنة البحر بكأس من مرجان القاعات السحيقة ، ولا يرفض تجربة ، مهما تبلغ من الإنحطاط والقذارة ، شرط أن يتعالى عليها ، كمن يقرب الإثم ولا يرتكبه ، كمن يتشرّب الخطر بكل اشتهاءاته ، ثم يطأ الموت ليولد من جديد في كل رحلة عاصفة . إنه ، في هذه الحال ، يخلق فرح الشجاعة وجنونها ، يكون خالقاً بتمام العظمة ، ومستوياً على عرش مملكته الخاصة ، دون أن يسيء استعمال القدرة الخاصة ، ودون إهانة الرجال من حوله ، أو مزاحمتهم على الأشياء التي يتسامى الريّس عنها بالضرورة . إنه ، هنا ، معلم ، دروسه سلوكياته ، والصمت ، في رنينه النحاسي ، في قلب اللحظة المأزومة ، في قلب السكينة المتوترة ، يعطي أمثولته من خلال الحركة ، النأمة ، الالتفاتة ، التصرف المشحون بكبرياء رجولة غايتها أن تصعد إلى مستوى أعلى ، وأن ترفع معها بحارة هم تلاميذ اليوم ومعلمو الغد . إن عليه أن يعرف الجحيم والفردوس معاً ، وأن يصحب من معه في رحلته هذه ، عبر المياه الزرق ،

لشدة ركود البحر ، والمياه السود ، لشدة اضطرابه ، بالغاً نهاية قواه ، في سبيل شرف المهنة ، ونبل قضية الرياسة التي يحملها وساماً وصليباً معاً .

هكذا ، في تجلّيات الشوق إلى نداء اللجة ، على الريّس أن يحافظ على كائنين متلازمين في ذاته ، الكائن الإنساني ، كواحد من البشر الذين حوله ، والكائن الإلهي ، الذي يضعه في مكانة أعلى بالنسبة لمن حوله وأن يحب المتمردين والطائعين ، الناجحين والفاشلين ، لأنهم في المعاناة الرهيبة، الممتدة على مساحة عمرهم كبحارة، يكونون بالغي الحساسية، بالغي الإنسانية ، يدخل كل منهم مطهره بطريقته ، لكنهم جميعاً سواسية أمام الخطيئة والمرأة . إن الريس يحطم البراءة في بحارته ، يحولهم إلى حلفاء أقوياء من خلال العقل والإرادة، اللذين بهما يملكون قوة الاختيار ، وعلى أساسها يتصرفون، وهم مستعدون ، كل لحظة ، أن يرتقوا إلى فوق ، أو يسقطوا إلى تحت ، في ذلك التوق البحري الذي يستعبدهم لأجل تحرّرهم ، لأجل انعتاق أرواحهم من قبضة الخوف.

وتظل المرأة ، في المنفى البحري الاضطراري ، الذي يدوم ويدوم ، أمنية البحّار الذي يعيش على الماء وقلبه مشدود إلى اليابسة . لأجلها هي ، دون سواها ، يتقبّل سياط الحرمان الذي يحفر أخاديد على ظهره،وحين تحتويها ذراعاه، يصبح ثأره في فمه ، في أصابعه ، في كل جارحة من جسده

الذي يتشهّى تلك الهنيهة المجنونة من شبق ورغبة في الإنتقام. لقد عرف البحّار الخطيئة والشرّ ، عرف الخطر ، والتيه في صحراء المياه ، والجوع الجنسي الذي يفترس الروح ، وكان جريئاً ، ومقاوماً ، وهو ، بين ذراعي المرأة ، مزيج من كل هذه المشاعر الساغبة التي تهدف إلى الإرتواء بعد ظمئها الأعظم .

والريّس الذي يعاني وطأة كل هذه المشاعر بصورة مضاعفة ، ناتجة عن تمسكه بالكتمان ، عن العزوف عما يهدر هيبته ، يعرف للمرأة قيمة أكبر ، وتعرف المرأة فيه قيمة أكبر ، ومن أجل ذلك ، حين يلتقيان ، يكونان على المستوى الأعلى ، الرهيب ، لمقاربة الموت في اللذة ، ومقاربة الحرمان ، بذات الاندفاعة ، إلى أن يتوفر لكل منهما الصنو اللائق ، المسوسح ؟

فيروز تغني : « ياماريا ، يامسوسحة القبطان والبحرية» ، وسعيد يسمع ، ويتسوسح ، رافضاً براءته التي لافائدة منها عند الله ولا الشيطان ، مندغماً في عالم الجنّ المسحور لعروس البحر التي لم تظهر له في الليلة الماضية . وهو في خيمته ، يطل عبر بابها على الدنيا بأضلاع واسعة ، منتشياً بخمرتين : إحداهما يتذوّقها عذبة ، مثلوجة ، والأخرى يُحسّها حارقة ، تذيب القلب لشدة حرارتها .

وكما يرن الذهب ، مُصدراً صوتاً موسقاً ، ترن الكلمات

في الفضاء الواسع في الليالي المقمرات . جرّب ، في ضوء القمر ، أن تهمس ، فاذا أنت مسموع إلى أبعد مما قدرت . وعندما ينطلق الغناء من حنجرة فيروز ، تحت قمر بدر سابح في السماء ، تحس أن الصوت يستخرج من أعماقك الآهة التي ما حلمت بها الآهات،ساحبة معها فرحة لاتتصعّد إلا في حالة الوجد القصوى. وإذا كنت لا تشقّ قميصك من طرب ، أو لا تسجد من إكبار ، فلأنك تمتنع على عفوية عَقَلَتها السلوكية الاجتماعية ، فترتد هذه النشوة إلى الداخل، وعندئذ تشعر أن ضلوعك تهتز وقلبك يرقص ، وأن غلالة من سعادة غامزة قد احتوتك كلك . سبّح ، إذن ، بحمد ربك . قل شيئاً ماجداً كالقمر ، ساحراً كالصوت ، أو تساءل ،دون جدوى ، عن السر الذي لا يدرك ، الذي يحير ، الذي يذهل ، لكنه ، في كل حال ، عصيّ التناول بالفهم المجرد للمحسوسات .

كان سعيد في الخيمة . ليس فيها تماماً ، على بابها ، والسماء مضاءة بنور كشاف برز من قرص مستدير بقوة ملايين الكيلواط ، والبحر الساجي يمتد إلى ما لانهاية ، وتتلاعب على صفحته ، بشكل طولاني ، مخروطي أنوار الكازينو المنعكسة بأشعة متراقصة بفعل الموج ، والريح ندية ، فيها كل طراوة الليل وعذوبته ، وخرير الموج إيقاع

متواتر ، والدنيا بهاء جليل ، ومن بعيد ، بشكل مسموع جيداً ، تصدح فيروز ، كأنها تخاطب امرأة تراها خارجة للتو من قلب الماء :

يا ماريا ، يا طالعة من البحر ، ردّي علي
يا طالعة من البحر .

وبرغم حرارة النداء ، رجائه ، توسله الموشح بالحب، فانه يظل بلا تلبية .. فعروس البحر ، الجميلة مثله ، الأحجية مثله ، الفاتنة بالصمت الذي يسربلها ، تطلع من الماء طلوع القمر من الأفق القصي ، على طرف الصحراء الساكنة . والبحارة وحدهم ، في الخيال المشبوب لذاكرة المطلّين من أعلى الصواري على دنيا الماء ، يفهمون بشكل كامل ، مايعني طلوع القمر ، وما يعني طلوع عروس البحر . كلاهما ، من قلب الما ، ينبجس رويداً رويداً ، متمهلاً ، بطيئاً ، مزهواً، وكلاهما يتأطّر بهالة من ألق، ويعتصم بصمت مقبول منه وحده ، ولائق به وحده ، ومترجم عنه وحده .

ويصرخ سعيد بغير صوت « آه ! » ، ذاكراً رقابته على رأس الصارية ، في ساعات الليل الطويلة ، وفي ضوء القمر الغامر ، والدنيا من تحته ماء ، ومن فوقه زرقة مرصّعة بالنجوم ، ومن حواليه سكينة ، ومن الجهات الأربع فضاء لا يُحد ، وهو يحدق في بقعة معينة ، عزيزة ، حبيبة ، منها ستطلع العروس التي سلبت عقله كما سلبت عقول بحارة

كثيرين . إن جميع الأرواح تناضل للخلاص من أسرها . للانعتاق من أسر المادة على هيوليتها ، إلا روح البحار ، فهي تنشد أسرها ، تستعذب عبوديتها ، وتعطي نفسها للافتتان المجنون بعروس وهمية تطلع كماريا ، من البحر .

أحس ، كما أيام زمان ، أن صاعقة جبارة تمسّ بنيانه المادي فتحيله إلى كتلة شوق ملتهبة . لقد استحال إلى شخصية شيطانية مسكونة بالتوق إلى بعيد ، بالرغبة في أن يسير ويسير بغير توقف ، في أن يأتي أمراً خارقاً ، يشرح فيه نفسه وعواطفه . ولكي يبترد فتح زجاجة بيرة وكرع نصفها . إنه ، الآن ، لايبالي شيئاً ، لا يكترث لشيء ، ولا يريد للفناء أن ينتهي ، ولا للصمت ، الذي غدا سيده وعبده ، أن يخترق ، ولو تجرأ على أن يتكلم ، ولو استفز كي يتكلم ، أو دُفع إلى ذلك دفعاً ، لأطلق صوتاً مجلجلاً يهدر بانفعالاته وعذاباته جميعاً ، ويترجع صداه في الجهات الأربع من حوله.

وفيروز تغني :

قالوا بنية ، بعيونها نيسان عم يتفيا

بعيونها نيسان .

ويختلج سعيد كما لو أن سلكاً كهربائياً مسّه . لقد صارت للأغنية أصابع تنقط باللهب ، أصابع صافية من نور ، فيها نقاط اتصال بأحشائه ، وفيها القسوة والرحمة ، كأن البنيّة

التي تتفيأ بعيون نيسان قد استمدت منها عذوبة الساقية وعنفوان البركان ، وصارت ، بكل حرارة جسدها ، تحت ملمس كفه الخشنة ، كف البحار الذي شد القلوع وأدار الدفة سنين طويلة من عمره . إنه لايريد ، ولا يشتهي أيضاً ، أيما امرأة في هذا الوجود . امرأته بنيته ، التي جسدها من نار ، وعيونها من ليل ، وشفتاها من خوخ وكيانها غريب لايماثل، لا يداني ، قد امتنعت عن الظهور له في الليلة الفائتة ،وهو يكاد ، من شوق وأسى ، يجن تماماً، ولا يجد، في أي شيء، راحة أو سلوى . إنها وليمته القديمة ، فرحه السابق ، عشقه المبرح ، الباعث على الانتحار غرقاً عسى أن يصادف في القاع أثراً منها ، وخطيئته القاتلة كبحار ، كونه مكتشفاً دائماً، وعاشقاً أبدياً ، ومن أكثر الناس كرهاً للبحر وموجدة .

إنه ليس بريئاً ، لكنه أقرب الناس إلى الله ، فهو الكافر المؤمن ، المتمرد الخاضع ، وهو القوي الذي تحبه القوة، والمثقل بالذنب والجدير بالغفران أيضاً .

وقال في نفسه : « سأجن لا محالة ..» ورفع نصف الزجاجة الباقي وشربه ، ثم أعطى قلبه للغناء :

جننتيني يا بنت يا سمرا ،جننتيني

لا تنسيني

بحيّكم سهران

انتهت الأغنية .. ظل صداها يتردد . ينسرح في ذاته ووجدانه ، يتردد في سمعه ، غير أن الأغنية الحبيبة انتهت.. بدأت أغنية أخرى لا علاقة لها بالبحر . أسف لذلك كثيراً.. كان قادراً ، في هذه اللحظة ، أن يضع على السطح الخشبيّ للبار ، أو في ثقب آلة الاسطوانات ، كل مامعه ، في سبيل إعادة الأغنية ، لو لا أن ذلك يقتضيه أن يذهب إلى الكازينو ، وأن يطالع وجوه الزبائن من جديد ، ويصطدم ، ربما ، بالساقي أو بالمخنثين الشاربين على البار .

تذكّر أنه كان مرة في أحد مطاعم دمشق . كان ذلك في نهاية الخمسينات ، وكانت أغنية فيروز « زوروني كل سنة مرة » جديدة . لم تكن أشرطة « الكاسيت » قد عرفت بعد ، وكانت آلة الأسطوانات تعمل أتوماتيكياً ، لمجرد أن تضع فيها قطعة نقود من فئة الـ ٢٥ قرشاً ، وتضغط على رقم الأسطوانة . لقد تغدى وشرب ذلك اليوم ، وكان يملك نقوداً قليلة ، لم يبق منها بعد دفع الحساب سوى ربع ليرة عليه أن يركب بها « الباص » إلى حي الميدان ، حيث ينزل لدى بعض الأقرباء . وفجأة عزفت أغنية« زوروني ..». فاستشعر وجداً كحاله الآن ، وما أن انتهت الأغنية حتى نهض ودفع في ثقب آلة الأسطوانات ربع الليرة الوحيد الباقي معه ، وبعد أن استمع إلى فيروز ، رضي أن يعود إلى

حي الميدان ماشياً ، في البرد الشديد لكانون الأول من ذلك العام .

استعاد هذه الحادثة بانتشاء غامر . خيل اليه أن فيروز تلعب بالفردوس ، وأنها قادرة أن تنتشل سامعها من الجحيم، أن تشفيه من الجنون أو تسرع في جنونه ، وأنه ، هو البحّار القديم ، يكتشف جديداً في البحر من خلال أغنيتها ، حتى ليود ، من كل قلبه ، أن يرحل مع أول مركب ، مع أول سفينة ، ترضى بأن تأخذه معها إلى أية جهة في العالم .

ولم يكن قد استنفد زجاجات البيرة ، ولا خرج من دائرة التأثير الغريب لأغنية فيروز ، حين وجد أمامه ، على باب الخيمة ، أحد الرجال الذين جاء معهم إلى الشاطىء. أسقط في يده فلم يستطع الاختباء . لم يفده أنه في العتمة ، فقد رآه الرجل وصاح :

– أنت هنا ونحن نبحث عنك ؟!

– دخلت الخيمة منذ قليل ...

– وأين كنت ..؟ .

– في بار الكازينو ..

– ولماذا تنفرد عنا وتتخفّى ؟ لو أخبرتنا لذهبنا معك.. نحن أيضاً نحب أن نبل فمنا بعد يوم كامل من السباحة .

– لا أحب الجلوس هناك (قالها وأشار إلى الكازينو).

– لو كنت برفقتنا لأحببت ..السهرة في الكازينو ممتعة..

– أفضّل عليها السهر على الشاطىء ..

– ولماذا لم تأت الينا ؟

– لا أدري .. لدي رغبة في المكوث وحيداً ..

– هل هذا بسبب ذلك السباق اللعين ؟

انزعج سعيد . كان قد نجح في أن ينسى السباق ، فلماذا يذكره به ؟وهل تتحدث الجماعة به أيضاً ؟ لا بد أنه تصرف بشكل سيء ، لفت اليه الأنظار . كان عليه ألا يفعل ذلك . باغتته التجربة ولا شك . خرج من الماء متلاشياً فلم يَقْوَ على التمويه . نام على الرمل كقتيل ، ورفض أن يأكل شيئاً ، وأعطى الآخرين انطباعاً مغايراً لما يريد .

استأنف الرجل كلامه فقال :

– أجهدت نفسك بغير مبرر .. ذلك الفتى جرّك إلى السباق جراً .. كان يجب أن ترفض .

قال سعيد بنبرة حسم :

– لننسَ هذا الأمر ..

– هل يسوؤك ذكره ؟

– قلت لننسَ هذا الأمر ..

– ولكنك بحّار .. الروح الرياضية ..

قاطعه سعيد بتوسل :

ـ أرجوك .. دعني من هذا الموضوع .. أنا لستـرياضياً.
ـ السباح رياضي بالضرورة ..
ـ أنا سبّاح ولا أملك الروح الرياضية ..
ـ لا أقصد هذا .. كل ما أريد قوله إنك حمّلت الموضوع أكثر مما يحتمل ..
ـ أخطأت .. اغفر لي .. دعني وشأني .. سنتكلم في هذا غداً ..
ـ أريد أن أقنعك ..
قال سعيد برماً :
ـ تقنعني بماذا ؟ وما دخلك أنت في الموضوع ؟ .
ـ كيف ؟ ألسنا شركاء في الرحلة ؟ .
ـ وهل بدر مني ما أساء إلى رحلتكم ؟.
ـ لماذا تبتعد عنا ؟ .
ـ ها أنذا في الخيمة .. قريب منكم ..
ـ نريدك بيننا .. هيا .. إنهم ينتظرونك ..
ـ أفضل أن أنام .. أنا تعب قليلاً ..
ـ حسناً .. سأقول لهم هذا .

ارتاح سعيد عندما غادره الرجل . وجد أن من المستحيل الكلام معه على ما جرى في الصباح . ومن المستحيل أن يفهم لماذا هو في الخيمة ومقدار حاجته إلى الوحدة . إن

رجلاً مثله يعتبر البحر حوضاً كبيراً للسباحة ، لا يستطيع أن يفهم غير ذلك . ومن العبث أن تتحدّث اليه عن مشاعرك الخاصة ، مشاعر انسان حيال البحر ، وفي ليلة مقمرة كهذه، وفي هذا الجو الرائع الذي أفسده بأسئلته الغبية وإلحاحه الفظ. حسب أن له عليه حقاً لمجرد الرفقة في هذه الرحلة ، وأن من المباح له التدخل في خصوصياته ، وفرض نفسه عليه بشكل تعسّفي يبعث على النفور .

وبعد أن تنهّد عدة مرات ، حمد لنفسه ، للمرة الثانية هذا اليوم ، أنه لم يتصرّف بحمق أيضاً . صمّم على الرحيل. محال أن يستطيع التفاهم مع أمثال هذا الرجل . ليس بينهما لغة مشتركة ، وقد يكون السبب في هذه الجفوة مزاجه هو ، لكنه لا يقوى على الاحتمال ، ولا يريد صحبة أناس لاعلاقة لهم بالبحر ، ويعتبرونه مكاناً لقضاء يوم من التسلية ليس غير.

غير أن سعيد بدّل رأيه بعد قليل . وجد أن تعميم مثل هذا الرأي خطأ ، وأن هناك من يفهمه ، ويقدر مشاعره، ويرى إلى البحر رؤية فيها حب ، وفيها إعجاب بهذا العالم المائي الذي ينطوي على أسراره الخاصة ، وبسبب من ذلك يبدو جليلاً مهيباً ساحراً إلى حد بعيد .

جاء اليه والد الفتاة الصغيرة . كان اختصاصه أبعد ما يكون عن البحر ، لكنه ذو ثقافة ، ويحمل دهشة طفولية محببة أمام كل شيء . وليس لأنه طلعة فقط ، ويصغي جيداً،

بل لأنه قادر على أن يحترم رغبة الآخر في عدم الخوض بهذا أو ذاك من المواضيع .

كان لا يشرب ، لكنه قادر أن يأتي بالمشروب لمن يريد. ولم يكن يفيض بالكلام على إنسانيته ، بينما هو يمارسها بشكل جيد . وكان من قوة الشخصية بحيث يساوي في أخلاقه أرقى ما توصل اليه الناس في العالم من سلوكيات تعلو على الوساوس والترهات .

جلس على الرمل . ولأمر ما لم يتمدد ، بل اتكأ على ذراعه اليمنى وقال :

— انتظرناك طويلاً .. البحر فرحة ، ولكنه معك فرحة أكبر .. يشعر الانسان بالاطمئنان .

— آسف لتغيّبي ..

— لا تأسف لشيء .. أن يتصرف المرء على سجيته فذلك هو الصدق في السلوك .

— شرط ألاّ يسبّب إزعاجاً لغيره ..

— لم تزعجنا في شيء .. تصرّفت كما يجب .

— ولكنكم انتظرتموني ..

— وماذا يهمّ؟ احترمناك أكثر .. حين لا يريد المرء شيئاً ، فمن الأفضل ألا يفعله .. أنا أمقت النفاق الاجتماعي.

— مهما يكن .. الكياسة ضرورية .

— على ألاّ تمسّ الحرية الباقية ، وهي أن يأكل الإنسان

ما يريد ، وبالقدر الذي يريد ، وينام متى يشاء ، ويتكلم متى شاء .

ـ أوافقك تماماً .. كأنك تعبّر عما أريد ..

ـ وأنت تتصرف كما أرغب أنا أن أتصرف .. أمقت أن يكون الانسان رهين المواضعات الاجتماعية .. أشعر بالراحة ، مع البحر يكون كل شيء مريحاً ، يتفرغ المرء قليلاً لينظر إلى داخله ..

ـ هذا ما كنت أفعله في خلوتي ..

ـ ومن أجل ذلك تجنّبت ازعاجك ، برغم إلحاح الذين هناك أن تكون في البحر معنا ..

ـ فشلت أن أكون مدرّباً صالحاً .

ـ لا تأبه لذلك .. يكفي أن نكون تحت إشرافك ..أن نشعر أن معنا منقذاً مثلك ..

ـ أنا لم أنقذ سوى نفسي .. من ورطة سخيفة !

قالها ضاحكاً وهو يأتي على آخر زجاجة بيرة لديه . فقال الرجل وهو يستقيم في جلسته :

ـ والآن حان موعد العشاء .. هيا .. أنت لم تأكل شيئاً هذا اليوم ، إضافة إلى أننا نريد أن نسهر ، ومن الضروري أن تكون بيننا ، وفي وضع طبيعي جداً ، كما أنت الآن ..

أجاب سعيد غير قادر على رفض دعوة الرجل :

– هل من الضروري أن أكون معكم ؟ أنا جائع بغير شك ، لكنني أستطيع تدبير نفسي ببعض « السندويشات».. وغداً نلتقي من الصباح ..

– غداً سنلتقي والليلة سنسهر .. هيا بنا .. إنهم ينتظروننا.

كان هناك « لوكس » يشع فوق طاولة ، وكان القوم متحلقين على الكراسي حوله ، في فسحة بين الخيام ،وقدر تغلي على النار ، حزر أن فيها حساء ، ومعلبات كثيرة مفتوحة، والنساء منهمكات في إعداد المائدة .

الطفلة وحدها نائمة . أية أحلام ترى الآن ؟يا للقصر المسحور الذي يتراءى لها ! لقد وعدها ،أضفى على حكايته الملفقة كثيراً من الأخيلة والألوان ، وهي تحلم بكل ذلك ، وتنتظر الغد لكي ترى القصر ، والملكة ،والحديقة بأشجارها وعصافيرها ، والسمك الملون الذي سيصطاده لها .

وكان سطوع « اللوكس » يضفي على الجو رونقاً ليلياً جميلاً . أن تضيء شمعة ، أن تنير مصباحاً ، أن تشعل النار في العراء ، وسط الليل الساجي ، فانك تخلق من حولك دائرة بهاء خاص ، وتصبح أنت في قلب هذه الدائرة ، شبحاً منظوراً ومرصوداً من عيون كثيرة لا ترى ، تحسها ولا تراها ، وتنبعث في ذاتك مشاعر مغايرة لما ينبعث في مثل هذا الموقف وأنت في نور النهار .. إنها تعطي تضاداً للوحة الليل ، يجعل الضوء أكثر تمايزاً ، والظلام أحفل بالمبهم ،

والفضاء أشد وقعاً في نفسك ، ويتبدى القوم ، إذا كانوا كثراً ، قافلة في متاهة ، أو ركباً توقف ليستريح ، أو جماعة وثنية تقيم أحد طقوسها حول النار .

كانت زوجة الرجل الطيب ، المثقف ، تشرف على إعداد الحساء . جميلة ، رصينة ، ذات إطلالة توحي بالمهابة والاحترام ، بخلاف السيدة التي كلمته في النهار ، وبخلاف النسوة اللواتي يشتركن في الرحلة ، تعطي انطباعاً مريحاً ، وتعمل بنشاط ورشاقة ظاهرين، لا تفارق الابتسامة ثغرها ، دون ممالأة لأحد ، أو استعلاء على أحد . حتى أن سعيد قال في نفسه : « هذا الرجل وزوجه هما الصديقان الوحيدان في هذه الرحلة ، وقد أحسست بتلبية الدعوة إلى العشاء ، ولسوف أكون عند حسن ظنهما تماماً ».

واقترب الرجل من سعيد وهمس في أذنه :

ــ أتريد أن تشرب شيئاً ؟. تصرف بحرّية .

قال سعيد وهو مسرور بهذه الالتفاتة :

ــ لا أرغب في شيء .. شربت في الكازينو ، ثم في الخيمة .. وأنا على مزاج طيب الآن .

وقال في نفسه : « يكفيني هذا الترحيب . تكفيني هذه اللفتة ، كنت سأمتنع عن الشراب حتى لو لم أذقه اليوم ، مراعاة للجميع ، ومقابلة للشعور الطيب .. إنه يفهمني كبحار. لا يريد فرض سلوكه على أحد ، وبشجاعة أجاز لي أن

أشرب ، دون أن يأبه بالآخرين ، وهذا واحد من أدلّة قوة الشخصية التي تروق لي » .

خُيّل اليه ، أنه لو وجدت نار ، وجماعة تقتعد الأرض، وآخرون يسكرون ، لكانت لوحة من لوحات ترحّل القبائل السيبيرية التي رآها في الأفلام يوماً ، أو لكان المشهد أقرب إلى نزول دورية جند على شاطىء بحر ، فهي تطهو عشاءها في المساء ، تاركة للبخار أن يتصاعد كمثله من القدر التي تقف أمامها السيدة الجميلة .

وحين رفع رأسه ونظر في الفضاء من حوله ، رأى القمر يرصد المشهد بعين مفتوحة . لم يكن حيادياً الآن . انفعال ما أخذه ، فهو يسبح في خط مستقيم بين غيوم رقاق ، بيض كالقطن المندوف ، ونوره الفضي يضيء القبة كلها، يضيء السماء والأرض ، وينسج غلالة ليلية بيضاء ،ذات ذرات أثيرية سابحة في الخلاء ، باسمة كأسنان بيض في وجه زنجي غامق السواد .

وكان البحر أمامه يتضوأ بالقمر ،محتفظاً بمسحة رصاصية على وجه الماء ، واعراف الموج الزبدية تتلألأ في تدحرجها إلى الشاطىء ، وحركة الانداياح ، في مدّ وجزر خفيفين على الرمل ، تخلّف هديراً وانياً ، رتيباً ، كأغنية تترية عاطفية.

وتلوح أرواد ، في قلب الخضمّ المائي الرصاصي ، كتلة حجرية متراكمة ومرتفعة عن سطح البحر ، تنيرها

الأضواء ، ويصطفق الموج على جوانب صخرتها ، وهي تسجد ثمة في ابتهال إلى الأب العميق ، الواسع القادر ، أن يساعدها على الاحتفاظ بوضعها هذا ، وأن يبقى رؤوفاً، هادئاً كعهد هابه الآن، كي تبعث من غدها بكل حماماتها، بكل طيورها ، ناشرة تسابيح مجده الأزلي في الأفق ، وعلى امتداد الشاطىء الرملي ذي التضاريس الصخرية ، الذي يبدو مقابلاً لها من جهة اليابسة .

امتلأ سعيد مهابة كعهده في مثل هذه الليالي ومثل هذه المواجهة الصامتة . أحس بامتياز خاصّ ، وبزهو خاصّ، لأنه وحده ، من بين الجميع ، في جلسته هذه أمام الصحراء المائية ، يستشعر قدسية النجوى التي تقوم بينه وبين البحر، كما لو كان على رأس الصارية ، والمركب يشقّ عباب الماء منتفخ الشراع ، أو على دفّة سفينة تمخر فالقة الأمواج بجسارة بالغة .

في مثل هذه الحال ، يتهيّأ له أن البحر يتكلّم ، وهو يودّ أن يترجم هذا الكلام ، أن يقوله للآخرين كما يودّ الحالم ، وهو يتشبث ببقايا الحلم ، أن يقص ما رآه على من حوله . غير أن الأصوات التي تصدر عن البحر ، مؤلفة من حروف ما عرفتها لغة ، تحسّ ، تفهم ، ولا تترجم ، تماماً مثل ابتسامة البحر ، مثل ابتسامة الأرض ، التي هي ألق يفوق كل ما في قدرة الرسامين على الإبداع . وكثيراً

ما أعطى سعيد نفسه لصوت البحر ، في أغانيه الليلية ، في قصائده التي لها الف لون ، في رخامته المتناهية وزئيره الوحشي في ظلمات العواصف الهوجاء . في هذه الحالات يصبح سعيد مستعداً أن يقول للبحر الكلمات وأحرّ الضراعات. أن يصلي له ويبتهل ، أن يضرب صدره صارخاً : « أيها الأب ؛ أيها الأب الرحيم ، تلطّف بنا . اصنع معجزتك لأجلنا ، تعاون مع الأرض لكي تكون لنا غلال كثيرة من السمك والقمح » .

تناولوا العشاء وهم جلوس في أماكنهم . لم تكن هناك مائدة تكفي للجميع ، وليس من أدوات أكل كافية ، ومن رغب في الحساء كان عليه أن ينهض حاملاً صحنه إلى السيدة الجميلة كي تسكب له الكمية التي يريدها ، وبعد تناولها يختار ما يطيب له من معلبات ، وبعدها الفاكهة . وقد حرصت السيدة ، كما لاحظ سعيد ، أن تصبّ في صحنه كمية زائدة من الحساء . كانت تعرف أنه جائع ، ولم يتناول غداءه ، وقد شكر لها ذلك في نفسه ، وأقبل على المرق الساخن بشهيّة مفتوحة ، وكاد يطلب كميّة إضافية لولا أنه وجد إقبالاً من الآخرين ، والقدر محدودة الحجم ، والوجبة كلها سريعة .

كانت الظلال متطاولة على الرمل ، أمينة على متابعتها الدقيقة لكل حركة . وكان « اللوكس » يعكسها في اتجاهات

شتى ، بأشكال من الرسوم مضحكة جداً، تتقاطع ، تتداخل ، تطول ، تقصر ، مظهرة حركة الأيدي ، والرؤوس ، والأفواه ، والشعور . بينما تبدو الخيام ، في العتمة المنداحة وراء خطّ النور ، ككثبان صغيرة متناثرة من حولهم .

وفي هدوء الليل ، كانت جلبة صغيرة تعلو . قرقعات الصحون والملاعق ، رشفات الشفاه ، الكلمات المتبادلة ، الضحكات المنطلقة ، بعض النكات التي تُلقى تعليقاً على حركة أو حديث ، حتى أن سعيد ، وهو قليل الكلام عادة، استُجرّ إلى المشاركة ، وانطلق ، بتشجيع من السيدة ، ثم بتحريض من الآخرين ، يقول بعض الأشياء عن البحر ، مندفعاً في كل لحظة إلى المزيد ، نتيجة ما تصادفه حكاياته من إثارة وإعجاب .

كان في إصبع يده اليسرى خاتم من حجر اليشم ، أخضر ، يانع ، على تموّجات سماوية ، وعليه نقوش أثرية، ورأس حيوان خرافيّ ، وفيه زخارف على أديمه الفضّيّ ، مما يلفت النظر ، ويجعله في الندرة بين الخواتم المعروفة .

هذا الخاتم ذكرى حادثة غريبة ، وقد رفض ، حتى في الأوقات التي كان فيها محتاجاً لثمنه ، أن يبيعه ، وعلى كثرة ما عرضوا عليه شراءه ، وكثرة ما استهدوه إياه ، ظل ممتنعاً على البيع والإهداء ، محتفظاً به إلى يوم لا يدري متى يأتي،

حين يقدّمه ، دون طلب ، دون تلميح ، إلى امرأة ما ، إن لم تكن عروس البحر ، فهي مازالت في رحم المجهول.

وحين سُئل عنه ، فكر قليلاً ، وقال كمن يكره تكرار روايته « إن لهذا الخاتم قصة ، وقعت معي حين كنت بحاراً ، في إحدى رحلاتي البعيدة ». وقد أثار هذا الكلام فضول النساء الموجودات ، فأصررن على سماع القصة ، واضطر إلى روايتها ، وهو يستعيد ذكرى حادثة عجيبة وقعت له ذات يوم .

- ٤ -

قال سعيد :

« خلال عملي في البحر ، على إحدى سفن الشحن ، تعرّفت إلى معظم مرافىء العالم . كانت السفينة من عابرات المحيطات ، تتّسع لحمولة كبيرة جداً ، وتضطر إلى الرسوّ أسبوعاً أو أسبوعين ، ريثما يتّم التفريغ والتحميل .

وكانت الأيام التي نقضيها على البرّ ممتعة ، فالبحار يمكث طويلاً على ظهر السفينة المبحرة ، لايرى غير السماء والماء ، ولا يفعل سوى العمل والأكل ، محروماً من رؤية اليابسة ،محروماً من المرأة والأولاد،غير قادر على السير إلا مسافةقصيرة،محددة،هي طول الباخرة وعرضها،يسهر الليالي والنهارات حول الدفة ، أو يعمل في تنظيف السطح وطلاء بعض الأماكن التي تآكلت بفعل الملح والرطوبة ، ويضطرّ إلى رؤية الوجوه نفسها ، وسماع الأحاديث نفسها ،وتكرار المشاهد والصور،ومعاناة شدائد البحر في الأنواء والعواصف.

البحّار ، في هذه الحال ، يتشهّى اليابسة ، تصير

الأرض عشقه ، تصبح المرأة حلمه ، يتمنى أن يمشي في الأسواق ويمشي ، محملقاً في كل شيء كأنه يراه للمرة الأولى، مندهشاً كأنما الأبنية والحوانيت والسيارات جديدة عليه ؛ وكأنه يكتشف الوجوه الانسانية بنظرة جديدة ، ويشاهد القطط والكلاب والحيوانات بعد دهر من غيبتها عنه .

وحين تطول فرقة البحّار لهذه الأشياء الأليفة ، يشعر كأنه فُصل عن عالم الناس . هُجر من قبل الكائنات جميعاً. نُفي عن اليابسة إلى أعماق المحيطات ، فهو يقضي حكماً بالسجن على ظهر سفينة دون ذنب ارتكبه . وتتفاعل في ذاته مشاعر الضيق والعذاب والتمرد ، ويتطلع من فوق حواجز الباخرة ونوافذ قمراتها إلى ما وراء المدى المائي بحنين لا يوصف ، وتتولاّه نوبات من السوداوية لا يُبدّدها، أو لا ينساها إلا في شيئين : القمار والخمرة . يصبح شرساً، مشاكساً ، عنيداً ، مغامراً ، ويزداد كل ذلك في حالة الخسارة في القمار ، أو حالة السكر ، فيعمد إلى العراك ، وإلى الكفر ، وقذف أفظع الشتائم ، فيأمر القبطان عندئذ بسكب الماء عليه حتى يفيق ، ويجرّه عارياً ، ممزّق الثياب، على السطح أو بين العنابر ، فاذا ألحق أذى بأحد البحّارة حبسه ، وإذا هدّد أو توعّد القبطان أمر بضربه ، حتى تتلاشى قواه ، ويخضع فيهدأ ، أو يقاسي السجن فوق النفي فيعود إلى رشده ، وإلى عمله ، وإلى المقامرة والسكر .

وكثيراً ما يقع البحّار مريضاً ، في هذه الحال يقبع في قمرته ، أو في مستوصف الباخرة ، ويكون عليه أن يلتزم بأوامر الطبيب ، وأن يخضع للمعالجة ، وحتى لحالات من الجراحة الأولية . فاذا اشتد المرض عليه أنزل في أول مرفأ، وأرسل إلى أحد المشافي حتى يبرأ فيلتحق بالباخرة من جديد. في أحد المرافىء التي بلغتها . وإذا مات على ظهر الباخرة ، بحادث ما ، أو موتاً فجائياً ، أو من مرض أو وباء فتّاك، وُضعت جثته في كيس مثقل بالحديد ، وسُجّي على لوح من خشب ، وصلّى عليه كاهن الباخرة أو قبطانها قائلاً : « من التراب خُلقنا وإلى التراب نعود ». وبعد ذلك يقوم البحّارة بالقائه في البحر ، حيث تنفتح هوة في الماء ، ويتطاير الرذاذ ويرغو الزبد ، ثم يعود كل شيء إلى حاله ، ويهوي الجثمان إلى القاع ، ليكون فريسة للأسماك والوحوش البحرية ، بينما تتابع الباخرة سيرها ، ويتفرق البحارة وقد ران عليهم حزن بالغ لمشهد الموت ، ولفراق زميل ، ولإلقائه في البحر على هذه الصورة البائسة ، كأنما هو حجر أو صندوق قمامة ، دون مأتم ، دون أجراس ، دون دموع ، ودون وداع من حبيبة أو أهل .

ثم لايلبث البحّارة أن ينسوا. حياتهم قاسية تضطرهم إلى النسيان، وإلى التماس العزاء في السكر والمقامرة، مستأنفين

حياتهم العادية ، الرتيبة ، التي لا يلوّنها سوى العراك ،وسوى المخاطر ، والأحداث المفاجئة .

من أجل هذا فإنهم يصابون بسعار حين تطول رحلتهم. يكثر السكارى بينهم ، ويكثر المقامرون،وتزداد المشاجرات الدامية ، وينفد صبرهم حتى يصبحوا ، قبل الوصول إلى أحد المرافىء ، بحالة توتر يبلغ درجة الهيجان ، فيذهبوا إلى القبطان لأخذ ودائعهم ، لاستعادة ما خبّأوه لديه، لقبض كل ما تجمّع لهم من أجر ، ويكون النازلون إلى البر سعداء، يتسابقون إلى الخمارات والمباغي ، فالخمرة والمرأة أشهى الأشياء لديهم ، وبعد أن يرتووا من كليهما،ويسدّوا جوع الجسد ، وترتخي أعصابهم المتوترة ، ينطلقون إلى الأسواق، محاولين شراء بعض التذكارات إذا ما تبقّت لديهم نقود، أو الفرجة على الأسواق والناس،في فضول كفضول الأطفال.

غير أن للمرافىء قوانينها وأعرافها . إن أحداً لايستطيع أن يبدل ويغير في قوانين المرافىء حتى ولا الحكام أنفسهم. هنا غابات بغير أشجار ، ووحوش تمشي على رجلين ، وقتلة ومهرّبون وسفلة . مجرمون عتاة ، عصابات رهيبة ، مواخير ملأى بالزهري والسفلس وكل أنواع الأمراض ، تفوح منها روائح المحاليل والمطهرات والأدوية الغريبة . وفي المرافىء أيضاً أزقة ودروب وكهوف وبؤر ، وفيها سكارى وبلطجية وقوادون ، والموت يترصّد البحّار ،

وكذلك المرض ، فاذا نجا منهما لم ينج من السرقة ، ومن الضرب ، والخطف . إنه ، باختصار ، يجد عالمه ، يجد نفسه ، وعليه ، في هذا الطين ، في هذا المستنقع ، في هذا الماء النتن الراكد ، أن يمرق ويسبح ويعوم ، وكل ما يطلبه منه القبطان أن يعود سالماً إلى الباخرة ، وأن يعود في موعده، لأن عليه أن يتسلم عمله كي ينزل الآخرون إلى المرفأ ،وعليه ألا يرتكب حماقة ويُقبض عليه لأجلها ، ألاّ تُضبط معه مخدّرات أو مهرّبات ، وإلا فانه يكون قد خالف الأنظمة، وخرق اللوائح ، والسجن عقابه ، والقبطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً في هذه الحال ، سوى الحكم بالنذالة والجبن على بحّاره .

في مرفأ مدينة « ج» — وهو مرفأ مشهور بالمخدرات والمواخير والجرائم — توقفت باخرتنا لمدة أسبوع . كان ذلك في الشرق الأقصى ، وفي بلد آسيوي نال استقلاله وغيّر نظامه منذ عشرين عاماً أو أقل ، وتبعاً لذلك تغيرت صورته، فلا مخدرات ولا قوادون ولا نساء ولا مهربات ولا قمار : قوانين اشتراكية صارمة ، كان يكرهها قبطاننا ، وكنا نضيق بها نحن ، ونتمنى أن نغادر المرفأ بأسرع ما يمكن بسببها ، لكن الجميع ،بمن فيهم القبطان ، كانوا مضطرين ، إذا أرادوا تجنّب السجن وحجز الباخرة ، إلى مراعاة الأنظمة، فهم مخيّرون بين البقاء على ظهر الباخرة ، أو النزول بشروط

كهذه ، حيث يجدون أمامهم « نادي البحّارة » وحده ، والأسواق المحيطة به ، دون أن يتجاوزوها ، فهم يسكرون ويعربدون داخل النادي ، من غير أن يجدوا خمارة أو مقمرة أو مبغى ، ودون مجون أو رقص أو خلاعة ، وبغير أن تلامس أكفهم جسد امرأة من أي عمر ، أو تلاقي أشياؤهم المهربة من يشتريها أو يقايض عليها .

ماذا يبقى للبحّار إذن ؟ إنه طبعاً لا يذهب إلى الكنيسة حتى ولو وُجدت ، ولا يسرّه أن يزور المعامل حتى لو سُمح له بذلك ، ولا أن يتنزّه على شاطىء البحر ، بعد أن اشتاق طويلاً إلى اليابسة ودنياها التي تعوضه عن محدوديّة عالم الماء. هذا المرفأ لا مرفأ كنا نقول فيما بيننا ، إنه دير ، قلعة ، سجن آخر على البر ، ولا حاجة للبحار إلى كل هذه المرافق التي تبعث على الزهد . لذلك كان كثير من البحّارة يفضلون البقاء في الباخرة ، أو ينزلون لفترات قصيرة ، أو يذهبون لشرب البيرة المثلجة في نادي البحارة ، والطواف قليلاً في الأسواق المجاورة ، وهي ملأى بالأشياء الغريبة ، وكلها تذكارات نادرة من عالم الشرق الأقصى .

ولأنني كنت مغرماً بجمع الأصداف منذ صباي، وباقتناء التذكارات التي نلتقطها من المرافىء ، فقد نَمَتْ في نفسي هواية جمع التحف . وكان مرفأ « ج»، في كل مرة نرسو

فيه ، المكان الأفضل للعثور على بعض من هذه الأشياء ،في الدكاكين المليئة بالخزف ، والخشب المحفور ، واللوحات الطويلة ، المتدليّة على الجدران ، والتماثيل العاجية والخزفية والبرونزية ، وكلها عتيق ، من مئات الأعوام ، يبيعها شيوخ مسنّون ، مبطّنو العيون ، ذوو لحى تصل إلى نصف متر ، قليلة الشعر ، بيضاء ، تهبط من عثانينهم إلى صدورهم ، وتنتهي بذويول رفيعة ، وهم لا يفتأون يمسدونها بأكفهم ، ويسرحونها تسريحاً بالأصابع ، ويدعونها متناثرة الشعور ، تستريح على أوساطهم أو فوق الطاولات التي يجلسون وراءها .

لقد فتنتني هذه الدكاكين . إن لها عمقاً بعيداً ، يجتمع فيه هؤلاء الشيوخ ، فيقيّمون تُحفهم قبل عرضها ،ويلصقون على كل منها سعرها ، ويعرضونها عرضاً مغرياً ، أويصلحونها في الداخل ، وقد يكسرون ، متعمدين ، طرفاً منها ، أو يحدثون فيها خدوشاً ، ويلقون عليها الغبار ، أويعالجونها بما لا أدري حتى تبدو قديمة جداً ، فتستهوي الشارين وتغري جامعي التحف .

كنت أسرع ، ما أن تلقي الباخرة مرساتها في هذا المرفأ ، إلى النزول إذا لم تكن لديّ نوبة حراسة أو عمل ما في الباخرة . وكانت الميناء تقع على مصب أحد الأنهر الكبيرة ، وبعض السفن الصغيرة تدخل هذه « الدلتا » وتقترب

من الأرصفة ، وهناك ترسو بين مئات المراكب والقوارب، فاذا سرت مع المصبّ ، خارج حرم المرفأ ، وجدت عدداً كبيراً جداً من القوارب الصغيرة ، التي يتخذها السكان بيوتاً لهم ، عائمة فوق الماء ، يقضون فيها الشتاء والصيف، ويجمعون ، في قاع القوارب ، كلابهم وقططهم ودوابهم، ويعيشون هم وأطفالهم بينها ، ويمارسون حِرَفهم اليدوية ، وأعراسهم ومآتمهم ، ويحيون حياة كاملة على هذا النحو العجيب . فاذا أراد أحدهم أن يزور الآخر ، فما عليه إلا أن يجدف ، أو يحرك دفة طولانية في ذيل القارب ، فيندفع به إلى حيث يريد ، وهكذا تتم الزيارات ، ويتبادل سكان القوارب ما يحتاجون اليه ، ويشتري أو يبيع أحدهم الآخر، ويؤدّون فروضهم الدينية ، ويعشقون ، ولا يصعدون إلى البر إلا لعمل أو قضاء شأن من الشؤون الضرورية .

لكم تمنيّت النزول إلى أحد هذه القوارب ، أزور عائلة من سكانها ، أو أتفرّج على مصنوعاتهم الحرفية ، أو أراقبهم خلال العمل . لكن ذلك كان ممنوعاً . وكان الحذر من الأجنبي شديداً ، فهو مرفوض ، لا يخالطه أو يكلمه أحد ، إذا لم يكن هناك سبب واضح ، يتعلق بشراء سلعة ما مثلاً . وكانت تعليمات قبطان الباخرة صريحة ومشدّدة بهذا الخصوص ، فالخطر كبير إذا ما تحرّش الأجنبي بامرأة ، حتى ولو في حالة سكر ، أو تشاجر مع

مواطن ، أو أهانه بشكل ما . كانت السلطة ، في ذلك البلد تريد أن يستعيد مواطنوها كرامتهم التي هُدرت أيام الإحتلال الأجنبي ، وقد حدثت مغالاة في ذلك ، فاعتبر كل أجنبي عدواً ، وكل مساس منه بحرمة أو كرامة أحد المواطنين ، ولو بغير قصد ، جرماً يعاقب عليه ، وقد روى لنا قبطان الباخرة ، وكان سويدياً ، أن أحد الديبلوماسيين السويديين في ذلك البلد تحرّش بمواطنة تعمل في السفارة ، فحكم عليه بالسجن ثلاثة عشر عاماً .

من أجل ذلك كان البحارة الأجانب يخافون النزول إلى المرفأ ، فاذا نزلوا لم يتعدّوا « نادي البحارة » ومن تجرأ منهم خرج قليلاً إلى الأسواق المجاورة فطاف بها . ويتواصى البحارة بعدم السكر ، فاذا أكثر أحدهم من الخمرة نصحوه بالعودة إلى الباخرة ، وقد يرغمونه بالقوة ، أو يبقونه في النادي حتى يصحو ، ويبلغون القبطان فلا يسمح له بالنزول مرة أخرى إلى هذا المرفأ .

أنا كنت مغرماً بالتحف كما قلت . كان الطواف على الدكاكين « الانتيكات » يومياً ، شغلي الشاغل ، وكي أتجنب أي سوء تفاهم ، أو إشكال ، وأتفادى التورّط مع السكان ، كنت أمتنع عن الشرب قبل النزول من الباخرة ، ولا أدخل « نادي البحّارة » إلا بعد العودة من الأسواق ، وكان فرحي كبيراً كلما عثرت على تحفة فاشتريتها ، وكنت أخفي تحفي

في صندوق أغراضي في الباخرة فلا أطلع عليها أحداً ، خوفاً أن يسرقوها ، أو يعبثوا بها فيحطموها ، أو يقتفوا أثري في الأسواق فيفسدوا عليّ متعتي ، أو يضايقوني في دكاكين التحف فلا أستطيع تملّي المعروضات بهدوء ، وانتقاء الأشياء الجميلة ، النادرة ، ذات الوزن الخفيف والسعر المناسب .

وقد قصّ علينا قبطان الباخرة ليلة ، أن السفير السويدي في هذا البلد كان مغرماً بشراء التحف أيضاً . كان خبيراً بها ، ويشترك في مجلات إنكليزية وإيطالية متخصصة ، تبحث في « الأنتيكات » ومجموعاتها ، وأسعارها ، وتفرد باباً خاصاً لتحف الشرق الأقصى ، وتنشر صوراً عنها ، وتعطي تقديرات عن المتاحف الموجودة فيها ، وعن القطع الناقصة منها ، وخاصة التماثيل البوذية ، وزجاجات السعوط ، والساعات القديمة ، والأحجار الكريمة وغير ذلك .

وقال القبطان إن السفير السويدي رأى في أحد هذه المخازن قطعة خزفية نادرة ، ولما عاينها وجد أنّ سعرها أكثر مما يحمل من نقود ، فتركها على أن يعود فيشتريها في اليوم التالي . ولما رجع إلى السفارة وفضّ البريد ، وجد صورة القطعة الخزفية في إحدى المجلات الجديدة ، وقرأ أن هذه القطعة تنقص المجموعة الخزفية لا أدري في أي متحف ، فاهتم لذلك اهتماماً كبيراً . وكالمدمن المحروم ،

لم يعرف كيف ينقضي الليل ، وما أن صار الضحى في اليوم التالي حتى ركب سيارته وهرع إلى المخزن ، ودخل فوراً إلى الجناح الذي رأى القطعة فيه ، ولشدة دهشته أصيب بارتعاشة عصبية : كانت القطعة غير موجودة في مكانها ، فاما إنها بيعت ، أو نُقلت إلى مكان آخر ، ولما سأل أحد الشيوخ ذوي اللحى ، من خبراء « الانتيكات » الذين يعملون في المخزن ، قام هذا بفتح أحد الأدراج ، وأخرج بهدوء نسخة من المجلة ، قلب أوراقها ، وأشار إلى صورة القطعة الخزفية وابتسم .. لقد كانوا أسبق منه في اكتشاف نُدرتها، وقيمتها ، والطلب عليها ، لذلك صارت من الممنوعات، وأعيدت إلى متحف الدولة للحفظ فيه .

هذه القصة كان لها أثر كبير في نفسي . لم أقل شيئاً ، لم أخبر القبطان أو البحارة أنني صرت من هواة التحف ، ومن المدمنين على البحث عنها ، وانني أنزل هذا المرفأ لغاية وحيدة هي التجوال في الأسواق ، والوقوف ساعات في مخازن « الأنتيكات » للعثور على تحفة وشرائها . كتمت سرّي، وصرت ، منذ ذلك اليوم ، أعيش حالة الإنفعال التي يعيشها العشاق أو الهواة ، ولا أصدق أننا وصلنا إلى مرفأ « ج» حتى أجمع ما لدي من نقود ، وأسبق الآخرين في النزول، ثم أقوم بتبديل نقودي ، وأذهب فوراً إلى تلك المخازن ، فأمكث ساعات في تأمل التحف ومعاينتها ، ومعرفة قدمها.

وقد ابتعت قاموساً لحفظ بعض الكلمات الضرورية من لغة البلد ، وأصبحت مهووساً بهذه الهواية ، وكثيراً ما انتظرت حتى ينام الآخرون ، أو يكون زميلي في القمرة قائماً بنوبة حراسة ، فأعمد إلى صندوقي أفتحه ، وأستخرج تحفي باحتراز شديد ، وأروح أتأملها مفتوناً ، وأحلم ببيت أجمعها فيه ، أو بفرصة يتاح لي خلالها أن أبيع تحفي بثمن جيد .

صدّقوني أن حبّي للتحف بلغ درجة العشق . كنت أسترجع ، وأنا في نوبة الحراسة ، أو وراء الدفّة صور التحف التي رأيتها في تلك المخازن ، وأشكالها ، وألوانها ، وحجومها ، وأفكر كيف أحصل عليها ، وأين أحفظها ، ومتى أوصلها إلى وطني وبيتي ، وتعلمت طرق توضيب الأشياء الخزفية والزجاجية حتى أحميها من الكسر ،وابتعت لذلك ورقاً مقوّى وقطناً ، وخيوطاً ، وصندوقاً إضافياً ، وفكرت بأن أدفع أجراً في « نادي البحارة » لمن يُترجم لي ما هو مكتوب على التحف ، وأن أكتب إلى إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، أستحضر تلك المجلات المتخصصة . فاذا لم أستطع قراءتها استعنت ببعض البحارة ، أو اكتفيت برؤية الصور التي فيها . المهم أنني صرت في حالة نفسية قابلة للاشتعال كلما تذكرت التحف ، وكلما دار الحديث حولها أمامي ، أو قرأت عنها خبراً في أية صحيفة . وبلغ من شدة هذا الوضع النفسي أنه سيطر علي ، وسيّرني مسلوب الإرادة،

فاقد المقاومة ، أمام أي خاطر يعرض لي ، سعياً وراء امتلاك تحفة ما ، حتى بلغ من شأنه أنه عرّضني للخطر في الحادث الذي أرويه ..

في إحدى المرات التي توقفت فيها الباخرة في مرفأ «ج» ، صادف توقّفها عيد السنة القمرية . كانوا يحتفلون بهذا العيد احتفالاً رسمياً وشعبياً ، فتعطل الدوائر الرسمية ، وتتجمد الحركة في المرفأ ، وتغلق الأسواق والمخازن والحوانيت ، ولا يستأنفون العمل إلا في صبيحة اليوم الرابع للعيد .

هذه المصادفة أزعجتني . طال مكوث الباخرة في المرفأ دون أن أستطيع ، خلال أيام ثلاثة ، أن أمارس هوايتي في زيارة مخازن التحف ، والبحث بينها عن تحفة أضمّها إلى مجموعتي . لم أحتمل البقاء في الباخرة ، ولا قضاء الوقت في النادي ، وصرت قلقاً ، متوفزاً . عجزت الخمرة أن تعيدني إلى حالة الاسترخاء وعجزت عن التلهي كزملائي ، فكنت أطوف في الأسواق المغلقة ، وأعود إلى النادي لأستأنف الشرب ، وأتفرج على المعروضات من الصناعات الحرفية الجديدة ، التي يشتريها البحارة كتذكارات ، فأجدها تافهة ، عديمة الأثر في نفسي ، وأشفق على من يشتريها ، معتبراً إياه ساذجاً .

كنت أدع البحارة في النادي ، يتناولون البيرة المثلّجة ، يلاقون بحارة البواخر الأخرى ، يصخبون على أنغام الموسيقى ،

يشتم كل منهم بلغته ، وأنطلق أطوف متمهلاً في الأسواق المغلقة ، أستعرض الناس في العيد، أقف متفرساً في تجمعاتهم ، أقترب من عربات تحمل بعض الأطعمة ، أتابع الأطفال وهم يجرون أو يلعبون في الشارع ، أراقب حركات المارة، أتلبّث عند تقاطع الطرق ، أشاهد المخازن والحوانيت وهي مغلقة ، أفعل أي شيء يقتل الوقت ، وأرجع إلى النادي فأشرب ، فلا تلبث أن تنازعني نفسي إلى تخفي ، فأهرع إلى الباخرة ، وانكبّ على صندوقي نبشاً فأخرجها وأتملاّها وأعيد توضيبها وترتيبها .

ثالث أيام العيد أفقت باكراً . كان دوري في الحراسة بعد الظهر ، وكانت رغبة مبهمة تنازعني إلى النزول من الباخرة ، والذهاب إلى النادي ، ثم التسكّع في الأسواق إلى أن يحين الظهر .. صعدت إلى ظهر الباخرة ، وسرّني أنّ منظراً عريضاً للبحر والمرفأ والأبنية وكل المنطقة المجاورة انفتح أمامي ، فتلهيّت برؤية السفن والمراكب والقوارب ، وبحركة الزوارق بينها ، وقضيت وقتي نافد الصبر بانتظار أن يحين موعد الإفطار فأتناوله ، وأهبط سلم الباخرة إلى المرفأ .

لقد حرصت ، اليوم أيضاً ، أن أكون وحيداً . لاأريد لأحد أن يطّلع على ما أعمل ، أو يعرف أين أذهب ... وأية مخازن أدخل . كنت أريد الأشياء لي وحدي . مجرد

التفكير بأن البحارة سيكتشفون مخازن « الأنتيكات » كان يُرعبني . ما كنت أطيق المنافسة في هذا المجال ، وأضحت التحف كالنساء ، فأنا أريدها حكراً علي ، لا ينازعني فيها منازع ، وأغار عليها من المسّ واللمس والاستلاب ، وأجهد كي يبقى مصدرها مجهولاً ، وأن يظل هذا الكنز المرصود الذي فُتح على وجهي ، بعيداً عن مظانّ الآخرين ، حتى في حالة الاغلاق ، وفي أيام العيد هذه ، وبرغم العطلة التي شملت الأسواق جميعاً ، مما جعلني على يقين أنها لن تفتح إلا بعد انقضائها .

في النادي طلبت كأساً من الكونياك . كان الوقت باكراً بعد لشرب البيرة . ولم يكن ثمة بحّارة غيري ، وكان الساقي يعرف الإنكليزية ، فتبادلت معه بعض الكلمات ، ونهضت فتجولت في البهو ، حيث تقوم اكشاك صغيرة لبيع التذكارات من المصنوعات اليدوية ، وفي حوالي الساعة العاشرة غادرت النادي ، أمشي ببطء ، مبتدئاً جولتي اليومية ، دون أمل في لقاء شيء ، أو في وقوع مصادفة غريبة ، أو العثور على أي حانوت مفتوح .

كان الطقس ربيعياً ، ولذعة برد تسري في الأوصال ، تهيأت لها بكأس الكونياك . وكانت الطرقات مزدحمة ، وهناك تجمّعات للناس ، وزينات في بعض النقاط ، والأسواق مغلقة ، وليس الا عربات أو بسطات تبيع الأطعمة ،

وسيارات قليلة تمر ، وكذلك عربات صغيرة يجرها من أمام راكبو دراجات ، قيل إنها كانت تجر ، فيما مضى ، من قبل الرجال ، ثم أبطل ذلك احتراماً للانسان ، ولم يبطل استعمال العربات بسبب أزمة النقل ، ولأن العربات بذاتها تشكل علامة فارقة من علامات بلدان الشرق الأقصى .

فجأة ، فيما أنا أسير ، رأيت طرف الباب الخشبي لأحد المخازن مشقوقاً . كنت أعرف هذا المخزن ، وقد دخلته كثيراً ، وابتعت منه مسابح بوذيّة ، حبّاتها تبلغ المئة ، من خشب عنابي جميل ، تزداد مع الاستعمال لمعاناً، وتصلح أن تصير عقوداً للنساء ، ومسابح بثلاث وثلاثين حبة للرجال ، كما تصلح للزينة في الغرف ، وكنت أنوي أن أشتري عقداً آخر ، أضمّه إلى مجموعتي .

اقتربت من الباب المشقوق مدفوعاً بلهفة داخلية .فعلت ذلك خلال لحظات ، توقّف فيها تفكيري ، وانشلّت إرادتي ، واعترتني رجفة صيّرتني أسيراً لتلك الرغبة النفسية في أن أدخل المخزن ، وأرى تحفه ، ولا أعود خائباً كما عدت بالأمس وقبله .

لم أفتح الباب . تصرّفت بآلية كاملة ، وتركت ليدي التي تدرك ، بحكم الواقع ، أن المخزن مغلق ولا يجوز فتحه ، أن تشقّ الضلفة قليلاً ، بحيث دسست جسمي في الفتحة ودخلت ، ثم أغلقت الباب ورائي ، إغلاقاً كاملاً .

كانت الواجهة الخشبية للباب عريضة ، وإنما دخلت من ضلفة وسطى فيها ، وكان المخزن عريضاً ، واسعاً ، عميقاً جداً ، وعلى جوانبه رفوف حتى السقف ، ملأى بالتحف ، وفي وسطه طاولات خشبية مزدحمة بالمعروضات أيضاً ، وعلى الأرض ، عند أقدام الجدران ، تحف كثيرة، وهناك حاجز من لفائف اللوحات ، يفصل الفسحة الأمامية للمخزن ، وقد تركت مساحة صغيرة تؤدي إلى الداخل ، إلى أعماق المخزن ، المليء بالخزف ، في أحجام وأنواع مختلفة ، وبالخشب المحفور ، القديم ، وبالتماثيل ،للبشر والحيوانات ، وبالبرافانات ، والفازات الكبيرة ، المزدانة بالرسوم والنقوش ، والقدور البرونزية ، التي كان يُسخّن فيها النبيذ ، وبأصناف من الأشياء العجيبة الغريبة التي لا يمل الانسان من النظر اليها ، والتمعن في الأشكال الزخرفية التي تتخذها ، والحركات الفنية التي تمثلها ، والأوضاع التي رُسمت بها الشخوص والأساطير المنقوشة عليها .

لم أجد أحداً في المخزن . صرت في الداخل ، وقد أغلقت الباب تماماً ورائي ، دون أن ألقى إنساناً ، حتى خُيّل إلي أنني ولجت كهفاً مرصوداً ، أو مغارة مسحورة، وأنني في الحلم ، وبين يدي ، وفي متناولها ، أشياء كثيرة تكفي حمولة باخرة صغيرة ، وليس علي إلا أن أجمع منها ما أريد ، فأفوز بغنيمة العمر .

رقفت مشدوهاً . كانت المفاجأة التي صنعتها لنفسي ، أو صنعتها الأقدار لي ، فوق قدرتي على الاستيعاب ، وكان المخزن ، ذو الأرضية الاسمنتية ، بارداً من الداخل ، وقد استشعرت برودته مضاعفة ، بسبب من الخوف الذي اعتراني ، والوحدة ، والدهشة ، وكل هذا الجو الغريب الذي لا أعرف كيف أتصرف فيه ، وماذا أعمل لأتحمل رهبته ، وما هو السبيل الأفضل للخروج منه سالماً ، بغير تحف وبغير شيء ، ناجياً بروحي من هذه الورطة الرهيبة .

الخوف يفجّر الهواجس . الوساوس تتضخم . يتوالد بعضها من بعض ، وفي تلك اللحظات الحرجة ، انفتحت شهية ذاكرتي ، فاستعدت كل ماسمعته عن قوانين هذا البلد ، ورنّت كلمات القبطان في أذني ، وأدركت أنني ارتكبت حماقة في الدخول إلى مخزن مغلق ، لا يحق لأبناء البلد أن يلجوه عنوة ، كما فعلت أنا ، فكيف بأجنبي ، إذا ضبط أتهم بالسرقة أو بما هو أخطر ، وألقي به في سجون مرعبة ، بين أناس لا يعرف لغتهم ، وليس له بينهم شفيع .

ماذا أفعل يارب ؟ تلفّتّ حوالي مذعوراً ، أحدق في التماثيل الضخمة المحيطة بي ، فتهيّأ لي أنها تكشر في وجهي ، وأنها موشكة أن تطلق زئيراً أو صراخاً يجمع عليّ المارة في السوق ، وأن بعضها يضحك ساخراً ، وأن عيون التماثيل البوذيّة تدور بسرعة خاطفة ، وأيديها تتحرك للقبض عليّ ،

وأن أجراساً سرية لن تلبث أن تُقرع ، منبّهة إلى وجود لص في المخزن .

تراجعت إلى وراء . استدرت للخروج . داهمني شعور بأن الناس ينتظرونني في الخارج ، فما أن أفتح الباب وأظهر فيه ، حتى يهجموا علي ، ويمسكوا بي وسط ضجة من أصواتهم التي تخرج من الأنوف ، وسيجرونني في الشوارع وهم يقودونني إلى أقرب مخفر .

بلبلني الخوف . شلّ قدرتي على التفكير . تسمّرت في مكاني . صرت غير قادر على الحركة . وفجأة طقطق خشب الباب ، فظننت أنهم أتوا للقبض علي ، وبغريزة المقاومة اندفعت إلى أمام . محاولاً الاختباء وراء التماثيل ، أو بلوغ ما وراء حاجز اللوحات ، باحثاً عن عصا أو خشبة أو أيما شيء أدافع به عن نفسي . وحين صرت قرب الفراغ الموصل بين المكان الذي دخلته ، وما وراء الحاجز من المخزن ، في ذلك الامتداد المجهول ، العميق ، الشبيه بالقبو ، وسط ركام من « الأنتيكات » ، باغتني مشهد هزّني هزاً . كانت ثمة طاولة ، وعلى الجدار مرآة ، أمامها امرأة تسرّح شعرها ، وقد فردته وأرخته طويلاً على ظهرها ، فهو أشبه بستارة تخفي رأسها وكتفيها وجذعها حتى وسطها ، يتهدّل ، ويتماوج ، ويستسلم مسترخياً تحت المشط كخيوط حريرية ناعمة سوداء . ومن ذراعها العارية ، وقفا كفها القابضة على

المشط ، عرفت أنها صبيّة ، وأن وجودي معها ، على هذه الصورة المريبة ، كاف وحده لإدانتي ، فاذا صرخت ، أو ندّت عنها أية حركة استغاثة أو قاومت على أي نحو ، أطبق عليّ الفخ الذي وقعت فيه، ولم يبق أمامي سوى الهرب، أو العراك ، وربما كان قتلها هو الخيار الوحيد الباقي ، ثم أختبىء الى الليل ، فأنسل من المخزن بطريقة من الطرق .

يقولون إن دماغ الانسان يعمل بأقصى سرعته وقت الخطر . انني أصدق هذا الكلام تماماً ، فقد عشته بنفسي . دماغي ، بعد حالة الشلل التي اعترته من الخوف ، نشط فجأة . راح يستجيب لرغبتي في التفكير عسى أن أهتدي إلى مخرج . ومع أن قلبي كان يدق بعنف ، إلا أن الشلل زايلني ، فتوفزت لعمل ما ، وطفقت عيناي تبحثان عن وسيلة ما ، حتى وقعتا على سكين ملقى على طاولة في القسم الداخلي من المخزن .

بهدوء ، هدوء شديد ، وسط سكون بالغ ، سمعت معه دقات قلبي ، خطوت محاذراً الاصطدام بما أمامي أو حولي ، ولما صارت السكين في يدي غمرتني فرحة وحشية. الآن أستطيع تهديد الفتاة ومنعها من الصراخ ، وإذا أتت بأية حركة لفضحي قتلتها . صار القتل مخرج خلاص بحكم الضرورة . إنني أكره القتل ، أكره إراقة الدم ، لكن الدفاع عن النفس ، أو إنقاذها من ورطة كهذه ، يسوّغ تصرفي .

صرت محكوماً بذلك ، مسكوناً برغبة مستميتة في الخلاص، ولم يعد التراجع وارداً في حسابي .

ومن موقفي قرب الحاجز الفاصل بين قسمي المخزن، رحت أتابع حركة يد الفتاة وهي تمشط الشعر ، وتفرقه ، وتسوّيه ، كاشفة عن ساعد جميل ، بضّ ، لا أثر للشعر أو أية شائبة عليه . وقد استطعت ، وأنا أتفرّس في ظهر الفتاة ، أن أقدر أنها جميلة . كانت ذات جسم متّسق ، فارع ، وخصر ضامر ، يعطي بنيانها انسجاماً في الطول ، ويرسم تجويفة في الوسط ، تبرز استقامة الظهر وامتلاءه ، واستدارة الردفين اللذين يتوّجان ساقين عامرتين بالفتنة . وهذا ما أغراني ، رغم الخوف ، أن أمكث في مكاني ، أراقب حركاتها ، متمتّعاً بمشهد ساحر ، أنا المحروم من المرأة طيلة الرحلة البحرية ، والذي تساءل عن الجنس في هذا المرفأ ، وتشهّاه وتمنى مغامرة ما ، مع أية امرأة ، ولو للحظات عابرة .

وزاد في إغرائي أنها كانت عارية الذراعين من عند الإبطين . إنني أروي ما جرى معي ، وأعتذر إذا تكلّمت بصراحة ، فالذراعان العاريتان، في مثل ذلك الوضع ،وتلك الحالة النفسية المهتاجة ، أثارتاني . المرء يرى ، على البحر ، كثيراً من النساء ، كثيراً من الأجسام ، فلا ينفعل إلا قليلاً ، وقد لا ينفعل أبداً إذا كان يسبح ، لذلك قيل إن أجمل امرأة

على الشاطىء هي التي ترتدي ثيابها . أما في ذلك المخزن ، في تلك العتمة الداخلية ، والوحدة تلفّنا ، وأنا مقدم على مغامرة مجنونة ، فقد بدت الذراعان البيضاوان مثيرتين إلى أبعد حد ، وأشبه بذراعي تمثال من رخام أو عاج ، حتى خيّل إلي أن هذه المرأة الغريبة ، في هذا المخزن المليء بالسحر ، قد تكون جنيّة ، أو أنها عروس البحر التي فتنتني ليلة على الساحل ، تبدّت لي في وهم الخيال كرة أخرى ، أو أنها امرأة خرجت من أحد التماثيل ، ولن تلبث أن تختفي إذا ما رأتني .

يا رب ما كان أحفل تلك اللحظات بالخوف ، والتوتر ، والاثارة ! وما كان أشقاني ، وأسعدني ، وأكثر الإنفعالات المتضاربة في نفسي ! وما أشد الخطر ، وأروعه، حين يكون المرء على حافته ، على تخم الحياة أو الموت ، بين الرجاء واليأس ، يرتعد من رأسه إلى قدميه بانتظار الهنيهة الحاسمة، الهنيهة التي يتقرر فيها مصيره ، فإما صعود إلى أعلى ، أو هبوط إلى أسفل ، إما أن يفارق الوجود أو يعانقه ، إما أن يفوز باللذة والمغنم ، أو يبوء بالفشل ، ويجلله العار ، ويمضغ المرارة ندماً أو حقداً على تصرفه الشائن !

أطالت تمشيط شعرها . كانت تنظر اليه باعجاب في المرآة ، تتعشّقه وتشعر ، ربما ، بلذة في تمسيده بكفّيها ، من ههنا وههناك . وخشيت أن تكون نرجسية ، وأن تفعل

بأعضاء جسمها ما تفعله بشعرها . كنت أريد أن تلتفت إليّ وتراني ، لأقطع شكاً بيقين ، وأعرف إلامَ سيصير أمري. وكان إنصرافها ، وهي وحيدة ، إلى ما تنصرف اليه المرأة في بيتها ، وأمام مرآتها مـــن تملّي مفاتنها ، قد يجلب كارثة على رأسي ، إذ أفقد قدرتي على الاحتمال ، فأتصرف بجنون مدفوعاً بشهوة طائشة .

غير أن المرأة لم تفعل . حمدت الله أنها لم تفعل . وضعت المشط على الطاولة واستدارت فرأتني . حدث ذلك فجأة كومض البرق . التقت عينانا ، وصعقنا كلانا ، ولم يخرج صوت من الفمين . عقدت المفاجأة لسانها ، وقبل أن تستعيد روعها ، وتقوم بأية حركة ، أو يصدر عنها أي صوت ، كنت أتقدم نحوها شاهراً السكين . كان الرعب قد استولى عليها تماماً . كانت هيئتي مرعبة ولا شك . مخيفٌ الانسان في حالتيْ الجريمة والجنون ، وكنت أنا في الحالتين . كنت مجنوناً وعلى وشك أن أصبح مجرماً . وفي جو المخزن الموحش، البارد ، وبين عيون التماثيل الجاحظة ، والأفواه المكشرة، والأشكال الخرافية لوجوه البشر والحيوان ، كانت الجريمة لا تعدو أن تكون جزءاً من الديكور ، وكان القدر المتربص واجداً فرصته الذهبية في دفع مصيري إلى حافة التردّي .

تحرّكت بغتة . أرادت الهرب حتماً . انقضضت عليها، وضعت يدي على فمها لأكتم صوتها ، واحتويتها بين ذراعي.

قاومت . مقاومتها أثارتني . كانت جميلة ، شاحبة ، ذات عينين سوداوين ، مشقوقتين إلى أعلى ، وقد اتسعتا ، واستطالتا بفعل الكحل والرعب . وبخلاف نساء ذلك البلد، كان لها صدر صغير ، وعنق أبيض ، وأسنان كاللؤلؤ ، منظومة داخل شفتيها السمراوين . وكانت حارّة ، رخصة الملمس بين يدي ، ولم أعد ، في ذلك الوقت العاصف ، أفرّق بين خلاصي ونزوتي . ضعت تماماً . صار الموت معها ، إلى جانبها ، فوق صدرها ، شهياً جداً . بل إنني لم أعد أفكر بالموت ، ولا السجن ، ولا العار ، ولا تحذيرات القبطان . تملكتني حالة من فقدان الشعور بالزمان والمكان ، وعلى لساني تشهّت رغبة قاتلة إلى الرضاب أو الدم . وسمعت ، وهي مضغوطة بين ذراعي ، تمتمة بحّاء ، وأحسست بأنياب حادة في كتفي ، تغرز وتغرز إلى العظم ، رافقها ألمٌ شديد ، موجع ، لا يطاق ، فعضضت على شفتي كيلا أصرخ ، وضغطت على كتفيها بكل قوتي ، فاذا بها تنطوي نصفين ، وتركع ، وترتخي أنيابها عن كتفي ، وتكاد تهوي إلى الأرض ، ثم لا تلبث أن تفيق ، وتقاوم ، بشراسة ، بضراوة لبوة ، ومن جديد تتلاشى وتتمدد على الأرض ، وتروح في شهيق وأنين خافت .

لا أدري كم مضى من الوقت . أحسب أنه كان وقتاً

قصيراً ، وأن المكان دار بنا ، ودار حولنا ، وأن التماثيل البوذية شهقت من استثارة ومقت ، وأن الموجودات والصور تحركت في أماكنها ، وذهبت الأشياء وعادت من أثر زلزال صغير ، وأننا تلاشينا معاً . وحين عدنا من تلك الغيبوبة الرائعة ، كنا أقرب إلى بعضنا . وقد زال الحقد من العيون ، وتملصت مني وقفزت إلى الداخل ، ثم استدارت إلي متوفّزة كنمر جريح ، وأنا راكع أمامها ، مطبق اليدين على عادة السكان في تلك البلاد ، أطلب صفحها ومغفرتها.

كان بامكانها أن تصرخ ولم تفعل . وكانت السكين ملقاة على الأرض فلم تلتقطها . اكتفت بأن دفعتها بقدمها إلى الداخل ، وأمام هذه البوادر عاودني الاطمئنان ، استشعرت راحة بعد عذاب ، وشعّت من عينيّ نظرات الضراعة ، ففهمت هي كامرأة أن كل شيء قد انتهى ، ولا فائدة من إحداث فضيحة ، فأشارت إلى الخارج وقالت كلمات لم أفهمها .

نهضت عن الأرض . نفضت ثيابي . رأيتها تتناول سترة فتلبسها ، والتقت عيوننا في نظرة مصالحة . ومرة أخرى ، وأنا واقف ، ضممت كفي أمام صدري ، علامة الشكر والسلام ، وأشرت إلى ما حولنا من تحف ، وأخرجت نقوداً من جيبي .

— لا يوجد ، لا يوجد ، قالت بلغتها .

– يوجد ، يوجد ، قلت وأنا أشير إلى كل تلك التحف .

لطمت على خديها ، بكفيها الحلوتين . فأبصرت خاتم الزواج في يدها . كانت تريد أن تعبّر عن خوفها لوجودي في المخزن وهو مغلق ، وتحذرني من مغبة البقاء ، لكنني كنت أريد شراء بعض الأشياء ، لتكون شاهداً على أنني دخلت المخزن لأبتاعها ، وكان وثوق قد تولاّني أنها تحرص علي ولن تأتي بأي عمل يضرّني ، وأنها خشبة إنقاذي من بحر الخطر الذي يموج من حولي .

عدت أشير إلى التحف من حولي ، وأخرج النقود من جيبي ، فتهيأ لي أنها ابتسمت لغبائي أو جسارتي . قالت شيئاً بلغتها لم أفهمه . أشرت بيدي حول عنقي ، ففهمت أنني أريد طوقاً . وفكرت قليلاً ، ثم أومأت إلي أن أنتظر .

التقطت السكين من الأرض ، وتناولت سلماً من ورائها ، حملته وأسندته إلى جدار ، وصعدت بحركة رشيقة ، إلى آخر درجات السلم ، وشرعت تحز خشب الحائط بالسكين ، فيما يشبه المربع ، حتى بانت الطاقة ، ففتحتها واندسّت فيها ، ثم غابت عن ناظري وأنا أتابعها مدهوشاً .

ذهبت فتفقدت الباب . وجدته مغلقاً تماماً . قلت في نفسي إن أحداً لن يشك في أنه غير مقفل إذا لم يجرب فتحه . مشطت شعري ، مسدته . فركت وجهي ، تحرّيت ثيابي

لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام ، وأن هيئتي لا تبعث على الريبة . هدأت قليلاً . نظرت في ساعتي فألفيتها الثانية عشرة. بعد ساعتين يحين موعد نوبتي على الباخرة . صرت على شيء من أمل في النجاة ، وفي العودة إلى الباخرة ، وقررت أن آتي كل يوم إلى هذا المخزن ، وأن أمكث فيه كل وقت الفراغ ، لأجل التحف ، ولأجل هذه المرأة التي لا أعرف اسمها بعد .

ومع كل هذه الثقة المستعادة ، كان شيء ما داخلي يؤرقني . لم أفكر بما حدث . تركت كل ذلك إلى الباخرة ، قلت إنني سأسترجعه لحظة لحظة ، وتفصيلاً تفصيلاً ، حين أكون وراء الدفة ، أو مستلقياً على فراشي المعلق في القمرة . وسيكون ذلك ممتعاً ، لأن الخطر الذي يتهدّدني قد انتفى ، وأنني ، إذا ما نجوت ، أكون قد فزت بامرأة وتحف ، أكون قد فزت بما لا يحلم أن يفوز به أحد من زملائي البحارة . إنني على يقين تام ، أن أحداً منهم لم يستطع أن يعثر على خمارة خارج النادي ، ولا على امرأة في هذا المرفأ إلا في الخيال ، وسيكون موضع دهشتهم أن أروي لهم كل ما جرى معي اليوم . غير أنني لن أفعل . سأكتم السر. عندي الآن سببان لكتم السر : التحف والمرأة .

كنت أحاذر إثارة أية نأمة . ولأن وقع الخطى قد يسمع من الخارج ، فقد تجمدت في مكاني ، وعيناي معلقتان

بالكوة المغلقة التي انسلت منها المرأة إلى الداخل . كان السلم على الجدار ما يزال ، وخطر لي أن أتسلقه وألقي نظرة إلى الداخل ، حيث غابت المرأة وتركتني . لا بد أن تكون هناك غرفة ، وفي هذه الغرفة أشياء مخبأة ، بدليل أن الجدار مدهون بالكلس ، ولا تستطيع النظرة ، مهما دقّقت ، أن تكتشف معالم الكوة قبل تحزيز الجدار ، كما فعلت المرأة.. لكن علام وجود غرفة سرية وراء هذا الجدار الخشبي ؟ ولماذا يخبئون الأشياء هناك ما دام المحل هو ملك الدولة ، ككل المحلات في هذا البلد ؟ وهل يؤدي هذا المدخل السري إلى الخارج ؟ وهل ذهبت المرأة ، عبر الكوة ، إلى بناية أخرى ، أو إلى مخزن آخر ؟ أتكون غادرة ؟ هل ذهبت لتتصل بأحد ؟ لو أرادت ذلك لاتصلت من هنا ، بواسطة الهاتف . أم قدرت أنني سأمنعها ؟ أو فكرت أنني قطعت سلك الهاتف عند الدخول ؟

انهمرت علي الأسئلة كالمطر . وكلما طال انتظاري تكاثرت الأسئلة وتنوعت . كنت لا أفهم لماذا هذا المخبأ السري ، ولماذا هناك بضاعة مخبوءة ؟ أتعود لصاحب المخزن ؟ ولكن من هو صاحب المخزن ؟

وكيف يستطيع الوصول إلى كنزه هذا إذا لم يكن يعمل هنا ؟ ومن هي هذه المرأة؟ زوجته؟ شقيقته ؟ ابنته ؟المخازن مؤممة في هذا البلد . هذا ما عرفته في زياراتي ، وما أكده

القبطان ، وكل الذين يعملون في المخازن هم موظفون ، فهل الموظف هنا هو الصاحب السابق للمخزن ؟.

وجدت الفكرة معقولة . كان يملك هذا المخزن للانتيكات قبل التأميم . وقد استطاع . قبل الوصول اليه ، أن يقيم غرفة سرية وراء الجدار ، ويخفي فيها كنوزه ، على أمل أن يأتي يوم ويسقط النظام القائم ، وتعود الملكية الشخصية ،وعندئذ يعود صاحباً للمخزن ، ويخرج كنوزه من مخابئها .

تساءلت : عشرون عاماً وهو يحتفظ بهذا السر ؟ يبدو أنه خاف أن يموت وتضيع الثروة ، فأطلع زوجته أو ابنته على سره . ياللنفس الطويل ! يا للأمل الذي لا ينقطع ! إنهم يحلمون بالعودة إلى الماضي ، ترى كيف يخططون للعودة ؟ بأية وسائل ؟ وهل وحده فعل هذا أم هناك أمثاله كثيرون ؟ لا بد أن يكون هناك ملاّكون كثيرون غيّروا جلودهم ولم يغيّروا قلوبهم . إنني أكتشف سراً خطيراً إذن، فما عليّ أن أفعل ؟

قلت في نفسي : « لن أفعل شيئاً » صمّمت على ألا أفعل شيئاً . ماذا يهمّني من هذا كله ؟ إنني لست معنياً بأمر هذه السلطة ، ولا بأمر هؤلاء الملاكين . ما أريده هو النجاة. ما أن تعود المرأة حتى أبتاع منها بعض الأشياء ، ثم أتدبّر طريقة للخروج من المخزن بمساعدتها . أنا واثق الآن أنها لن

تشي بي . إذا كانت الأمور كما قدرت فانها هي التي ينبغي أن تخاف مني . تخاف أن أتكلم . ولكنني أجهل لغة البلد، ثم من مصلحتي ألا أورّط نفسي . إنها مطمئنـّة هي الأخرى. تستطيع ، عند بـَوْحي بالسر ، أن تقول إنني اقتحمت المخزن ، وهدّدتها بالسكين ، وضاجعتها بالقوة . ان حكماً بالإعدام ينتظرني في هذه الحال . فاذا كان السفير السويدي سجن ثلاثة عشر عاماً لأنه تحرّش بامرأة ، فكيف أنا وقد فعلت كل هذا ؟ رباه ! لتعد فقط ولا أريد شيئاً ، لاأريد تـُحفاً ولا كنوزاً ، الكنز الأعظم هو سلامتي ، خلاصي من هذه الورطة . انتهاء هذا الانتظار المعذب الذي طال وطال، على غير ما كنت أرجوه .

أخيراً سمعت حركة في المخزن . كانت الحركة صادرة عن الأعماق ، فيما يلي المكان الذي رأيت فيه المرأة تمشط شعرها . ارتعدت للوهلة الأولى . خفت أن يكون هناك إنسان ما ، وتمالكت جأشي فزعمت لنفسي أنها قطة أو جرذ يمر بين الأخشاب والخزفيات والأواني المركومة . غدا قلقي متورماً الآن . طفح الكيل ولم أعد أصبر على عودة المرأة . فكرت أن أجازف بفتح الباب والهرب ، لكنني استنبتّ أملاً جديداً في عودتها قريباً . لقد انتظرت كل هذا الوقت ، ومن المحال أن تـَدَعني هكذا ، فإما أن تعود ، أو يكون المخزن محاصراً إذا وشت بي ، وفي الحالين أحسن

صنعاً إذا أنا انتظرت قليلاً أيضاً ، قليلاً جداً ، بحيث أتخذ قراري بعد خمس دقائق .

ومرت الدقائق الخمس ، وبعدها دقائق عشر .وفي النهاية فتحت الكوة وأطلت المرأة حاملة صندوقاً ، ومن داخل المخزن جاء رجل عجوز ، بلحية طويلة وشعر أبيض ، يرمش بعينيه ويحدق في كأنه قصير النظر .

أدركت الآن أن العجوز هو مصدر الحركة . لقد كان هناك من غير شك ، لكنني لم أستطع الجزم بوقت تواجده في المخزن ، وقدرت من حركاته وهو يقترب مني ، أن المرأة استدعته ، وأنها تحاول إقناعه بأن يبيعني بعض التحف التي في الصندوق .

كان العجوز يرفض فيما بدا لي من صوته وإشارات يديه . والمرأة تصرّ على موقفها ، وأخيراً اقتربا من الطاولة ، فوضعت المرأة الصندوق عليها . وأشارت إلي أن أقترب ففعلت ، ودهشت لأن الصندوق كان مليئاً بالحلي والأحجار الكريمة .

حاولت أن أتفاهم معهما بما أعرف من كلمات إنكليزية حفظتها على ظهر الباخرة . لكن المرأة ابتسمت . وهزت رأسها نافية علمهما بهذه اللغة. لم يبق من سبيل سوى الإشارة ، فأخرجت نقودي كلها ووضعتها على الطاولة . ومن المؤسف

أن ما أملكه لم يكن مبلغاً كبيراً . ما كنت أتوقع أن تفتح السوق هذا اليوم ، وكان هذا كل حسابي في الباخرة وكل ما في وسعي دفعه للرجل ، فطلبت مني المرأة أن أنتقي ، وشرعت أبحث عن الأشياء التي أريدها ، فأنتقيت بعض العقود والخواتم والاحلاق والشكلات ، وكلها مرصّع بالفيروز والمرجان واللؤلؤ . وبأحجار أخرى لاأعرف إسمها . كنت أخرجها من الصندوق وأضعها على الطاولة والرجل ينظر إليّ متابعاً ، ثم تناول النقود وعدّها ،وأومأ إلي أن آتوقّف . وآغلق الصندوق بحركة تفيد أن هذا ما أستطيع شراءه بالنقود التي معي .

لم أجادل . كانت الأشياء ، في تقديري ، تساوي أضعاف قيمة نقودي . لقد كانت لقية ثمينة ، وكنت فرحاً بحيث ابتسمت في وجه المرأة أكثر من مرة . أما هي فظلّت هادئة ، غير مبالية ، كأنها لا تعرفني . وما كاد العجوز يدير ظهره ذاهباً إلى الداخل لأمر ما ، حتى فتحت الصندوق وتناولت هذا الخاتم الذي في يدي ، وألبستنيه . وهي تنظر في وجهي نظرة معبرة . نظرة تقول : « هذا تذكار مني» !

أخرجت منديلي فوضعت الأشياء فيه . وحين طلبت وصلاً بهذه المشتريات ابتسمت وقالت : «لا» ، وأرفقت ذلك بهزة من رأسها فهمت منها ألاّ وصل ، وابتسمت بدوري وقلت : « لابأس » ، ثم اتجهت إلى الباب وهي

أمامي ، وبعد أن شقّت الباب وتأكدت أن ليس ثمة من يراقب المخزن ، أومأت بيدها فخرجت .

كان المنديل في جيبي ، وكانت يداي فارغتين ، وقد سرت ببطء ، سيراً عادياً ، حتى انعطفت في الشارع المؤدي إلى « النادي البحري» وعندئذ أسرعت ، لا أصدق أنني نجوت ، وأن تلك المرأة الفاتنة كانت لي ، وأن منديلاً فيه هذا الكنز الصغير في جيبي ، والأهم أنني تجنّبت القتل الذي أرفضه بكل قواي .

دخلت النادي باحتراز . شربت زجاجة بيرة ، وتبادلت الحديث مع بعض البحارة ، وانصرفت مسرعاً إلى المرفأ ، دون أن ألتفت مرة واحدة إلى وراء . كانت الساعة توشك أن تدق الثانية ، وقد حان موعد نوبتي على الباخرة ، فصعدت السلم قفزاً ، وانحدرت إلى قمرتي التي كانت فارغة من الزملاء ، مما أتاح لي أن أضع المنديل في صندوقي ، وأسرع لاستلام النوبة .

كانت السعادة التي غمرتني وأنا على الباخرة غير عادية. أحسست أنني وُلدت من جديد ، وأنّ عمراً إضافياً قد كتب لي ، وأن الدنيا جميلة ، رائعة من حولي ، والبحر ، في المدى البعيد ، خارج المرفأ ، يبتسم لي ، وأن حظاً طيباً قد واتاني هذا اليوم . كنت قادراً ، وأنا أقوم بالحراسة ، أن أغمض جفني وأسترجع ، في ومضات خاطفة كالبرق ،

بعض الرؤى ، بعض التفاصيل ، بعض قسمات المرأة ، وشعرت بامتنان عميق للبحر ، وللوجود ، وللمرفأ الذي هيأ لي هذه المغامرة الرائعة .

حين انتهت نوبتي ذهبت إلى « بار» الباخرة . كنت جائعاً وبي ظمأ شديد إلى الشرب . أحببت أن أسكر . أن أفعل شيئاً خارقاً يعبر عن فرحتي . لكن المنديل الذي كان في الصندوق استأثر باهتمامي ، فكرعت زجاجة البيرة، وقضمت « سندويشة » كيفما اتفق ، وذهبت من فوري إلى قمرتي ، وهناك فتحت الصندوق ، وأخرجت المنديل باحتفال خاص ، وشرعت أتفحص كل مافيه على مهل ، بإعجاب ، بلذة ، بسعادة غامرة ، غامرة ، غامرة...

في اليوم التالي استدنت بعض المال من زملائي ،ومن الصباح انطلقت إلى النادي ، ومنه إلى السوق ، ومن بعيد رأيت أبواب المخزن مفتوحة . خفق قلبي بقوة . قلت في نفسي إنني سأكون حراً في دخول المخزن ، وفي البقاء فيه ما طاب لي ، وسيكون لدي وقت طويل لأتملّى وجه المرأة، في ضوء النهار الكامل ، وسأحاول أن أتفاهم معها ، وأن أعبّر لها ، بأيّ شكل ، عن حبي ، وربما ، في الزيارات المقبلة استطعت أن أقيم علاقة معها ، علاقة حميمة ،صادقة، لا أتوانى معها عن تهريبها إذا رغبت ، وعن الزواج بها إذا وافقت . لقد فتنتني تلك المرأة ، وكان الخاتم في يدي

شاهداً على فتنتي ، فأنا أنظر فيه وأعيد النظر ، وبأصابعي أتلمسه لأتأكد أنني أعيش حقيقة وليس حلماً .

دخلت المخزن بصورة طبيعية. كان هناك بعض الأجانب من السيّاح . تظاهرت بأنني أتفرج على التحف ، تقدمت رويداً رويداً إلى أمام . وحين صرت أمام باب الفاصل نظرت إلى الداخل ، إلى المكان الذي كانت فيه الطاولة ، والمرآة ، والمرآة ، فلم أجد شيئاً . تغير ترتيب الأغراض . لم أجد العجوز الذي رأيته أمس . رفعت رأسي إلى الجدار فلم أقع على علائم الكوة فيه . لقد عاد الجدار الخشبي كما كان . بدا مطلياً بالكلس بصورة لا تدع شكاً بأن فيه ثغرة. تولّتني حيرة شديدة . أصبت بخيبة أمل شديدة . ولولا الخاتم في يدي ، لظننت أن كل ما وقع لي كا ن خيالا ..

مكثت طويلاً في المخزن ، على أمل أن تظهر المرأة ، أن أرى العجوز ، غير أن انتظاري ظل سدى . أدركت عندئذ أن المعجزة لن تتكرر ، وكانت التحف قد فقدت قيمتها وبريقها في عيني ، فلم أشتر شيئاً ، وغادرت المخزن حزيناً خائباً .. وهذه هي قصة الخاتم » .

سرت همهمة بين الحاضرين ..

كان القمر يتوسط السماء الآن،والبحر يواصل تدحرجه على الرمل ، وهديره الحلو يعطي إيقاعاً مغرياً بالسهر ،

والدنيا صيف ، والسماء صافية ، مضاءة بألق فضي أليف.

وقال الرجل :

ــ ما أغرب هذه القصة .. تكاد لا تصدق ..

وقال آخر :

ــ غرائب البحر كثيرة ..

ولاحظ سعيد أن بعض السيدات انسحبن ، واستمعن إلى بقية القصة من داخل خيمة قريبة . فندم لأنه أفاض في تفصيل معركته مع المرأة .. وقال :

ــ اعذروني .. فقد أسأت الأدب بصراحتي الكاملة..

وقال الرجل الجلف الذي جاء في أول الليل إلى خيمته :

ــ كان عليك أن تنتبه لوجود ...

ولم يكمل الجملة ..

وقال الرجل الآخر ، المثقّف ، والد الصغيرة :

ــ لا يهمّ .. في الكتب تروى الأشياء بتفصيل أكبر ، وكلنا نقرأها ..

وساد الصمت .. فلم يقطعه إلا سعيد وهو ينهض قائلا :

ــ تصبحون على خير ...

فقال رجل موجهاً الكلام اليه :

ــ في أي ساعة ننطلق غداً إلى أرواد ؟

ــ في الساعة التي تشاؤون ..

– تناسبك الساعة العاشرة ؟

– الرأي رأيكم .. أنا معكم منذ الصباح ..

قالها ومضى ..

وما كاد يدخل خيمته حتى لحق به الرجل المثقف :

– زوجتي تسألك : هل تبيع الخاتم ؟

فكر سعيد . كان الرجل عزيزاً عليه ، وكان الخاتم عزيزاً عليه ، وكان منذوراً لعروس البحر ، ومن المحال أن يبيعه ، لذلك تبدّى الحرج في وجهه، وقال على استحياء :

– لتعذرني السيدة .. لاأستطيع التفريط بهذا التذكار ..

وقال الرجل :

– مفهوم .. شكراً ..

وعاد كما أتى ..

واستلقى سعيد على أرض الخيمة.. كان منفعلاً بذكريات قصته ، وينتظر أن ينام الجميع ليبدأ رحلته . لقد قرر أن يهجر هذا المكان الذي شهد سباقه اليوم ، وحين يطلع الصبح يكون قد قطع مسافة كبيرة ..

بعد قليل أسدلت الستائر على أبواب الخيام ، وأطفئت أنوار الكازينو ، وسادت الظلمة وعم السكون ، ولم يبق إلا البحر منشداً على هواه .. وعندئذ غادر سعيد خيمته ، غادرها متجهاً إلى الشمال ، على طول الشاطىء الذي كان مقفراً في ذلك الوقت ..

- ٥ -

كان والده بحّاراً أيضاً .

لم يكن ريّساً ، لكنه ، كريّس ، كان محترماً ومحبوباً. حين تقول صالح حزوم ، فكأنك تقول عريس البحر الشجاع . إنه تتوّج بزهور القاع البيضاء ، واستوى على متن الموج كملك عن جدارة . وخلال حياته البحرية الطويلة ، تحلّى بصفات جعلت صوته الجميل مفرداً ، وقام بأعمال ليست غريبة بالنسبة لبحّار ، لكنها ، بالنسبة اليه ، كانت شيئاً خاصاً ، متميّزاً ، وصفها بعضهم بالتهوّر ، وبعضهم بالطيش ، لكن بحّاراً عجوزاً قال : « هذه هي الجسارة التي تليق ببحّار ، ودونها يصبح عادياً ، كسائق عربة ، أو عامل في مرفأ ».

صالح حزّوم وحده لم يصنف أعماله . ما اهتم بذلك ولا اكترث . اعتبرها شيئاً عادياً ، كالتنفّس والسباحة، وشرب فنجان من القهوة . كان يقول لمن حوله « أنا ابن البحر . بين أحضانه أحس كأني بين أحضان أبي .أعرف

أنه يحبني ، وأعرف أنه يريدني ، وأعرف ، أيضاً ، أنه يلاعبني ، كما فعل الزير سالم مع الجرو ابن أخيه كليب . فحين اشتد الخصوم من عشيرة جسّاس على الزير ،ونازلهم بمفرده ، حتى يئسوا من أخذه حرباً أو غدراً ، أرسلوا اليه الجرو ، زاعمين له أن الزير قاتل أبيه كليب . عندئذ عمد الزير إلى امتحان الجرو . أرسل اليه أخته اليمامة ملثّمة ، فضربته بتفاحة ، تلقّاها بسيفه فشطرها . عرفت أنه أخوها وكشفت له السر .. كذلك البحر ، يمتحنني ليكشف لي سرّه. يخلع قلبي ليرى من خشب أم من دم هو . قلبي مثل قلوبكم . أنا ابن هذه الحارة ، ابن هذا الشاطىء ، ابن هذا البحر .. فكيف ترون قلوبنا ؟ .

وينتشر دبيب الرجولة فيمن حوله فتتألق العيون ، وتومض شرارات خاطفة وهم يجيبون :

ـ من حديد يا صالح ! من حديد يا أبا سعيد !

يجيب صالح :

ـ أعرف ، أعرف .. لا يكون من هذا الشعب ،من هذه الميناء ، من كان قلبه أرنباً . اسمعوا : كلمة حديد لا تعني شيئاً . الحديد بارد ، أخرس ، وقلب الانسان حار ، خافق . الشجاعة ليست وحشية . الوحش ليس شجاعاً . إنه حيوان مفترس . الانسان شيء آخر ، يرقّ أمام شروق

الشمس . ويتصلّب أمام العاصفة .. البحّار صورة عن البحر .. هل كلّ أيام البحر نوء ؟ لا .. أحياناً يبدو وديعاً كخروف . .

– ولكن الخراف لا تعيش في المرفأ .. الذئاب وحدها تصلح له ..

– الانسان ليس ذئباً ..

– وليس خروفاً ..

– صحيح .. ولكن البحر له قانونه الخاص .

– وللذئب قانونه الخاص أيضاً .

– الذئب لا يليق بالبحر . لا يملك قلباً له . حين تفور اللّجة . ترتعش جميع الحيوانات في أقفاصها ..

كنا نحمل شحنة من وحوش في أقفاص . فلما أربدّ الجو ، وحوّمت الشياطين السود ، والتمع البرق وثار الموج ، رأيت وحوش البر تنكمش مذعورة كأن قلوبها قد خُلعت ..

– نحن لا نتكلم عنك . أنت ، عدم المؤاخذة ، وحش بحر .. أنت لا تخاف يا أبا سعيد .

– لا أحد لا يخاف .. الشجاع نفسه يخاف . لكنه يقاوم .. هذا هو الفرق .. قاوموا أينما كنتم .. هذا ما علّمتني إياه الحياة ..

يقول ذلك ، أو ما شابهه . ويصمت . يبدو مأخوذاً مع

تيّار شعوري خاص ، كأنه يسترجع ، في مثل هذه الأوقات، ومضات من عالم آخر ، ينحلّ الضوء ذرات في مائه ، وينفتح قاعه عن خضرة عجيبة ، سندسية ، تتفرق في أرجائها كائنات ، وتقوم تضاريس ، وتتقاطع خطوط صخرية ، ذات كوى ومغائر ، وتنبت حشائش وتتشقّق أكمام ورد أبيض ، ويجلس هو في الوسط ، ملكاً متوجاً ، من حوله عرائس الماء يغنّين بأصوات رخيمة ، تتضوأ قدودهن ، وتتخايل ، عبر الشفوف المائية ، أجسامهن المشوقة ، الجميلة كأجسام الآلهة ، ويميل النهدان ، في كل صدر ، بشكل منفرج ، والحلمات ، من توثب ، خناجر عنبية ، مزروعة وسط حقوق مكوّرة من بللور .

ومع أنه لم يكن يفصح عن مشاعر من هذا النوع ، ولا يتباهى بمآتيه البحرية ، إلا أن رومانتيكية شباب غارب ما تزال تَسِمُ تصرّفاته . كان ، في القرارة من نفسه ، يمارس أمنيات نابعة مما يسمع من حكايات البحر . يتخيّل نفسه عريس بحر أسطوري ، ينزل إلى الأعماق ، في موكب كالذي للأمراء ، وهناك ، في الحدائق الشبيهة بحدائق قصور السلاطين ، يتجوّل ، يجلس ، يعشق ، ويغني بصوت هادر يهيج القاعات ، وفي الليل ، والقمر بدر ، يخرج مع عروس البحر إلى السطح ، يتنزّه على الشاطىء ، يجوس خلل الرمال، يطوف بين الصخور ، يختلس القبلات من حبيبته ،يوزّع

على الصيادين هدايا الاعماق من لؤلؤ ومرجان ، ويسهر مع البحارة في الحي ، حيث الليالي ، بعد تعب النهار ، كلها مسرات ، وحيث تشهد حبيبته ، عادات وأفراح قبيلته ، من بحارة اليابسة .

كان الحي الذي يقطنه ، في مدينة مرسين ، فقيراً . كان حي البحارة والصيادين ، ويمكن اعتباره قاع المدينة، وعنوان غرائبها التي لا تنتهي . إنه لا يستقيم على أي نحو مع أبسط تنظيمات الأحياء ، ولا يعرف البنيان فيه أية هندسة، وتتجمّع بيوته وتتفرق على مزاج الذين بنوها ، وهم غالباً بنّاؤون من الحي نفسه ، أو من أحياء أخرى فقيرة ، مماثلة تعلّموا المهنة بالتجريب،فلم يبرعوا فيها قط ، أو لم يستجب أحد لبراعتهم ، فالمهمّ ، في نظر الناس ، بناء أكواخ طينية أو خشبية ، متقاربة ، تفصل بينها أزقة ضيقة ، متعرّجة ، وتتكوّم على بعضها ، متساندة ، متعاونة، متحابة، متباغضة ، تقاوم الغرباء بشراسة،وبشراسة تتقاتل فيما بينها.

وكان الحي يقع على رابية ، وينحدر من جهة خاصرته الغربية إلى البحر ، وعلى الشاطىء ، تتبعثر أشلاؤه السكنيّة في فوضى ، وتمتدّ حتّى تبلغ الماء ، وأمامها ، عادة ، الفلائك ، والمجاديف ، واليواطر ، والسلاسل الحديدية ، والشباك المركومة ، أو المجفرة ، والحوانيت الفارغة ، والمقاهي الشعبية ، وأوكار الحشيش ، والتهريب ،والمساملك،

والرائحة الزنخة . والذباب . والشمس الحارقة في الصيف ، والبرد في الشتاء . والنيران المشتعلة في التنك . أو فوق الرمال ، والبحارة بطاقياتهم الصوفية . وشراويلهم السود ، أو البيض ، أو ملابسهم الداخلية من الشيت المربع ، الأزرق غالباً ، والنساء والأولاد ، والدجاج ، والكلاب ، والمواشي ، وكل ما يجعل الحي كرنفالاً من الأزياء والوجوه والألوان.

في هذه البقعة المبرقشة ، ذات الفوضى البالغة ، في هذا الحي البحري ، الفقير ، البارزة أضلاعه كهندي مُدقع ، الزاخر برجال ينتزعون لقمتهم من أشداق الموج ، وُلد سعيد حزّوم . كان الأكبر بين أخوته . وكان والده ، صالح حزوم . قد هاجر من اللاذقية إلى مرسين ، واستقرّ فيها إثر رحلة بحرية . لقد وجد في الحيّ أشباهاً له من كل البلاد الساحلية : مغامرين ، متبطّلين ، متسكّعين . بحّارة ، صيّادين ، عمّالاً في مختلف المهن : وكلهم جاء إلى هذا الوسط المتنافر ، المتضارب المشارب والآراء واللهجات ، يلتمس أن يجد مأوى ، أو يعثر لنفسه على مكان على الشاطىء أو يبني كوخاً من أخشاب مسروقة من المرفأ أو مجموعة من أطراف المدينة بوسائل شتى ، ليس بينها وسيلة شرعية على كل حال .

وكان في برّ الأناضول نهر يصبّ في البحر شمال المدينة. كان النهر غزيراً عميقاً واسعاً ، يصلح للملاحة النهرية ،

وكانت فيه مراكب ومواعين تقوم بنقل البضائع والحبوب من بر الأناضول إلى المرفأ . ومنه إلى البحر ثانية ، وفي هذا النهر كان يعمل قسم من البحارة الذين يقطنون حيّ الأكواخ هذا .

وكان النهر يمتدّ في أرض زراعية شاسعة . ويتعرّج منحدراً بين الجبال التي اخترقها عبر واد كبير . ثم يترامى في السهول الواسعة إلى مصبه في سفح جبال أخرى . وعلى طول مسافاته هذه تقوم المدن والبلدان والقرى . وفيها مرافىء صغيرة للتحميل والتفريغ . وفيها يتجمع القرويون الذين يركبون وسائط النقل النهرية في سفرهم بين الداخل والشاطىء .

كان هذا الشريان المائي يبعث الحياة خصبة موّارة في السهول والجبال من حواليه . كانت الأرض سوداء التربة، صالحة جداً لزراعة الأقطان والحبوب ، وكانت خضرتها في الربيع أبسطة يانعة لا حدّ لها ، والجبال ذات الغابات ، تطلّ عليها من الأبعاد ، فتؤلف معها ارتفاعات خضراء شامخة يتملاّها بحارة النهر في شيء من خشوع وانبهار ، ويقطعونها فرحين كأنهم يجتازون حدائق الجنة نفسها .

على مركب صغير ، في هذا النهر الواسع . عمل صالح حزوم . كان الجو يفتنه ، وطوال فصلي الربيع والصيف ، كانت الأمداء ملعباً لبصره وخياله ، وكانت الزهور البرية :

النرجس ، شقائق النعمان ، المضعف ، تدخل بهجة خاصة إلى قلبه . وعندما يمر المركب في الوادي عبر الجبال ، كانت أشجار الصنوبر والسنديان والبقس والزعرور ، المتشابكة على الجانبين ، تشكل مظلة من خضرة ، وتلقي في الماء الصافي المنساب باتجاه السهل ، ظلالها المتراقصة ، فتبدو التهاويل كأنها لوحات طبيعية فائقة الروعة . وكانت حوافي الجبال ، في مقاطع الصخور وتدرّجاتها ، تخلب لبّه ، فهو ابن ساحل ، والجبال جديدة ، غريبة عليه ، وهي في استطالاتها وألوان تربتها وصخورها ، وفي الغابات التي تكسوها ، تبهره ، حتى ليودّ أن يغادر المركب ، ويتسلّق خواصرها ويضيع بين أشجارها .

وكانت الشمس والقمر ، في طلوعهما من وراء الجبل، في الأصباح والعشيّات ، يؤلّفان منظراً لا حدّ لبهائه ، وتبدأ أشعتهما ، الماسية والفضية ، تترامى على السهل الأخضر الفسيح ، فيبدو منبسطاً من رصاص ، أو بحراً من زروع متموّجة مع الريح ، والطيور الجوارح تتقاطع في سمائه ، في تشكيلات بديعة ، وصوت حنون يعلو في طرف السهل أو على رابية قريبة ، ومساقط المياه المنحدرة من بين الصخور في خرير موسيقي يضاعف من فرح الانسان بالطبيعة ، من توحّده معها ، واندماجه فيها ، مسربلاً بجلال الكون العظيم .

هذه الأوقات كانت تُضاعف همّة البحّارة . تبعث في نفوسهم نشوةً خاصّة ، وتؤرث ناراً داخلية تنضح معها الجسوم عرقاً في قلب الشتاء ، فيقبلون على العمل ، وعلى الحديث ، والشرب ، والغناء ، وتتسعّر أشواقهم إلى المرأة، والعراك ، والانفلات ، وتتنزّى من أحداقهم شهوة حارقة، كأنهم جياع مسعورون ، مرضى لا يشفيهم سوى تحقيق الذات عن طريق العنف ، أو المغامرة ، أو الاختلاج الشهواني الذي يُبرّد لظى داخلياً يفور كمرجل بخاري بقوة مئة حصان.

وكان صالح حزوم ، الذي يلوذ بالصمت غالباً ،رجل المواقف الصعبة على الدوام ، خاصّة خلال العواصف في الشتاء ، حين يرتفع منسوب النهر ، ويندفع تيّاره الجامح بسرعة رهيبة ، ويصبح المركب قطعة خشب تتلاعب بها المياه الهائجة ، وتهدّد ، كل لحظة ، بقذفها على إحدى الضفّتين ، لتتحطم على الصخور أو تجنح بين الأدغال ، في رجة داوية يتقوّض المركب فيها وتتخلّع أضلاعه .

وكان مقام صالح حزّوم بين البحّارة مقاماً خاصاً متميّزاً. خبرته ، شجاعته ، قدرته على احتواء الموقف ، صبره ، وعناده في التغلب على المشكلات الطارئة تعطيه هذا التمييز.. وكانت قوّته الجبارة في العمل ، حين يستنفر أعصابه ، ويمسك بكيس القمح زنة مئة كيلو ، فيرفعه بين يديه ويضعه فوق صفوف الأكياس في عنبر المركب ، أو على الرصيف

المرفأ مضرباً للمثل . ومع أن هذا العمل ليس عمله . فهو يقدم عليه حين تستدعي السرعة أو النوء أو زحمة الشغل ذلك . أما في المعارك التي تنشب بين البحارة . على المركب أو في الميناء . أو بين البحارة وعمال المرافىء ، فإنه يثبت جسارة وسطوة معروفتين ومشهورتين . وحين يصيح بالمتعاركين : « كفى » معنى ذلك أن يكف الجميع ، أن يتوقفوا ، أن يحتكموا اليه ، وإلاّ تدخّل في العراك ، وأدّبَ الذين يركبون رؤوسهم .

ولقد تمرّد عليه بحّار ذات رحلة . كان بحاراً شرساً ، سكيراً ، زانياً ، ولم يكن صالح يحاسب أيما بحّار على الشرب أو الحب . ذلك من حق البحّار .. في رأيه . وكان هو في مقدمة الجميع ، من المتمتّعين بهذا الحق . لكنه كان يفعل ذلك باعتدال . يشرب دون أن يسكر . ليس لأن جسمه الهرقلي قادر على امتصاص كمية أكبر من الكحول ، ولا لأنه يشرب متأنّياً في البدء ، وفق طقوس يحترمها جداً ، ويطالب جلاّسه باحترامها أيضاً . بل لأن في جسمه طاقة عجيبة على تحويل الكحول إلى ماء ، وقدرة على ضبط النفس . والامتناع عن الشراب إذا ما أحس أن دبيب الخمرة سيفقده توازنه . ويخرجه عن طوره الرصين المعتاد . ويسبب له أيما حرج أو فقدان كرامة .

ولم يكن متهالكاً على النساء . كان قنّاصاً بالأحرى .

إن نساء الخمارات ، أو عاهرات الموانىء ، لا يلفتنه إلا قليلاً . المصادفات تضعهن في طريقه . تنشب المعارك فجأة . ويكون عليه أن يتدخل . أن يسوّي الموقف . ويعيد الهدوء . ويحمي الضعيف . فارضاً هيبته على الجميع . وهكذا يغدو سلطاناً . لا تلبث سلطانة النساء أن تنقاد اليه . وكان يكسب جيداً . لكنه لم يكن غنياً . غير أن أريحيته كانت أريحية كرماء . فعند اللزوم ينفق كل ما معه بغير تردّد ، ويرفض . باصرار شديد . أن يستثمر نفوذه الشخصي في أي مغنم ، فهو يدفع من جيبه لقاء أي خدمة تُقدّم إليه . ولا يحمل منّة ريّس المركب نفسه .

وفي إحدى الموانىء كانت امرأة تدير مطعماً صغيراً . لم تكن جميلة بل شبقة . كانت مثيرة . تلعب بالبحّارة دون أن تعطي نفسها إلا لمن تريد . كانت لها نزوة جنسية لا يشبعها عشرة رجال . وكان البحارة يقولون : « فوزية وحدها تفتح ماخوراً وتكفي زبائنه » . وهي تسمع ذلك ، تعرفه ، ولا تبالي ، وإذا تجرأ رجل عليها دافعت عن نفسها بشراسة ، وشهرت عصا أو سكيناً أو أيّ شيء تقع يدها عليه . دون خوف ودون حساب للعاقبة . مع سلاطة في اللسان وحدة في الطبع . يتّقيهما الناس ورجال الشرطة وكل عمال الميناء .

وكان البحّار « شبعو » ممن أغرموا بها . يزعم أنها

خربت بيته ، وأن كل ما يكسبه ينفقه عليها ، وأنه يحمل اليها الهدايا في الذهاب والإياب ، دون أن ينال منها مبتغاه. وكانت هي تسايره وترفضه في آن . تعرف أنه مجرم ، نذل ، سكير ، وأنه قد يصيبها بضرر ، لكنها لا تريده عشيقاً ولا « بلطجياً » عليها ، وتحاول أن تصدّه بالحسنى ، فاذا تنمرد دخلت معه في عراك ، ويبقى الحاضرون ، عندئذ ، جانباً يخشون التدخّل ، خوفاً من إجرام « شبعو» وسلاطة فوزية .

ولم يكن صالح حزوم معنيّاً بما بينهما من مشاكل . إنه ، كالبحّارة الآخرين ، يأكل في المطعم ويدفع حسابه . ولم يكن عشيقاً لفوزية بأيّ حال . كانت بينهما مودّة ، فاذا دخل المطعم ، استقبلته بترحاب . خصّته بالكرسي الأجود ، والصحن الأنظف ، والطعام الخاص ، وجلست إلى مائدته ، تشاركه الشراب إذا رضي ، ساعية إلى أن تكون ، هي نفسها ، في خدمته ، دون العاملين لديها . وهذا ما كان يثير حسد « شبعو» ويوغر صدره ضد صالح .

وفي ذلك اليوم ، عصراً ، كان صالح في المطعم ، وصل المركب بعد الظهر بقليل ، وشرع العمال بتحميل أكياس الحنطة ، ولم يجد البحارة وقتاً للنزول إلى الميناء إلا في الأصيل ، وكانوا جياعاً ، وكان صالح يريد أن يأكل بسرعة ويعود إلى الشغل ، لكن فوزية ، كعادتها ، طلبت له شراباً ،

وجلست إلى طاولته . هذا ما أثار « شبعو» ، ودفعه الى افتعال معركة في المطعم . وقال صالح في نفسه « لن أتدخّل.. ابن الزانية هذا أصبح في حالة سكر ، ومن الأفضل إعادته إلى المركب ». ظل جالساً يراقب ما يجري بصمت . ولم تأبه فوزية لصراخ « شبعو» ، تركته وشأنه ، ولم تكترث لما حطّمه من صحون وأقداح ، لكن شبعو جاء اليها ، إلى طاولة صالح ، وحاول جرّها إلى طاولته بالقوة .

– ياعاهرة ، تأخذين مالي وتذهبين إلى غيري .

– أنا لا آخذ مالك .. أنت لا تملك مالاً أصلاً ..كل ما تكسبه تنفقه على السكر .

– أنفقه عليك ..

– فشرت ..

– قحبة ..

وصفعها بوحشية ..

صرخت فوزية من الألم . كانت عزلاء . ولم يستطع الخدم إنقاذها من يديه . عندئذ تدخّل صالح . تجاوز أن شبعو اعتدى على جليسته، وأنه انتزعها من طاولته، وضربها ، هي المرأة ، بهذه الشراسة . كان ذلك قمينا ، في مكان آخر ، وجو آخر بدفعه إلى قتل المعتدي ، لكنه ، تجنباً لضرب زميل له ، وكيلا يفرض نفسه حامياً لها ، عمد إلى تهدئة شبعو وتخليص فوزية من يديه .

ـ اهدأ يا شبعو ! صاح محتدّاً .

ـ دعها ولا تتدخل يا صالح .

ـ ولكنها امرأة .. ألا تخجل ؟

ـ أنا أخجل .. أما أنت ..

ـ أنا لا أريد العراك معك ، ولكنها امرأة ..

ـ مثلك ..

ـ لن أضربك ياشبعو .. إهدأ ..

ـ دعها لي إذن .. دعني أقتلها ..

ـ وإذا لم أفعل ؟ .

ـ تكن قوّادها ..

ـ أنا قوّاد ؟ .

ـ أنت قواد وأكثر !

ـ وأنت ! ؟ .

قالها وهو يلكمه في وجهه ، فأفلت فوزية وترنّح من قوة الضربة . « أنت بندوق » أضاف صالح « أنت سافل ابن سافل » وانتزع كرسياً وهوى به على رأسه « سأربيك يا شبعو وأرجعك إلى .. أملك ». .وراحت فوزية ، وقد تحرّرت ، تطلق سيلاً من الشتائم المقذعة ، فيما كان صالح ، وقد تناول شبعو خشبة غليظة ، يتّقي ضربة انحطّ بها عليه بكل عنفه الإجرامي . كانا ، الآن ، قد صارا في قاع المطعم

الذي خلا من الناس . التجمهر كان على الباب ، وفي الشارع ، وكان ثمة خوف على صالح ، لمعرفة كل من في الميناء أن شبعو قاتل لا يتورع عن استخدام أية أداة يطالها للبطش بخصمه . غير أن صالح ، الذي تخرّج من مدرسة المرافىء ، وعرف الكثير من أمثال شبعو ، قرّر في نفسه أن يؤدّبه على طريقته ، أن يُذلّه أمام الجميع . كان يثق بقوة ساعديه . هو الذي ، يوماً ، فرك مجيدياً فمحا الطغراء الحميدية عنه . والذي يملك قلباً صامداً ، لا يهلع حتى أمام الموت . كان يرفع كرسياً إلى الأعلى بأسنانه ، فكيف إذا رفعه بيده . والكراسي موفورة ، منتشرة في كل أركان المطعم . ومن بعيد ، أمام الخشبة المصوّبة اليه ، كان يهوي بالكرسي تلو الآخر ، فلا يتيح لشبعو أن يرفع رأسه إلى أعلى . كان همّه أن يقترب منه . أن يمسك به بيديه الحديديتين ، فلما توصل إلى ذلك ، انتزع الخشبة منه ، وضربه بالجدار ، وبجماع يده المنضمّة عاجله على رأسه ، فتهاوى شبعو في الزاوية ، مفسحاً لقدمي صالح أن تعملا به ركلاً وتحطيماً . حتى إذا تمدّد على طوله ، أمسك به من ياقة سترته وجرّه خارج المطعم ، وهناك ألقاه شلواً في الشارع ، ونفض يديه ، دون أن يتكلم . كل مافعله ، أنه طلب من الناس التفرّق ، وقال ، بعد أن استردّ هدوءه موجّهاً الكلام إلى فوزية :

— عودي إلى عملك ..

ثم اتّجه بطيئاً ، هادئاً ، إلى المركب الراسي على مقربة في النهر .

ولم ينجح عمال الميناء في حجز شبعو الذي نهض ، شاتماً معربداً ، ولحق به إلى المركب . تناول ، هذه المرة ،قضيباً حديدياً من الميناء ، وشبّ من بين المحيطين به ، صارخاً :

– دعوني .. سأقتله !

تدافع الناس من جديد . ركضوا باتجاه المركب . وعلى حافته ، في أعلى السلم ، وقف الريّس حائلاً بين شبعو وصالح ، لكنه لم يفلح في محاولته ، وتمكّن شبعو من تسديد ضربة إلى كتف صالح ، وقبل أن يهوي بالقضيب ثانية ، كان صالح قد التحم به ، وبدأت معركة عنيفة على المركب، وتدحرج الاثنان ، وتخبّطا ، ثم اعتلى صالح صدر خصمه . وأمسك برأسه وراح يضربه بالأرضية الخشبية ، والريّس يصيح :

– خلاص ياصالح ، لا تقتله .. لا توسّخ يديك به .. هذا القذر ! .

وفي اللحظة نفسها فغرت الأفواه دهشة . كان صالح يرفع شبعو إلى أعلى ، إلى فوق رأسه ، وخيّل إلى الجميع أنه سيضرب به حافة المركب ، وأنه سيقتله لا محالة ، لكن صالح اتّجه إلى النهر ، وقذف به إلى الماء ، كخرقة لحمية ، وقذف بالقضيب الحديدي وراءه ، ومن جديد نفض يديه،

وجلس على كيس ملقى على السطح ، وشرع يلفّ سيكارة وهو ينتفض غضباً .

هكذا ، حين يريد ، كان يقنص النساء ، فعله يقنصهنّ لا كلامه . العمل لا القول يقنص المرأة . ليعمل الرجل ، ويدع المرأة ترى وتعجب . جمال العمل لا جمال الوجه، بالنسبة اليها ، هو الحقيقة ، وهو الرصيد ،والقيمة التي تتفوق ، في النهاية ، على كل قيمة أخرى . وعندما يفعل الرجل ، ويعفّ عن استغلال فعله ، تصبح أريحيته ،شيمته، إيماءته المعطرة ، نداء آسراً ، وجاذباً لا يُقاوم .

ولقد دلّل فعل صالح عن رجولته . ما أتاه كان نخوة. تحية للحق ، تحية للعدل ، تحية للنهر ، وتحية للمرأة . ثم لا شيء ، أدار ظهره ومضى . أصرّ ، في كل وجبة تناولها بعد ذلك ، على دفع حسابه كاملاً . قبل عناية فوزية به ، إيثارها له ، واحترامها الشديد ، دون أن يمنّ بكلمة ، بنظرة ، بحركة جارحة . رفض نداء الرغبة الذي تسعّر في دمها ، رفضه بلطف ، لكن باصرار ، كان هواه في مكان آخر ، في ميناء من هذه الموانىء،في بيته ، في حضن زوجته. إنه لا يتكلم عن هذه الأشياء ، لكنه يتصرّف كمن به شبع من الجنس ، ويعيش مزاجه الخاص ، راضياً بما يستشعره من ود ، وما يلقى من اعتبار .

كان يلبس شروالاً أسود ، ويتزنّر فوقه بزنّار معرّق،

على قميص دون ياقة . وسترة مشقوقة عند الظهر ، وينتعل حذاء مكعوفاً ، شأن البحارة . وعلى رأسه طربوش خمري . يلبسه فقط في المناسبات .

مآثرته الكبيرة ، لم تكن في المعارك الكثيرة ، على ظهر المراكب أو في المرافىء . هذه أشياء مألوفة ، يأتي بمثلها البحّارة دائماً . وهو ، فوق أنه لا يستطيبها ، ولا يذكرها ، كان يأنف منها . إذا كان قد أدّب شبعو فهناك العشرات أمثاله . برّ الأناضول مليء بالأشقياء ، بالمجرمين ، باللصوص ، والعصابات ، في المرافىء ، ذات سطوة. إنه يعرف كل هذا ، ويقدر الظروف ، ولا يتدخّل في صغائر كهذه ، قانعاً بأن أحداً لا يتعرّض له ، وأن أحداً لايدوس على رجله كما يقول ، وما تبقّى لا يعنيه . وإذا كان شعبياً بطبعه ، ومناصراً للضعيف ، وكارهاً للظلم ، فانه كان يفعل كل ذلك ، بالفطرة الإنسانية ، بالحس السليم ، دون وعي ، ودون فهم لمصادر الشرور في هذا العالم . وكان يأسف ، ويذكر هذا كثيراً ، أنه لا يقرأ ولا يكتب ، كان أميّاً ، تلوّن دنياه رؤوس الحكايات ، وتقرّبه من الفهم الصائب تجارب وخبرات ، وكان يكره الأغوات ، يكرههم منذ يفاعته ، وبما عرف عنهم في بلده الأول اللاذقية ، ويستشعر ضرورة كبيرة في التضامن مع زملائه ، أينما عمل ، ويعتبر الحيّ بيته . إن الحي كلّه أسرته . وهو مستعدّ للموت دفاعاً عنه ضد

غارات الأحياء الأخرى ، ضد تجاوزات الزعران من الأحياء الأخرى . لذلك كان مقدّراً في حيّه ، وممن يحسب حسابهم رجال أحياء المدينة .

لقد ختم حياته في الملاحة النهرية ختاماً مجيداً ، خارقاً. متهوراً، كأنما أراد أن يربح معركة ويقول للنهر «وداعاً». فوزية ، بعده ، صارت راوية . كانت تروي القصة ولا تملّ ، في ختامها ترسل هذه الأمنية : «آه لو يعود» . وفي المرافىء ظلّوا يذكرونه . يقولون : «النساء لا تَلِدُ مثل صالح». يضخّمون الحكاية ، على هذا النحو ، حتى يُرضوا أنفسهم والسامعين ، وهكذا انقلبت الحكاية إلى أسطورة ، وزاد في تأثيرها أن صاحبها غاب عن عالم النهر ، فهو بعيد ، والجمال ، أبداً ، في البعيد .. البعيد جداً .

ويضحك صالح إذ يسمع كل ذلك . يقول : «الناس يحبون الحكايات . يتزوّدون فيها ، ويطيلون قامة البطل ، لأنهم بحاجة إلى حكايات وأبطال . يتصوّرون أنفسهم في الحكاية . تصير مع الأيام حكايتهم ، ولأنها كذلك تصبح قابلة لكل أنواع المبالغات . القضية ، يا أولاد ، بسيطة . ليس هناك سحر ولا تميمة ، وليس من انسان لا يخاف ، لا يقهر ، ولا يموت . الشجاعة عدوّة الحذر ، عدوّة التردد، عدوّة الحسابات الكثيرة . لو حسبت ، يومها ، حساب الموت ، ما أقدمت . ولو فكرت أن العملية خارقة ، ربما

تراجعت . المسألة وما فيها أن الأشياء طبيعية ، وحين نأخذها كذلك نقوم بأي عمل بشكل طبيعي ، دون خوف ، ودون تفكير بالعاقبة .. ثم ما العمر ؟ ولماذا ؟ ألم يقولوا إن الرجال تهدّ الجبال وأن النساء تهدّ الرجال ؟ أنا لم أهدّ جبلاً ، ولا هدّتني امرأة ... عملت بحّاراً ، وسلكت سلوك البحار ، وهذا كل شيء ، نعم .. هذا كل شيء ..

« كان ذلك في يوم عاصف . هذه الكلمة لا تكفي ، ولكني لا أعرف كيف أخترع الكلمات . العواصف أنواع ، وفي حياتي البحرية شهدت أنواعاً منها ، لكن العاصفة ، ذلك اليوم ، كانت شيئاً غريباً ، مرعباً ، لا يحدث إلا في المئة عام مرة ، وقد لا يشهدها البحّار ، عمره كله ، إلا مرة . أنا شهدت عواصف في البحر . أنتم كلكم تعرفون البحر ، وتعرفون عواصفه ، حتى أشدّها سرعة وهيجاناً ، لكن تلك العاصفة تختلف ، وهي في النهر تختلف عنها في البحر ، ففي النهر تيّار ، إذا ساطته العاصفة ، ودفعته سرعة الريح ، انحدر خاطفاً كالبرق ، جائحاً كالصاعقة ، صاخباً كوحش ، قاطعاً كحدّ السكين . إنه مرعب ، يخلع قلب البحّار ، ويدمّر أيّ مركب ، ويخرب الضفتين ، ويحمل معه ، في اندفاع المياه ، الحجارة والصخور والأشجار ، كما يحمل معه حطام البيوت التي يهدمها ، والزروع التي يجتاحها ، والتربة التي يجرفها فتغدو مياهه سيولاً عكرة ،

طينية . يغرق فيها كل سبّاح ، مهما يكن .

« في البحر تختلف الأشياء . هذه البركة المائية ، الزرقاء ، الواسعة ، تضطرب في العواصف ، وتصخب أمواجها ، وتندفع محمحمة إلى الشاطىء ، وترتطم بالصخور فتتحطّم ، وتتناثر ، وتغدو زبداً ، بخاراً أبيض ، وترتدّ إلى الماء ثانية في زئير وحشيّ مخيف . لكن البحر عريض ، فسيح ، لا يجري بين ضفّتين ، ولا يملك تياراً ، وتستطيع فيه المناورة ، والحركة ، وتفادي التيارات الجوفيّة ، بأن تبتعد إلى الأعماق ، وبقدر ما استطعت إلى الأعماق . أما النهر فأنت مكبل فيه ، محصور في واديه الضيّق ، وبين ضفّتيه المتوازيتين ، مخطوف مع تياره إلى حيث يندفع هذا التيار ، فكأن يد الله ، القوية قوة فائقة ، هي التي ، في سرعة الريح المجنونة ، المولولة ، تدفعك إلى قلب الجحيم .

هكذا ، يا أولاد ، تتبدّل الأشياء ، ما بين بحر ونهر . وكنت ، أنا البحّار أباً عن جد ، أعرف البحر جيّداً ، وحسبت نفسي أعرف النهر ، حتّى وقع ذلك الحادث ، واكتشفت أن النهر ، كالبحر تماماً ، يخبىء سره في ذاته ، في مائه ، وأنه ، كغضب الله المنتقم ، ينزل بالناس فيقوّضهم ، ويبدّدهم ، ويخرب ما بنوه على ضفتيه ، وما أقاموه في مرافئه ، وما ساقوه على متنه من وسائل الشحن أو السفر .

ويجرفها في طريقه كعيدان . كقطع خشب صغيرة ،كأشجار انتزعها وجرفها في اندفاعه وهديره المسعور .

« ذلك اليوم ، يُذكر ولا يُعاد ، كان يوماً عربيداً ، فاجراً ، غضوباً ، فكأن السماء صبّت لعنتها على الأرض، وكأن الظلام يثأر من النور ، فهو مطبق منذ الصباح ، والشمس قد احتجبت لا أدري أين ، وانطفأت ، ربما ، ذلك النهار ، وأقفلت الجهات الأربع ، وبقيت الريح وحدها تهيم على وجه السهل ، وتولول مندفعة من الجبل وتضطرب ، في الفضاء ، متصارعة ، متقاتلة ، في عراك شرس ، لارحمة فيه ، لا نسمع إلا ضوضاءه ، ولا يأتينا إلا تزآره ، ولا نرى إلا غبار المعركة المثار مع الريح العاصفة ، المدوّية في آذاننا، حتى خفنا على طبلاتها أن تفخت .

« لففت رأسي بكوفية . خفت من أصابع الريح الحادة أن تقتلع شعري . وبصعوبة استطعت التحديق في الجو ، خارج المقهى . وحين بلغت النهر طالعني منظر رهيب . السيول تنحطّ مندفعة مع المجرى ، آتية من بعيد، منخطفة إلى بعيد ، هادرة بقوة آلاف الأحصنة ، والمراكب ، والفلائك ، والمواعين وكل وسائل الملاحة النهرية الموجودة في مرفأ « قره شهر » تتخبط في وسط التيار ، وتندفع معه باتجاه الغرب ، وتشد بالحبال حتى تكاد تقطعها ، وليس من قوة بقادرة على تخليصها من كف المياه التي تلطمها وتعصف

بها ، وتهدد بأن تجرفها وتحملها من منحدر الجبال إلى البحر .

كان الناس يبكون . كانت كارثة . سكان الضفاف النهري مهدّدون كل شتاء بكارثة ، غير أن ما حدث ذلك العام ، كان كارثة شاملة ، لم يسلم من أذاها أحد ، على طول مجرى النهر . كانت هناك عوامة ضخمة في مرفأ « قره شهر » دورها أن تكون مربطاً للسفن الصغيرة والمراكب والمواعين والقاطرات ، وكانت هذه العوامة ، ونحن نسميها « الغيز » مثبتة في النهر بشكل لا يمكن اقتلاعه ، وقد قاومت كل العواصف وصمدت لكل الأعاصير ، وأعطت برهانها خلال أعوام طويلة ، وصارت موضع ثقة البحارة . الذين يلجأون إلى هذا المركب ، ما أن تبدو نذر أية عاصفة في الجو . وفي ذلك اليوم المشؤوم ، تجمعت في هذا المرفأ سفن وقاطرات ومراكب ومواعين كثيرة . لجأت اليه محتمية بحوضه الواسع ، وبالجبل المجاور الذي يشكل مكسراً طبيعياً للريح . فكان المقهى يعج بأصحاب هذه السفن والمراكب ، وببحارتها ، وبالركاب الذين انقطعوا عن السفر ، بين نساء وأولاد وشيوخ ، وقد تكوموا جميعاً في أبنية المرفأ ، وتجمعوا في المقهى ، وكلهم يرتجف لهول العاصفة ، التي بدت ، خلال ساعات طويلة أنها ستقتلع سقوف الأبنية . وتحمل المقهى وتلقي به في النهر ، وتخطف الناس إذا هم خرجوا من مكامنهم ، أو اقتربوا من ضفة النهر ، أو تجرأوا فحاولوا

الصعود إلى ظهر أي مركب يتأرجح في مهب التيار ، ويترنح يميناً ويساراً ، وحباله تغوص في الماء وتظهر على السطح ، في توتر بالغ . يوشك أن يتقصف .

« كنت ، خلال الصباح كله ، في المقهى . كنت جالساً مع الريس . شربت قليلاً ، خرجت ودخلت . جرّبت تهدئة الناس . ساعدت في حل بعض المشاكل ، أعطيت تقديراتي عن الجو ، وعن « الغيز » ومقاومته ، وكنت أضمن أن العاصفة لن تهدأ قبل منتصف الليل ، وأن النهر يحتاج إلى بضعة أيام ليصبح صالحاً للملاحة ، وأن البضائع التي في السفن والمواعين قد تبللت وتضررت ، وسألت الله ألا تتقطع حبال أي منها ، حتى لا تصطدم بغيرها ، فتحطم وتتحطم ، وتؤدي إلى كارثة في الحوض .

« وفجأة ، حوالي الظهر ، بدا أن الله لم يستجب لدعائي . انقطع حبل ماعون كبير ، وصار يضطرب في الحوض ، مدفوعاً بالريح العنيفة ، مصطدماً بالسفن والمراكب التي حوله ، يحاول التيار أن يحمله معه فلا يقوى ، بسبب حبل بدأ يتسلخ وما زال يشده إلى « الغيز » من أحد طرفيه . معنى ذلك أن الخطر يحيق بكل شيء ، كما يحيق بمركبنا القريب من الماعون . كان الريس يشهد هذا التطور المفاجىء بعينين أبيضّتا من الرعب ، ولا يدري ما يفعل . خرج كل من في المقهى وفي أبنية المرفأ من البحارة إلى الضفة . علت

الهمهمات والأدعية دون أن يتقدم أحد بعمل ، أو حتى بفكرة ، لإنقاذ الموقف . عندئذ خطر لي أن نجاة الماعون ميؤوس منها . فبعد قليل سينقطع الحبل الباقي ، ويحمله التيار ليقذفه على ما حوله من مراكب وسفن ، وأفضل ما نقوم به ، في هذه الحال ، هو قطع الحبل بأنفسنا ، وتسليم هذه الفريسة التي صارت في الفلك الوحشي للريح كي يلتهمها . قلت ذلك علانية ، صراحة ، ودعوت الريّاس إلى الأخذ بوجهة نظري قبل فوات الأوان . عارض صاحب الماعون . لكن معارضته جوبهت من البحارة برفض كامل . كان موقفه أنانياً ، سيئاً ، واهتاج أصحاب السفن والمراكب . ودون أن يلتفتوا إلى ممانعته ، أجمعوا على تأييد رأيي .. وقال أحدهم :

— من ينزل إلى « الغيز » لقطع الحبل ..؟

ولم يجب أحد . خيّم صمت .. ظلت العاصفة وحدها تتكلم ، ومن يجرؤ ، في قلبها ، أن يقوم بعمل مجنون كهذا ؟

وفكرت : « هل ندع كل شيء ينهار ، لأن أحداً لا يجرؤ على النزول ؟ ثم إن « الغيز » مثبت إلى البر ، وإذا لم تجرف الريح من ينزل اليه ، فان الوصول إلى الحبل ممكن جداً . وقطعه سهل بعد ذلك . صحيح أن في هذا العمل مغامرة ، ولكن متى خلت حياة البحارة من المغامرات » ؟.

شددت الكوفية على رأسي جيداً وقلت للريّس :

ـ لن أدع المركب يتحطم .. سأنزل إلى الغيز .

وعلا صوت يقول :

ـ الوقت ليس وقت مراجل ..

أصررت :

ـ سأنزل ..

وقال الريّس صادقاً :

ـ أخاف عليك :..

وأجبت :

ـ المسلِّم هو الله .

ـ لكنني لن أضحي بأفضل رجالي ..

ـ أفضل رجالك من لا يخاف العاصفة .. وأنا لاأخافها..

فعانقني قائلاً :

ـ لن أنسى هذا المعروف ..

ـ وأنا لن أنسى طيبتك ..

قلتها وانطلقت إلى النهر ..

كانت الريح في وجهي ، المطر حبات كبيرة ، كالبَرَد ، والرعد يدوي ، وكان التيار عنيفاً ، صاخباً ، يهدر كطاحون فوق سد .. انفصلت عن الجماعة ، وبدأت أحبو على أربع والسكين في فمي . كان علي أن أتمسك بالأرض ريثما أبلغ الحافة ، وكنت أحس أن الريح ستحملني وتطوح بي بعيداً ،

فأتوقف ريثما تمر عصفة قوية ، ثم أتابع الحبو ، غير مبال بالمطر والوحل ، وكنت أسمع الأصوات من ورائي ، وتبلغ أذني قرقعة مخيفة صادرة عن سطوح المباني التي تمسك بها الريح وتهزّها بعنف ، وحين بلغت الحافة دوى رعد رهيب وراح يتدحرج في الفضاء ، كأنه يحذرني من مغبة ما أنا مقدم عليه . صممت على المتابعة ، وتعلقت بحبل وصرت متدلـّياً فوق الماء ، ورحت أنقل يدي ، بهدوء ، بقوة ، والريح تلعب بي كخرقة ، والتيار يشرئب مسعوراً تحت قدمي ، وأنا أبسمل ، شاعراً أن قوة أعصابي تجمعت كلها في زندي . لن أكذب فأقول إنني لم أخف . لقد خفت ، وقاومت الخوف . الانسان ، حين يصير في قلب الخطر ، يسيطر على الخوف . يكون قد خبره وأخذ يعايشه ، ويبقى الفضل للقلب .. إذا ثبت القلب ثبت الانسان . وقد ثبت قلبي والحمد لله ، وبلغت « الغيز» دون أن أسقط في الماء. كانت الصعوبة ، هنا ، أن ظهر الغيز مسطح ، ولا حوافي له . ليس ثمة سوى الأوتاد التي تشد الحبال ، وكانت هذه الخشبة الضخمة العائمة تتأرجح تحتي ، تهوي من أمام ، وتهوي من وراء ، وتصر الحبال والأسلاك الحديدية على الأوتاد بأصوات صماء ، حادة ، وتنقذف الأمواج التي تصطدم بجسم الغيز وتقفز إلى السطح ، ثم تعود في خرير مريع إلى النهر ، وأنا أتمسك بالحبال ، والأوتاد ، وعيوني

دامعة ، تعميها الريح والمطر ، والرؤية غائمة ، صعبة ، لا أستطيع معها تمييز ما حولي إلا بصعوبة بالغة .

« تبلّلت ثيابي كلها . التصق الشروال والقميص على جسمي ، وصارت الجاكيت حابكة على جذعي تقيّد حركتي ، والسكين في فمي ، أضغط عليها بقوة ، لأن فقدانها معناه فشل كل شيء ، ضياع المغامرة والتضحية دون فائدة . كان البرد شديداً ، ومع ذلك أحسست أنني أكاد أختنق . تمنيت لو كنت عارياً إلا من الثياب الداخلية ، لعل هذا الاختناق الذي استشعره يخف قليلاً . أصبحت لا أحس بالريح والمطر والتيار الخاطف كأشياء خارجة عني . كنت خلال الصراع ، ملتحماً بها ، وصارت بالنسبة إلي كائنات محسوسة ، أواجهها ، أمسكها ، أضغط عليها ، أقاومها ، وكما تغرز أظافرها في جسمي وروحي أغرز أظافري في جسمها وروحها . لم أفقد عقلي ، لكنني لم أكن أتصرف بهدي العقل . كانت غريزة البقاء ، التمسك بالحياة، الدفاع عن الوجود ، هي التي تملي علي تصرفاتي ، وخيّل إلي لوهلة أنني أقف على ظهر فرس شموس ، يسير خبباً تحتي ، وأنه إذا لم أغرز قدمي في ظهر الفرس ، فان وثباته المجنونة ستقتلني وتلقي بي أرضاً .

« أخيراً بلغت الحبل الذي يربط الماعون بالغيز . قدرت أن قطع الحبل سيحدث رجة عنيفة ، وأن الغيز سينتفض

وينمضي عنه مهما سمّرت رجليّ بالسطح ، وأن من الأفضل أن أجلس حول الوتد ، وأشبك ساقي من حوله ، وزيادة في الاحتياط أمسكت به باليد اليسرى ، وتناولت السكين من فمي باليمنى ، ورحت أقطع الحبل ، وفي أذنيّ تنصبّ الأصوات الآتية من البر ، الصادرة عن الجموع التي تزاحمت وهي تتابع حركاتي ، تشهق من خوف مرة ، وتهلل من حماسة أخرى ، وترقب باهتمام بالغ هذا الصراع الوحشي بين الانسان والطبيعة .

« كانت السكين حادة . كانت من نوع الكبّاس ، وهي سلاحي ورفيقي دائماً . وكنت أثق بها ، وأعرف أنها لا يمكن أن تخونني في وقت عصيب كهذا . لكن الحبل كان ثخيناً أيضاً ، وكان مبللاً ، وكنت أحاول قطعه بيد واحدة ، غير مستقرة ، غير مستحكمة ، وهي تتأرجح تبعاً لتأرجح الجسم مع الغيز ، ولا بد من تركيز قوتي ، وقطع الحبل نشراً ، وبصبر ، واصرار ، وفي موضع واحد، وهذا ما أدّى إلى تطاول الوقت ، وإلى نفاد صبر الذين على البر ، وإلى لهفة عبروا عنها بهتافات مدوية حين انقطع الحبل، وشال الغيز الى فوق ، وانحطّ بكل ثِقَلِهِ في الماء ، بينما طار الماعون كسهم ، مدفوعاً بالتيّار الجامح ، وراح يضطرب وهو يمضي مسرعاً ، مولولاً ، مخطوفاً حتى لا تدركه العين . أما أنا فقد رجّت الصدمة كل كياني . دخل بعضي ببعضي . جسمي تقوّس ، تضعضع ، وأمعائي

اضطربت ، وأصبت بدوار حال بيني وبين النهوض فوراً. تلبّثت في مكاني ، وأطبقت عيني لأستعيد وعيي ، واستجمع قواي وأحدد أين أنا وماذا حدث . لم أكن ، في تلك اللحظات أقدر الخطر المحيق بي . لم أعرف أن الصدمة العنيفة قد خلخلت ركائز الغيز ، وأنه أنفصل عن البر ، وصار بدوره فريسة للتيار ، وأن علي أن أسرع عدواً إلى البر ، وأن القي نفسي في الماء ، وأنه لم يبق لي من خيار سوى إنقاذ النفس ، أو الغرق مع الغيز الذي يقطر وراءه كل ما في المرفأ من سفن ومراكب ومواعين ، يربط بعضها بعضاً ، ويربطها الغيز إلى اليابسة .

« لا أدري لماذا اخترت البقاء على الغيز . كان ذلك جنوناً من غير شك ، لكنه لم يكن جنوناً يهدف إلى الشهرة. هذه ما خطرت في بالي . لم يكن لدي وقت للتفكير بها . كانت مصائر الناس متعلقة الآن برقبتي ، فإما أن أبقى على الغيز ، وأقوده من دفته ، في مغامرة لم يسبق أن قام بها إنسان، أو ألقي نفسي في الماء ، وأسبح مع التيار ، ومهما جرفني بعيداً سأجد وسيلة للخلاص ، عن طريق الانحراف البطيء إلى الضفة ، والتمسك بأية شجرة أو عائق يقوم عليها .

« لم أتردد . قررت البقاء . زحفت إلى الدفة . كان الغيز يتخبط وهو ينفصل عن البر أكثر فأكثر ، والأصوات ، من الضفة ، تتعالى ، وتأتيني هديراً لا أميز الكلمات فيه، والعاصفة تزأر ، والمطر يتساقط ، والتيار الغاضب يشد

بالغيز وينتزعه عنوة ، والاضطراب قد عم في الحوض ، وشرعت حبال السفن والمراكب تتراخى ، وكل شيء أصبح جاهزاً للضربة الأخيرة ، حين يقتلع الماء والريح آخر ما تبقى ، ونصبح ألعوبة في يد المجرى السيلي الهائج .

« أنا أتساءل : كيف لم ينخلع قلبي في تلك اللحظات الرهيبة ؟ ماذا كان شعور زوجتي وأولادي لو كانوا واقفين على البر مع الناس ؟ ماذا قال الجمهور وهو يشهد نزول الفاجعة بالغيز والسفن والمراكب ؟ وهل قدروا أنني سأبقى حياً ، أو أن أعجوبة ستقع وتنقذ كل شيء ؟ ربما تعطلت الرؤوس عن التفكير ، فالهياج طغى على كل شيء . حدث اضطراب عظيم . اندفع الناس إلى أمام ووراء ، وبعضهم خاف وأغمض عينيه ، وأصحاب السفن والمراكب أيقنوا بالكارثة ، ووحدي كنت أعمل ، وكان العمل يمتص خوفي ، ووحدي كنت أقامر ، وكانت حياتي مرمية على طاولة قمار غريبة، والحظ واحد على مليون ، والمقامر يعرف أنه ينتحر ، ويصر على الانتحار أو الكسب .

« انتزع التيار ، للمرة الثانية ، فريسته . كنت ممسكاً بالدفة . ولم يهادن المطر ، ولا هادنت الريح عيوني . حدث كل ذلك بسرعة خاطفة ، كومضة البرق . اندفع الغيز إلى أمام وأنا على متنه ، ودفعه التيار بأقصى عنفه ، وتهيأ لي أنني أطير ، وأنني أقف على مقدمة قطار يجري على الماء ،

ساحباً وراءه مقطورات لا عدّ لها ،وكان القطار يتخبط ، والمقطورات تتخبط، والانخطاف المجنون في أقصاه ، وأنا أطير أطير ، مبتعداً عن المرفأ ، مقذوفاً إلى أمام على طول مجرى النهر .

« ولم يجر وداع في هذه الرحلة الغريبة . لا أنا رفعت يدي ملوّحاً ، ولا هم لوّحوا بأيديهم من البر . كانت الدهشة القاتلة هي المسيطرة . كنت مسافراً مخطوفاً على متن بساط الريح . كنت كفتاة قوزاقية خطفها حبيبها وانطلق بها يسابق الريح . كنت أنا الريح ، وكانت الريح أنا ، وكان التيار الذي وحّدنا يمضي بنا بعيداً، والذين تراكضوا ، على طول الضفة ، مالبثوا أن توقفوا . كانوا عاجزين عن السباق ، وعاجزين عن اللحاق ، وعاجزين عن فعل أي شيء ،وكانوا تحت المطر والبرد ، وفي قلب العاصفة المدومة ، وكانت ثيابهم مبللة ، وشعورهم مبللة ، وعيونهم مغشاة بالماء ، وقد حاولوا ، بجهد كبير ، أن يفتحوها ، وأن ينظروا إلي ، لكنني كنت قد مضيت ، وكان التيار الخاطف ، الهادر ، يحملني بنزق جامح ليقذف بي على الضفة ، أو يرمي بي ، في مصطخب الأمواج ، إلى البحر .

« قالوا لي بعد ذلك إنهم رجعوا إلى المقهى خائبين . أكبروا رجولتي ، أكرموا فعلتي ، مجدوا شجاعتي ، وتكلموا ، في ذلك اليوم ، كثيراً عني ، لكنهم كانوا يائسين.

كان القنوط من الرحمة قد بلغ بهم حد الكفر . لقد ضاع تعب أعمارهم في لحظات : السفن ، والمراكب ،والمواعين ، والبضائع ، كلها أصبحت فريسة للنهر الجامح ، صارت جزءاً من الكارثة العامة التي شملت الزروع ، والبيوت والقرى والسدود وكل ما على مجرى النهر، من النبع إلى المصب . لقد دمرت العاصفة كل شيء ، وأغرقت كثيراً من الناس ، ومن كان على نخوة تأسف علي ، وقال في شيء من حزن صادق : « ضاع صالح ».

« أنا نفسي قلت ذلك أيضاً . في الوهلة الأولى كنت مصعوقاً . كنت مشتتاً ، كانت الضفتان ترتدّان إلى خلف ، بينما أمضي أنا إلى أمام، وكان زئير النهر قد أصم أذني ، وكانت الدنيا غائمة، مضبّة ، والرؤية متعذرة ، وكان المطر متواصلاً ، تسوطه الريح بقسوة ، وكنت مندفعاً ، محمولا، مسيّراً مع التيار ، وشيئاً فشيئاً أرتدّ الوعي إلي . تذكرت ما حدث . أدركت أن النهر سيقذف بي إلى البحر ، وأن الارتطام الشديد ، بين التيار والموج ، سيردمني ويطويني ، وأن النجاة صعبة ، بل مستحيلة ،وفكرت ،على نحو خاطف بعائلتي ، فاستيقظت حلاوة الروح في بدني . صارت الحياة، بكل معزّتها ، أمنية غالية ، ورحت أبحث عن سبيل للخلاص، واكتشفت ، كمن يفيق بعد صدمة ، أن الدفة بين يدي ، وأن بوسعي ، رغم الاندفاع ، أن أعارض التيار ،وأخادعه،

تساعدني في ذلك رحابة النهر ، والثقل الذي يشد الغيز من وراء ، كانت محاولة ، وكانت المحاولة الوحيدة الممكنة ، وكنت كالغريق الذي لا يخشى البلل ، وكان الكي آخر الدواء في هذه المعالجة ، وما كنت معرضاً للخسارة . لم يبق لدي ما أخسره . صارت مصاحبة سبلة الماء ، والانحراف جانبياً ، إلى الأماكن الأقل اهتياجاً في النهر ، وتخفيف الاندفاع تدريجياً ، هي الخطة التي تفتق عنها ذهني المكدود ،والقشة التي تعلقت بها أنا الغريق.

« وواتاني الحظ يا أولاد . الحظ يوءاتي دون موعد . في قلب المحنة يشرق أمل الخلاص . في الظلمة ينقدح ضوء. ووسط العاصفة تبدو بادرة الفرج . ولقد أحسست ، أنا البحار ، أن الجو بدأ يتغير ، وأن الله لم يتخلّ عني كلياً . تغيرت الريح ومالت ، تدريجياً ، إلى الهدوء . شعرت بذلك في وجهي ، في صدري ، في شفتي وعيوني ، وكذلك شعرت به من اندفاع الغيز الذي تحتي ، وزاد الأمل في نفسي . تعمقت ثقتي بالنجاة ، وحاولت ،بكل حدة بصري ، أن أميز ما على الضفتين من حولي ، عسى أن أعرف أين صرت ، والمسافة التي تفصلني عن المصب .

« كان الوقت ، الآن ، يعمل لصالحي . كلما تأخرت في الارتطام بالمصب الثائر ، كان ذلك لخيري ، وكنت قادراً ، الآن ، على تخفيف سرعة الاندفاع ، لكن القاطرة

إذا توقفت فجأة ، أدى التصادم والارتطام بين المقطورات إلى كارثة إضافية . وهذا شيء يعرفه السائقون وكل من عمل في النقل. ثم إنّ الريح اذا تغيّرت، فالاندفاع السيليّ مستمرّ، ولن يخف إلا بعد وقت ، وعلى هذا تابعت خطتي في الإنحراف التدريجي ، مع حركات بطيئة ولكن مستمرة في مسايرة التيار والذهاب يميناً ويساراً بين الضفتين ، أي أن سيري أصبح متعرجاً، واستمر كذلك،حتى شعرت بالسيطرة على الغيز ، وبلغت المصب في وقت متأخر من الليل .

« هنا كان النهر عريضاً . كان يسمح بالمناورة . وكانت حدة التيار قد انكسرت ، وكذلك انكسر عنفوان الموج ، وبذلك تفاديت التصادم ، عند لقاء النهر بالبحر ، وجاءت الرجة التي شعرت بها قوية ، لكنها سمحت ببقاء الغيز عائماً، راستطاع أن يسحب مقطوراته وراءه إلى البحر بسلام ، وكانت الخسارة بسيطة ، وبقيت حيث أنا ، فوق الخشب العائم إلى الصباح ، وكانت العاصفة قد سكنت ، وانتشر الخبر في الميناء ، ومنه إلى المرافىء النهرية ، ووصل أصحاب السفن والمراكب ، ونزلت الزوارق إلى البحر ، وانتهت مهمتي » .

— وبعد ذلك ؟ .

— تركت العمل في النهر .. عدت إلى البحر ..

— تترك النهر بعد هذه المعركة ، وبعد هذا الإنتصار ؟

— كان لابد من ترك النهر في يوم من الأيام . أنا بحّار ..

السفرة في البحر لها طعم آخر .. النزول إلى البحر له حلاوته، أنتم لا تقدرون الفرق مثلي .. كيف أشرحه لكم ؟

ـ لا بد أنك خفت النهر ؟ .

ـ جائز .. الأصح قرفته ، أنا لا أتمنى الموت في المياه العكرة ، الطينية .. هواي هنا في المياه الزرق . ثم ماهو النهر مقابل البحر ؟ مجرى من الماء ، ضيق ، قذر ، غدار ، إنه ثعلب لا أكثر .. أنا لا أحب الثعالب ، أما البحر فهو شيء آخر ، واسع ، صاف ، كبير ، ويمتد النظر فيه ويمتد، دون أن يصطدم بجدران ، تعطيه نفسك وتقول : خذني إلى بعيد ، إلى عالمك الذي حدوده عند الأفق ، وإلى قاعك المفروش بالمرجان ، وعرائسك التي سحرت سليمان ..

ـ لكنك ، بعد الحادثة ، كدت تصبح ريّساً !

ـ بحّار في البحر ، ولا ريّس في النهر ..

ـ لكنك لا تملك شيئاً .. حتى ولا فلوكة صيد ..

ـ لا يهم .. البحر كله ملكي ..

ـ البحر لا صاحب له ..

ـ ومن أجل ذلك كلنا أصحابه ..

ـ أنت تحلم ..

ـ ربما .. يكفي أن الأغوات لا سلطة لهم على البحر ..

ـ الأغوات متسلطون على البر ..

ـ ولهذا أكرههم ..

ـ وماذا يهمهم من كرهك ..؟ .

ـ لا شيء .. أعرف هذا .. لكنني أكرههم ، أكرههم كأنني أجير في أراضيهم .

ـ وهل يكرههم أجراؤهم مثلك ؟ .

ـ اذهبوا إلى البر تعرفوا .. لقد عشت هناك .. صحيح أنني كنت في النهر .. لكن البر كان على الضفتين ، وكنت أرى وأسمع .. آه كم رأيت من الفقر والظلم ..

ـ وفي البحر أيضاً فقر وظلم .. وفيه أجراء .. نحن مثلا .. ألا تعيش بيننا ؟ .

ـ نعم أعيش بينكم ، وأعرف حياتنا مثلكم ..لذلك أفكر .

ـ وما نفع التفكير ؟ .

ـ لا أدري ، ولكنني لا أستطيع إلا أن أفكر ..التفكير ضروري .

ـ لمن يقرأ ويكتب ؟ .

ـ للجميع ..

ـ بل لمن يقرأ ويكتب فقط .

ـ للجميع ماعدا الحيوانات ..

ـ ألا تفكر الحيوانات ؟ .

— على طريقتها ..

الذين يسمعون كانوا يقولون : « لو كان صالح يفك الحرف» . ويقول آخرون : « ليس في الحي كله من يفك الحرف .. لم تخلق المدارس لنا .. إنها لأولاد الأغوات ». ويقول صالح : « من الضروري أن تكون في الحي مدرسة.. أنا سأعلم أولادي .. أولادنا سيتعلمون . وأولادهم سيتعلمون أكثر .. كل يوم أفضل من الذي قبله .. الحرب لن تدوم إلى الأبد ».

ويعلق الحاضرون :

— من فمك لأبواب السماء .. وماذا ننتظر غير هذا ؟

هكذا كانت تومض ، فجأة ، جمرة أمل . كانت أحاديث صالح ، على بساطتها ، محراك نار . كانت النار موجودة ، مخبوءة في الصدور ، وكان يعرف ، كل مرة، كيف يفج الرماد عنها ، ولهذا كان محبوباً ، وكان الحي ، على فقره الشديد ، وربما لهذا السبب بالذات ، يحب الذين يقاومون بؤس الحياة ، بأي شكل كانت المقاومة ، ويمنح هؤلاء الرجال إعجابه وثقته .. ومع أن معايير الرجولة تختلف ، إلا أن معيارها المشترك ، في الدنيا كلها ، هي شجاعة القلب ، وفي الأحياء الفقيرة ، تتجلى هذه الشجاعة في موقفين : رد اعتداءات الأحياء الأخرى ، وعدم الخوف

من ابن الحكومة ، وكان صالح مبرزاً في كليهما ، فوق أنه أريحي ، وصاحب مروءة .

وكان في حياته ، في عمله ، كما في بيته ، بسيطاً وشهماً. وحين يأتي محتاج ، ويقصده في مساعدة ، يقدمها له عن طيب خاطر ، وإذا وصل الحي غريب ، ليس له مأوى ولا عمل ، استنهض الهمم في بناء كوخ له ، وفي تدبير عمل ما ، في الميناء ، في البحر ، في المدينة،أو سكة الحديد، وبسط عليه حمايته ، ريثما « ينبت الريش على جناحيه » كما كان يقول .

كانت في الحي امرأة تدعى « كاترين الحلوة ».كانت مهاجرة كالآخرين ، وزوجها الكهل لا عمل معروفاً له . أحياناً يبيع القهوة في الميناء ، وأخرى يبيع « السحلب» ، وثالثة يبقى عاطلاً ، وربما قصد الساحل فساعد الصيادين في سحب الشباك وتجفيرها ، مقابل بضع سمكات ،يبيعها أو يحملها إلى البيت .

ولم يكن تاريخ المرأة معروفاً . هي تصر على إغفال ماضيها في أي حديث . كل ما عرفه الناس عنها أنها من سورية ، ومن مدينة ساحلية ، وأن زوجها « حبّابا » كان يعتزم السفر إلى مرسين ، فأدركته في اللحظات الأخيرة ، وتزوجته ، وسافرت معه في إحدى الشختاتير ، في رحلة

مجهولة ، لا يملكان فيها سوى « زوادتهما » وقروش قليلة، على أمل أن يعملا في الغربة . ويعيشا بعيداً عن مدينتهما التي ضاقا بها لسببين مختلفين : بطالة الرجل وسمعة المرأة.

كانت كاترين حلوة كاسمها . ولعلها سميت حلوة لأنها كذلك ، وأن هذا لقبها لا كنيتها . وكان ظاهراً أن زواجها من « حبابا » ليس إلا ستاراً . فهي تصغره كثيراً. وهي تتميز عنه بملاحتها ، وقوة شخصيتها ، وبقدرتها على التعاطي مع الناس . وإثارة انتباههم ، وإغراء الرجال منهم ودفعهم إلى الاقتتال للفوز بها ، دون أن تخضع لواحد منهم ، ودون أن تقع في غرام أي منهم .

وحين وقعت عليها عين صالح حزوم غض الطرف هرباً من شراكها . كان الحي لا تنقصه النساء ، ولا المشاكل، وكانت المعارك بين البحارة وعمّال الميناء ، في سبيل هذه أو تلك من النساء ، كثيرة جداً ، وكان تردد رجال الأحياء الأخرى ، ذوي البأس والسطوة ، على بعض المشبوهات في الحي ، مثار نقمة رجاله ، برغم أنهم ، أو بعضهم ، يقوم بالفعل نفسه ، ويتردد على نساء في أحياء أخرى ، مما يؤدي إلى عداوات وثارات لا تنتهي .

ولقد تعوذ صالح من الفتنة الجديدة في الحي . كان يعرف ما سوف يجر جمال هذه المرأة من بلايا ، وكان يدرك

أن جمالها وحده ، في الوضع الزوجي الذي هي عليه ، لعنة عليها وعلى من يجاورها . وقد اشترط عليها ، حين طلبت مساعدته وحمايته ، أن تسلك سلوكاً لائقاً ، محتشماً، وأن تبتعد عن الغرباء ، وتلزم بيتها ، وتعيش مع زوجها ، كالآخرين ، في سترة وسلام . لكن كاترين لم تستطع ذلك. ربما أرادته ولم تبلغه ، وربما أرادته علناً ورفضته سراً ، فهي في نضج الأنوثة ، ومن النوع الراغب في الملذات الجنسية ، وصوتها يشي ، وبنبرة خاصة، بغلمتها ،وحركاتها موجهة إلى الآخر دائماً ، تلفته ، وتطمعه ، تستثيره ، فاذا اقترب ابتعدت ، وإذا نأى تقربت ، وإذا تجهم ابتسمت، وكانت ابتسامتها ملأى بوعود مغرية .

وكي تفتن هذا الحي ، ذا السمرة الأقرب إلى السواد، بفعل المنبت الشرقي ، والشمس ، والأعمال الشاقة ،يكفيها أن تكون بيضاء . كان البياض ، وسط هذا الدكن اللوني العام ، عنواناً عريضاً للجمال . فاذا أرادوا وصف فتاة بالحسن ، قالوا إنها « شقّ اللفت» ، وتأتي الجاذبية ، بعد ذلك ، في الدرجة الثانية ، وكان اللون الأبيض ، في نظرهم، هو لون السادة ، لون الأغنياء وأبناء الحكومة ، وكثيراً ما تفاخروا ، إذا هم رزقوا بطفل ، بزرقة عينيه ، لأن البياض مع زرقة العيون يكون ، ويقولون عن الطفل « فرنجي » ويتنبأون له بمستقبل سعيد ، تيمناً باختلاف اللون

فقط ، ويصبح أثيراً لدى والديه ، ومدللاً منهما على الدوام.

« كاترين الحلوة » كانت بيضاء ، بدرية ، ذات صباحة، وكان لها شعر أسود ، وعينان غامقتان ، وصدر كملعب الخيال ، وقوام فيه امتلاء ، وردفان مكوران ، يتوجان فخذين مستديرتين ، مسلوبتين ، فوق ساقين متسقتين ، في الطول ، مع فراعة الجسم . وكانت على بشاشة ، ولباقة، وزلاقة لسان ، وقد صار زوجها « حبابا » موضع حسد الرجال ، الذين يتخيلون ، في اندفاعات الاستثارة ، كيف يعانق هذا الجسم ، وكيف يستسلم الجسم لذراعيه ، وأية متعة أن يستطيع رؤيته عارياً ، وأية مفاتن يخفيها ، وكيف وبأي شكل يبيحها له ، وكان حبابا يعيش بين حسد الناس وازدرائهم ، بعضهم ينفس عليه متعته بزوجه ، وبعضهم يزدريه لاعتقاده أنه ليس إلا زوجاً صورياً ، ولا يعدو أن يكون خادماً محتقراً منها .

وكان صالح ، في سره ، يسأل الله أن يجنبه الانزلاق إلى غواية كاترين الحلوة . إنه يعرف قوته ، وسطوته ، بعد أن جبه التيار النهري بكل عنفه واندفاعه ، وتصدى للعاصفة بكل شدتها وجبروتها.وكان ، في كل ذلك ،واثقاً، لا مبالياً ، يمتلىء اعتداداً وزهواً ، لكنه أمام تيار الإغراء المنبعث من جسم كاترين الحلوة وعينيها وشفتيها وصوتها، كان يستشعر رهبة ناشئة عن الخوف من الضعف ، وكان

هذا الخوف يهدم المناعة الذاتية في نفسه ، فيقترب ، بفعل هذا التخلخل للتوازن الداخلي ، من السقوط ، فيقرر الهرب ، مسجلاً بذلك أولى علامات الهزيمة ، وأولى الخطى نحو الرجوع الذي سيصبح مع الأيام لا مفر منه .

وكانت هي ، من جهة أخرى ، تدفع بتيار عاصفتها الخاصة ضد هذا البحار المجرب ، موقنة أن تيارها ، لاتيار النهر ، ولا تيار البحر ، قادر أن يجرف مركبه إلى اللجة . لقد قررت أن تقنصه برغم ما عرفت من قدرته ، وتجربته ، في قنص النساء عن طريق الصد ، واللامبالاة ، والتمسك الصارم بسمعة الرجولة التي تقتضيه كفاحاً ضد عبث الشهوة الجسدية النابضة في عروقه . إنها ، بفضل خبرة طويلة ، كانت واثقة من جدارتها في اللعبة المشتركة للمرأة والرجل. كانت مصممة على غوايته ، وواثقة من النجاح فيها مع الأيام ، وقد أظهرت ، لذلك ، ضروباً من الحيل الصغيرة ، فبدت جادة ، منعزلة ، لا تزور ولا تزار ، ولا تستقبل إلا بعض جيرانها ، ولا تشاور إلا فيما يعرض لها أو لزوجها من شؤون . وأمام سلوكها هذا قرر أن يحترمها ، أن يقتل الشيطان في داخله ، أن يعاملها كأخته ، مبتعداً عنها ماأمكن ، ضارباً من هيبته ، من قوة شكيمته ، من كلامه الحسن عنها ، سياجاً حولها ، حتى لقد أقنع عائلته بها ، وحمل زوجته على زيارتها ، ورحب بها حين تزورهم ، وعرّف من في

الميناء بزوجها ، وروج لما يبيع من قهوة وسحلب ، وحمل اليها ، ببراءة ، بعض الهدايا ، من الأشياء التي كان يغنمها عن طريق البحر والعمل في البواخر . وزاد إعجاباً بها أنها كانت أنوفاً ، فمع معرفته بحاجتها ، لم تكن تشكو ، ولا تطمع ، ولا تقبل أي عرض منه للمساعدة ، وتفضل أن تبيع بعض حليها كي تنفق منها ، وتشتري بعض مايتطلب بيتها الصغير ، كوخها ، من أشياء ضرورية .

رغم هذا لم يصدق الناس ، خاصة الرجال ، أن علاقته بها على نحو كامل الاستقامة . كانوا يذكرونها أمامه باشتهاء ، يضحكون من زوجها ، يقولون إنه أجير لديها ، وأنه ينام على الحصير ، ولا يقترب من فراشها أبداً ، ويقسمون أن المرأة بهذا الصبا ، بهذه النضارة ، لابد لها من رجل ، وأن صالح رجلها ، زوجها غير الشرعي ، ويغبطونه ، ويحسدونه لذلك ، فينكر ما يسمع ، وينهي عن الاغتياب ، ويرد بلين حيناً ، وبعنف أخرى ، على التقولات ، ويقسم بشرفه أن ليس بينه وبينها ماحرمه الله . لكن الألسن كانت تزداد تطاولاً ، وما تنفك تنهش بها ، مما اضطره إلى التهديد بتأديب كل من يجروء على ذكرها بسوء ، أو يحاول التحرش بها .

وبينه وبين نفسه أخذ يضيق بهذا الوضع الذي وجد نفسه فيه . صارت متعبة له ، وصار وجودها شاغلا لتفكيره ومثاراً لاهتمامه ، وحين كان يضطر إلى قضاء الليل في الميناء ،

بسبب من شغل أو في جلسة مع الصحب ، كانت ترف على وجهه ظلال من شرود ، فهو يفكر فيها ، بالرغم عنه ، إذا ذكر جمالها ، وإذا عددت مفاتنها ، وهو يخشى أن يعتدي عليها أحد ، أو يحوم حولها أحد ، أو تكون في ضائقة لأي سبب ، ويجد نفسه ، هكذا ، مربوطاً بها ، مسؤولاً عنها ، معنياً بأمرها ، في الخير والشر .

جاءها يوماً متجهماً . كان قادراً أن ينأى عنها ، أن يدعها وشأنها ، أن يرفع حمايته لها ، أن يقطع مابينه وبينها من صلات معنوية ، بحكم وجودهما في حي واحد ، وأن يدير ظهره مرة إلى الأبد . وقد اعتزم ذلك أكثر من مرة، وتردد فيه أكثر من مرة ، وصارت رؤيتها كل يوم ، كل يومين ، في الأسبوع مرة ، حاجة ضرورية له ، نداء داخلياً لا يعترف به ، ويريد أن يخدع نفسه عنه ، لكنه يلبيه دون وعي ، وباندفاع من رغبة داخلية تلح عليه في أن يمر عليها ويفتقدها ، ويحمل اليها شيئاً مما في يده .

وخلال ذلك تابعت هي نسج الشرنقة التي ستحتويهما معاً . كانت في البدء محتشمة بوجوده ، ملبساً وحديثاً ، حركة وإيماءة ، وكانت تقدم له القهوة فقط ، وتحرص على أن يكون زوجها موجوداً . ثم شرعت تتساهل ، بمقادير معينة ، تزداد كل يوم . طفق الصدر يتعرى ، والفخذ الحليبي ، المورد ، يبين ، والركبة الملأى بالاثارة تتبدى،

وحركة الساقين ، في رفع إحداهما على الأخرى ، دون ضرورة ، دون وقاية ، تزداد ، والكلمات تتدرج في الإفصاح عن معنى الجنس ، من خلال نكتة ، كلمة شاردة، ملاحظة عابرة ، مرفقة بضحكة أو غمزة ، أو استطراف لحديث ، أو اعجاب بقصة . كانت تفعل كل ذلك انسجاماً مع طبيعتها تارة ، وبقصد الإثارة طوراً . وصالح يرتعش، يضطرب ، يحدق ، يغض النظر ، يتقبل ، ينكر ، لكنه يظل معطياً نفسه للجلسة، فاذا بكّته ضميره ، على استغلال حاجة المرأة اليه ، خرج وهو يؤكد لنفسه أنه لن يعود ، ثم لا يلبث أن يعود ، وأن يخرج تارة أخرى ، وأن يتقبل الندم، ويتجاوزه ، ويغرق أكثر فأكثر في بحر هواها، مساقاً مع التيار إلى اللجة البعيدة .

وكان يتساءل ، في ذات نفسه، أهي نزوة جنسية ، لا تلبث أن تتطامن باللقاء ، بالوصال ، بالارتواء ، أم حب يتملكه ويسطو على قلبه وعواطفه ، ويخضعه يوماً بعد آخر لعبودية لا يطيقها ، وقد رفضها وانتصر عليها طوال عمره؟ ولم يكن الجواب سهلا. كان طرح السؤال خطأ . كان الفصل بين الجنس والحب خطأ ، وما كان في وسعه أن يتبين خطأه، وكان العقل ، المستعد للتبرير، يصور له أن العلاقة لن تتخطى دائرة الجنس ، وأنه حين يعرفها — إذا صار وعرفها — سيسأمها ، وبعد أن يشبع الجوع الصارخ في دمه ، سيتوصل

إلى شبع يساعده على الصد ، وعلى الجفاء والابتعاد، استناداً إلى طبعه الشموس ، وإلى ملله السريع ، وإلى حبه للبحر الذي يعلو على كل حب آخر .

ذات مساء قررت «كاترين الحلوة» أن تضرب ضربتها القاضية . أدركت ، من خبرتها كامرأة عرفت كثيراً من الرجال ، أن رجلها الجديد ، المعتدّ بنفسه ، قد صار قابلاً لممارسة اللعبة ، معداً لتقبل الضربة ، مهيأ نفسياً وجسدياً للسقوط ، كثمرة ناضجة ، في حرجها ، ففتحته على سعته، وانتظرت تحت شجرة الخير والشر سقوط التفاحة المحرمة، بعد أن فحّت ، كأفعى ، في أذنيه بكل الكلمات المنغومة، المهموسة ، المثيرة للاعصاب ، حتى أنها اشترطت ، بينها وبين نفسها ، أنْ تبتعد عنه ، إذا خابت فراستها في أنه أصبح كتلة عجينية مطاوعة في يدها .

حواء ! ياحواء ! أيتها الغانية التي تحترق الكف على خصرها من فرط اضطرام الشهوة في ذاتها ، أنت الجريئة بدءاً وخاتمة ، أنت المقدامة ، أزلا وأبداً ، أنت العناصر الأربعة الخالدة التي يتألف منها كوننا الفاني ، وأنت التي ، في ملاغمها ، عسل الحياة وسمّها ، وفي شفتيها رضاب اللذة ورحيق الموت ، وفي نهديها رضاع الحق والباطل ، أنت التي تصرع من صارع الدنيا ، من قاوم تيار الأنهار والبحار ، من هد الجبال ، وانهد أمامك ياأقوى من الجبال،

وأقدر ، بفتنتها ، على تطويع الرجال ، من كل ماعرفه الرجال ، من محن وشدائد !

صرفت زوجها . ماكان يهمها زوجها . كانت تريده، في سعار الغلمة ، أن يكون حاضراً ، فهذا أدعى لاهتياجها. كان شيئاً ولا شيء ، وكانت قادرة ، لولا الطرف الآخر ، أن تأمره بأن يمد فراشها ،وأن يخلع عنها ملابسها ، وأن يقدمها للرجل ، وأن يرى بعينيه ، مايفعله بها الرجل ،وما تفعله هي بالرجل . كانت هذا اليوم ، كتلة من سعير ، تتلظى كأن موقداً في ذاتها ، وتتشهى كأن شبق العالم قد انعقد في أهدابها ، وتمطى في ذراعيها ، وتركز في شفتيها، وكانت عيونها ، منذ الصباح ، يترقرق فيهما ماء زجاجي يلتمع كما في عيني مجنون ، أو في عين مخلوق قارب اختلاجة الإنتهاء .

وجاء صالح ليلاً . جاء متأخراً خلاف عادته ، كأنما يستخفي عن العيون أن تراه يدخل بيتها في وقت مريب كهذا . ولم يقل لعائلته أين هو . كان يغيب ليلا دون أن يقول أين هو . ولا يفعل ذلك استبداداً ، غير أن زوجته اعتادت ألا تسأله ، فهو في الميناء نهاراً وليلاً ، وهو يخرج، إذا خرج ، لشغل أو لقاء البحارة والرياس . وليس لها ، في حال كهذه ، أن تحاسبه على خروج أو دخول . كانت هيبته تفرض نفسها هنا أيضاً ، وهذه الهيبة تمتلك الزوجة

امتلاكاً ، فهو الرجل ، وهو البحار ، وهو من قام بمعجزة النهر ، وكل هذه المعاني ، إضافة إلى سمعته الطيبة ،واعتباره الكبير في الحي والميناء ، أضفت عليه ، في نظر زوجه وأولاده ، هالة من بطولة ترتفع إلى منزلة التكريم غير المحدود ، والتوقير الذي يجعله فوق اللغو البيتي ، وفوق اللهو أو العبث ، أو الاستجوابات المعتادة الموجهة إلى رب أسرة رخو المفاصل ، مصقع الهمة .

ولقد حافظ ، في صلاته مع كاترين الحلوة ، على سماته الاعتبارية هذه . أراد ، في الظن ، أن يمتلكها بشمائله قبل امتلاكها بفحولته . وفيما كانت تراوده عن نفسه على طريقتها، كان يراودها ، هو أيضاً ، على طريقته . كان يروضها، رويداً ، رويداً ،ويطامن من نزعتها القلّبية ، ويحد من ميلها إلى السيطرة ، والى الفجور بالرجل ، كي يغدو ، من بعد، أسير متعتها الممنوحة بسخاء في البدء ، يتناقص حين تبدأ لعبة الرفض ، والقنص للآخر ، من جديد ، حيث لا تنفع شفاعة ولا ضراعة الذي كان عشيقها يوماً .

كان يلبس شروالاً أسود ، فوقه زنار حريري ،تحت سترة جوخية ، وقميصه « التفتا » بغير ياقة وطربوشه الخمري يميل إلى الجهة اليمنى من صفحة خده ، وفي وسطه ، كما اعتاد في الليالي ، مسدسه ، وبيده خيزرانة لدنة ، مجربة وموثوقة . كل شيء في جسده جاهز لمعركة شبقة مع أنثى ،

وكل شيء في عينيه ويديه جاهز لمعركة مع أيما رجل يعترض سبيله ، وقلبه الشجاع ، وحده ، كان ضمانته في النصر ، فهو نادراً ماوقع فريسة الحذر ، أو تحسبات الموت والسجن ، وكان الوثوق بالله ، والاطمئنان إلى النصيب يبعثان فيه استهانة غير محدودة بالشدائد .

في طريقه ابتاع بعض الفاكهة وبعض الموالح . كان لا يأتي فارغ اليد ، لا يصطنع الكرم ، لكنه يفرح به ، يرتعش له ، يبعثه رسولاً بين يديه حيثما اتجه . ولم يكن يتحسر لأن مامعه قليل . من هذا القليل ينفق بغير تردد ، وفي تعويض ما أنفق يعتمد على دخله المؤكد ، فهو مطلوب في البحر ، مطلوب في النهر ، ومطلوب في الميناء ،والطلب عليه لا يقابله تهالك من جانبه . يظل مترفعاً ، رافضاً استغلال المودات والطلبات ، عاملاً بجد حين يباشر العمل ، منجزاً أي مهمة أوكلت اليه بوجدان .

وصاحت «كاترين الحلوة» حين رأته يدخل :

– جئت ؟؛ .

وقال :

– حين أعد أفي .. كلمتي كلمة .

– لو لم تأت لذهبت اليك ..

– هل نفد صبرك ؟ .

ـ جداً ...

ـ كنت أظنك مكتفية ..

ـ من غيرك نعم . بل ومستغنية .. أمّا منك !

ـ من يسمعك يحسبك مشتاقة جداً .. مع أنني كنت عندك منذ أيام .

سأل عتاب حقيقي من نظرتها . قالت في نفسها «يتصنع البرودة . يلعب لعبتي نفسها . نحن نتبادل الأدوار . أتراه لا يعرف ، أم يتجاهل متعمداً» ؟.

ـ ليس الشوق وحده .. الحماية .. حين تكون هنا أشعر باطمئنان غريب .. أحس كأنني ملكت الدنيا .

ـ أنا لست الدنيا على كل حال ..

ـ أنت بالدنيا .. أقعد وتخفف ، الليل طويل .

ـ وأين حبابا ..

ـ أقنعته بالصيد ..

ـ أقنعته أم أرغمته ؟ .

ـ الحال واحد .. حين تصطاد الزوجة ، لا يجوز أن يبقى الرجل عاطلاً .

ـ وماذا ستصطادين ..؟ .

وقالت وهي تنظر إلى مكان معين في جسده :

ـ فرخاً كبيراً من البوري ..

ارتعش للجواب . كان صريحاً لا يصدر إلا عن امرأة اعتادت صراحة الكلمات . إنه لا ينكر عري الألفاظ . لكن التورية تثيره . وقال في نفسه : « هذه امرأة مجربة بأكثر مما قدرت .. احتشامها كان تظاهراً .. إنها شبقة كسمكة في الربيع ، وقد صبرت طويلاً ، وفي ليلة تريد التعويض . قد تأكلني .. يجب أن أكون قوياً حتى لا تأكلني ».

وقال لها :

ـ لا تخيفيني .. ترفّقي بي ، الشجاعة في النهر غير الشجاعة في الفراش .

ـ النهر واحد والبحّار واحد .

ـ أنت تعرفين أن هذا غير صحيح .. المرأة غير النهر .. إنها أقوى من النهر ..

ضحكت فرحة :

ـ سأكون معك كالساقية ..

ـ بعض الأطفال يغرقون في السواقي أيضاً .

ـ في ساقيتي ستكون آمناً ياطفلي العزيز .. أيها القهرمان.

ـ إذا أحسنّا السباحة ..

ـ أعطيك نيشاناً منذ الآن ..

ـ كم نيشاناً منحت في حياتك ؟

ـ ليس كثيراً .. نياشيني لاتمنح بسهولة .. الفرسان فقط يستحقونها ..

قالتها وجلست في حضنه ..

قال :

– أنا في هذا الميدان راجل ..

– لا بأس .. علي أن أكون الفارسة . أنت الحصان وأنا الخيّال ..

– ولا تخافين السقوط ؟ .

– أحياناً أرغب في السقوط .. أتخلى لك عن دوري ، تصير أنت خيّالا ..

– ويلي منك ..

– ويلي أنا منك .. هيا قبّلني .. لننه الكلام .. أضغط على جسمي .. أكثر .. أريد أكثر .. دعني اسمع صوت عظامي .

قبّلها في فمها . سُرّ أنّ رائحة طيبة كانت في فمها . لف ذراعيه حول خصرها وضغط . شد بكل قوته ، وحين تفلتت من ذراعيه ووقفت كان قبالتها . احتضنها من جديد. يداه تشابكتا وراء ظهرها ، ومن جديد ضغط بقوة ، وهو يرفعها إلى أعلى . طقطقت عظامها كما تمنت ، وند عنها صوت مبحوح : « آه ..» والتمعت عيناها ، فتراخت على صدره ، وأطبقت شفتيها على شفتيه في قبلة نهمة ، متوحشة ، طويلة طويلة ..

شربا بعد ذلك . كان قادراً على الشرب وكانت مثله ، غير أنها ، لسبب فيزيولوجي . كانت تهتاج ما أن تشرب . هي في هذا تشبه بعض النساء ، لكنها تزيد عنهن في أنها ، لفرط اهتياجها ، تستسلم إلى الفعل بشكل قسري وسريع . كانت تقول : « إذا أردت من امرأة متمردة أن تستسلم ، فاسقها شيئاً من الخمر ». وفي هذه النصيحة تصدر عن تجربتها الشخصية ، لذلك امتنعت ، في المرات السابقة من لقائها بصالح عن الشراب . وقد أحبها صالح ، في سكرها ، حباً مضاعفاً ، ولو كانت امرأة أخرى ، أقل إيثاراً لديه ، لزاد لها في الشرب ، حتى إذا فقدت سيطرتها على نفسها ، رأى إلى تصرفاتها ، وسمع كلماتها ، ووقف على حقيقتها الداخلية ، التي لا تظهر ما لم تتصدع القشرة الدماغية بتأثير الكحول .

لقد صيّرتها الخمرة عجينة مطواعة بين يديه . جعلت تتصرف على رسلها . القيد العقلي لإنضباط الفعل فلك عن حركاتها ، انطلقت تضحك ، تتكلم ، تغني ، ترقص ، وهو ، من مجلسه ، يتأملها ، يسمعها ، يتقبل عطاياها الجنسية مسروراً ، لكنها ، الآن ، صارت أعنف . برقت عيناها ، واحمر خداها ، وتهدل شعرها الأسود على كتفيها الأبيضين العاجيين . وانطلق لسانها بكل ما تعرفه من كلمات داعرة ، مثيرة . وحين اقتربت منه ، في قميصها الداخلي

وسروالها فقط ، أمسك بالقميص من ياقته عند النحر ، ومزقه حتى نهايته السفلى . كانت الخمرة قد أخرجته عن طوره هو الآخر ، وكانت حركاتها وكلماتها ، في بحة النداء الجنسي ، في الهمهمة قبل الاستسلام ، في النار التي تنفثها مسامها ، قد هيجته إلى درجة الاغتلام . ومن بين قطعتي القميص الممزق ، نفر نهداها وتربربا ، في اهتزازات خفيفة ، وانفرجا ، أحدهما عن الآخر ، وتبدت الحلمتان دائرتين ورديتين ، وسط كل منهما كرزة صغيرة لحمية ، فتذكر عندئذ أغنية قديمة « ياعمي خدني معك ، عالشام لأتفرج ، وانزل لسوق الحرير ، واشتري واتدرج ، كشفت على صدرها وقالت تعال اتفرج ، دكاني تاجر فتح وبضاعة فرنجية » وقال في نفسه : « ياللبضاعة الفرنجية » ! .

ونهض ، وتلقاهما بيدين يختلج جلدهما انفعالاً . احتواهما في راحتيه برفق ، داعبهما ، قبلهما ، قبل الحلمتين ، والدائرتين ، والجذرين النابقين في صدر أبيض ، ممتلىء ، وقبل المجرى الحليبي بين النهدين ، وأراد أن يعض ، فتح فمه كي يعض ، لكنه لم يفعل ، مست أسنانه لحم النهدين ولم يفعل . بذل جهداً إرادياً كي لا يضغط على النهدين فيفقشهما . وبذل جهداً إرادياً كي لا يفتح فاه ويأكلهما ، لشعوره ، تلك اللحظات ، أنه انقلب إلى وحش ، وأن لحم المرأة كلحم السمك ، يمكن أن يؤكل نيئاً .

وسقط بصره إلى أدنى . أحس أنه جن حين سقط بصره إلى أدنى . كان البطن الذي لم تحمل صاحبته ولم تلد ، يحافظ على صلابته ، على استدارته ، مع تجويفتين بيكاريتين عند الخصرين ، وطعجة صغيرة في موضع السرة ، وانتفاخ لحمي قليل عند اتصاله بالحوض ، وكان نضراً ، شهياً ، فركع ، واحتضنه ، وقبل السرة ، ودفن رأسه تحتها ، عند تاجي الفخذين ، فيما هي تضحك ، وتلعب بشعره ، وتدلله بكلمات امرأة ناضجة ، تعرف أن تجعل من الرجل شريكاً كاملاً في متعتها الكاملة .

وعندما انحدرت كفاه عن الحقوين ، أحس بهما ترتفعان ، تتسلقان رابيتين مكينتين من لحم ، وتهدهدان بملمس حرير هندي ، وتحومان حول كرتين حارتين ، مربربتين ، واستشعر أنه يمتلك كنزاً ثميناً ، رصاح وهو يرفع عينيه اليها :

— آه .. لا تقتليني ..

وقالت متشهية :

— لا بد من القتل .. إنه القتل الحلال ..

واحتضنته وسارت به إلى الفراش . وقال في نفسه « من الخير أننا لسنا على سرير ». ذلك أنها كانت بطرة ، ولوهلة ، رغبت في دور الرجل ، وانطرح هو أرضاً ، محدقاً في عينيها المخيفتين ، اللتين انحولتا ، وفي فمها المفتوح ،

الموشك على النهش ، وبعد أن أولجت الرجل فيها ، شرعت تخب ، في حركات متسقة ، بين ارتفاع وانخفاض ، وهي تصعد آهات متتابعة ، وهو يواكبها ، تاركاً القياد لها ، مستشعراً نشوة غريبة ، لا من ذاته فقط ، بل من احساسه أنه يرضيها ، وأن هذه المرأة المسعورة التي تسحق من يضاجعها ، ستنسحق وتستسلم مهما كانت عصية . وحين ارتمت على صدره ، صائحة : « خذني » .. انسحب من تحتها ، وقلبها بعنف اغتصابي ، وولجها بقوة ، وغابا ، عندئذ ، في بحران من الانفعال الذي تواتر ، وتصاعد ، وتصاعد ، وبلغ الذروة ، وانطفأ ، رويداً ، رويداً، رويداً.

منذئذ ، صار لصالح ، في الدفاع عن الحي ، سببان : حمايته من هجمات الأعداء ، والاحتفاظ بكاترين الحلوة عشيقة غير علنية ، حبيبة جنسية بحتة ، امرأة تفيض غوايتها عن الدائرة التي ظن ، للوهلة الأولى ، أنها ستبقى ضمنها. وكان يتساءل ، في ذات نفسه : « هل أحبها »؟ ويرفض أن يعترف . يقول إنه تجاوز ، بحكم السن ، مرحلة الحب ، يذكر ما يسمع عن « جهلة الأربعين » ويؤكد ، في نوع من وفاء لرجولته ، أنه لن يقع في هذا الجهل . يكبر ذلك عليه . يعتبره عيباً ، ويصر على أنه يشتهيها ، وأن من حقه ، أن يشتهي ، وأن يشبع شهوته مادام قادراً ، في فحولته العارمة ، أن يفي بواجباته الزوجية ويزيد . وفي خداع مع

النفس ، في وهم الشهوة العابرة لا الحب المقيم ، كان يستسلم للاثارة المنبعثة من كل كيان المرأة اللعوب ، التي وحدها كانت تعرف ، أن صالح صار لها ، وأنه حبيبها لا عشيقها، وتعرف أن العشق أكبر من الحب ، إنه مغامرة الجسد والروح ، في الاندفاع الذي لا يعرف الارتداد ، قبل أن يمل أحدهما الآخر .

لقد قطع عهداً على نفسه أن يبقى لزوجته . كان يحسب ، في زهو الإرادة ، أنه قادر على الاحتفاظ بالمعزة الزوجية، والعشق الطارىء،وأن الحد الفاصل بينهما لن يسمح بتجاوزه أبداً . ولعله ، في طفرة وجدانية ، للاقتناع الذاتي بصحة ما قرر ، أفاض على زوجه وأولاده حباً وبراً . كان ينشد بذلك ، راحة الضمير ، وحين خيل اليه أنه بلغها ، تخفّف من التأنيب الداخلي ، وانصرف إلى ترتيب حياة ذات وجهين : علني ، معروف ، محتوم ، وسرّي ، داعر ، ملتهب ، ينسى فيه ، ولأجله ، كل اعتبار للعمر ، ويقدم، كأي بحّار مع أية امرأة ، على ممارسة لذة محرمة شبقة تستنزف بعض دخله وبعض قواه .

شيء واحد وفاه حقه : رجولته . كانت الكلمة، دون لفظتها ، دوياً كبيراً في أذنيه وحواسه . إن تقاليد الحياة، تقاليد الحي ، تقاليد البحر ، كلها ذات احترام بالغ وعميق في ذاته . ويتمثل ذلك ، أكثر من أي شيء آخر ، باعتداد

الرجولة التي يحب ، في اعتباراتها لديه ، أن يدع كاترين الحلوة ، وهي تحت فخذه ، ويعطي نفسه للموت في أية لحظة ، دفاعاً عن العرض ، عن البحر ، عن الحي الذي هو عرضة لاعتداءات متواصلة ، مصدرها جهالة أناس من الطبقة نفسها ، من الوضع الاجتماعي البائس نفسه ، من المشارب والأهواء نفسها ، والخلاف الوحيد بينهما ، الذي يؤججه الأغوات ، وجماعة الحكومة ، أن هذا حي الغرباء وأن تلك أحياء المقيمين ، أهل البلد ، الذين لايريدون « نَـوَراً » في طرف مدينتهم ، ولا في مينائهم .

كان حيهم يسمى حي « الشرادق »(١) وما كانت كلمة غجر معروفة أو متداولة ، هذه الكلمة الرومانتيكية ذات الرنين كانت أبعد عن تصوراتهم . هم ، في نظر المدينة « نَـوَر » والكلمة ، في ذاتها ،سبة متعارف عليها من الطرفين. وفي ضغينة غير مبررة ، من الذين يطلقون هذه الصفة ، ومن الذين يرفضونها ، كان العداء مستحكماً ، وكان الحق ، دائماً ، إلى جانب أبناء حي الشرادق ، فهم غرباء ، وهم فقراء ، ومعتدى عليهم . لكن سكان المدينة يقولون إن الحق معهم ، فعلى هؤلاء الغرباء ، الذين جاءوا للمنافسة في العمل ، في الرزق ، والذين يمتهنون جميع المهن ، وبينهم

(١) « شردق » كلمة تركية تعني الكوخ من خشب او تنك .

اللصوص والقتلة والقوادون ، أن يتركوا المدينة ويعودوا من حيث جاءوا .

هكذا وجد أبناء حي « الشرادق » أنفسهم في وضع الدفاع عن النفس ، عن الوجود ، عن العمل ، وعن الشرف. وكان سبب آخر يزكي حماستهم للتكتل ، للاتحاد ، للاستماتة في المعارك ، هو أنهم عرب . من أبناء الأناضول ، ومن أبناء اسكندرونة ، واللاذقية ، والسويدية ، وبعض المدن السورية . وكان الآخرون المعتدون ، غالباً من الأتراك ، وكان الأغوات من الأتراك ، وكانوا يقولون عن الرجل من حي « الشرادق» (عرب أوغلي)— ابن عرب — وهذا بذاته سبة ، بينما الانتساب إلى العروبة ، في نظر الغرباء اعتزاز . كانوا يقولون: «نحن معروفون . أصلنا وفصلنا ووطننا وتاريخنا معروف ، كذلك ديننا ولغتنا . إننا أكثر مدنية منهم ونحن من مدن أرقى ، ليس في بر الأناضول ما يشبهها جمالا وتقاليد ونخوة ورجولة ».

وكان صالح حزوم ، على أميته ، من بين القلة القادرة على بلورة هذه المعاني ، اعتزازه العربي لاحد له ، وأفظع إهانة توجه اليه أن يعيره أحد في عروبته . وقد اشتهر بذلك حين عمل في النهر ، وحين عمل في البحر ، وكان هذا مبعث حب عرب الأناضول له،من البحارة الذين التقاهم، والذين عمل معهم ، أو من الناس العاديين الذين صادفهم

في المرافىء . وفي المدينة وفي الميناء ، أو الذين جاءوا وسكنوا حي « الشرادق » ، وكانوا أشداء في المعارك ، ومن المبرزين فيها ، وكذلك من ضحاياها .

ومع أن الأسباب الظاهرة لهذه المعارك تعود إلى العمل والسكن أو النساء ، إلا أن ثمة ما هو أعمق . كانت معارك قومية ، تحررية ، طبقية بمعنى ما ، لكن الذين يخوضونها لا يعرفون معانيها ، لا يترجمونها ، لا يفلسفونها ، يحسونها إحساساً ، فهم يكرهون الأتراك ، والجيش التركي ، ويهربون من الخدمة فيه ، ويلجأون إلى الحي والميناء ، وينظرون إلى العثمانيين كطغاة ، وإلى الأغوات كسادة ، ويستشعرون الغبن ، وعدم المساواة ، ويجدون أن من حقهم ، ماداموا يدفعون الضرائب ، ويخدمون في الجيش ، ويساقون إلى السخرة ، أن يسكنوا حيث شاءوا ، وأن يكون لهم عمل وبيت وحماية من السلطة .

وذات يوم ، على ظهر إحدى البواخر ، جرت معركة رهيبة . متعهد العمل ، التركي ، كان يكره العرب . وكان يستغل عماله ويستبد بهم . وقد ضاق صدر العمال من ظلمه وقسوته ، ومن تحيزه وبذاءة لسانه . وصادف أن أحد العمال أصيب بعطل في رجله ، وأصبح بحاجة إلى إسعاف وراحة ، إلا أن المتعهد (رأفت أفندي) رفض ذلك ، وأرغمه على مواصلة الشغل ، أو التسريح . ولما احتج العامل ،

انتهره ، وهدده بالضرب ، فتدخل عامل آخر من زملائه ، وعندئذ تجمع أزلام المتعهد من الأتراك ، وراحوا يشتمون العمال العرب ، وصاح المتعهد في وجه العامل الذي ناصر زميله : « بس » — قذر — وهجم عليه بالعصا . كان العامل « مصطفى » من أبناء حي « الشرادق » ومن الفتيان الأشداء ، فسحب « شرشوره »(١) الحديدي ، وانهال بضربة أصابت كتف « رأفت أفندي» . وبدأت المعركة التي تراكض على ضجيجها كل من في العنابر من عمال . كانت « الشراشير» أسلحتهم . كانت مدى معقوفة ، وكانوا من البارعين في استعمالها ، وكان ثمة ثأر في الأعماق ، جاش واضطرب وتدفع غضباً . من هو القذر في الناس ولماذا ؟ إنهم عمال ، وزملاء ، وأخوة . لكن الوعي كان ينقصهم . أتراك ضد عرب . هكذا العصبية العرقية ، التي أجج العثمانيون نارها ، فرقت بين شغيلة كان من واجبهم أن يكونوا في صف واحد . ولم يكن العمال العرب ، من جهتهم ، يفهمون الموقف إلا أنه عدوان عليهم لأنهم عرب ، فصارت العروبة ، في وقت مبكر ، يقظة قومية ، وفي سبيلها سقط ، ذلك اليوم ، قتلى وجرحى من الطرفين . وككل أقلية ، مضطهدة ، مستثمرة ، مهانة ، كانت الوحدة سلاحاً . وكان التراص ،

---

(١) الشرشور اداة حديـــدية معقوفة على شكل اشارة استفهام لرفع الاكياس على الظهور .

والاستبسال . والاندفاع المستقتل قوة مضافة ، فانتصر العمال العرب ، والقوا المتعهد في البحر ، ومزقوا أكياس الحبوب ، وقلبوا الباخرة على رؤوس من فيها من الأتراك، حتى وصلت الشرطة ، وفرقت المتعاركين بالرصاص ، واقتادت مصطفى وبعضاً من زملائه إلى السجن .

في المساء تجددت المعركة . كان الخبر قد بلغ أحياء المدينة ، فتجمع الأتراك ، تشجعهم السلطة خفية ، للهجوم على حي « الشرادق » . ازاء ذلك استنفر الحي ابناءه ، ووقف صالح حزوم في المقدمة ، قائداً شعبياً ، اعتاد أن يضع جسده ترساً دون حيه الذي هو أسرته ومدينته ووطنه الصغير ، وكما في الصباح ، سقط جرحى من المهاجمين والمدافعين ، وسيق صالح وبعض أبناء الحي إلى السجن ، وانفسح المجال ، في غيابهم ، لتسلط بعض رجال الأحياء التركية على حي « الشرداق » ، وكانت « كاترين الحلوة» بعد ذلك ، سبباً في تردد هؤلاء الرجال على الحي .

الوقت منتصف الليل . في الشارع ظلمة وبرد ومطر . الشتاء لما يول . إنه شباط ، وفي السماء غيوم ، تحجب النجوم والرؤية . وكان رجل يخب بين الأكواخ . كان الوحل كثيراً، وكان معيقاً للسير ، والكلاب تنبح ، وأشباح تظهر وتتوارى، والرجل يتقدم غير مبال . إنه هادىء ، تهتز الية شرواله وراءه ، وتنسحب خيزرانته على الوحل ، أو تقوم مقام

العصا عند الحفر وأمكنة تجميع المياه . إنه صالح حزوم . لقد خرج اليوم من السجن . قضى عاماً اغير ما سبب . كان في وضع الدفاع عن النفس . كان الحي يدافع عن نفسه ضد معتدين هاجموه بكل ما يملكون من أسلحة ، وبالعصي ، والسكاكين ، وأشعلوا النار في الأكواخ ، واعتدوا على السكان ، لكنهم كانوا أتراكاً ، وكان المعتدى عليهم من العرب ، وهكذا صدرت الأحكام ، وكان نصيب صالح عاماً منها .

في السجن بلغه كل شيء . لم تكن كاترين الحلوة وفية . ربما كانت مضطرة لكنها لم تكن وفية . كان في دمها دعر عنيف ، وكان في وجهها نداء إلى الدعر ، وفي ضحكتها اغراء به ، فشجعت الغرباء على التردد على الحي . وكان جزاؤها ، في حال كهذه ، الموت . غير أن صالح قال في نفسه « لن ألوث يدي بدم قذر ». إنه يحبها ، ويشتهيها ، لكنه يحب رجولته ، حيه ، أكثر ، وفي الاختيار يعرف كيف يحزم أمره ويختار . ولم يكن هذا القرار ابن يومه . كان ابن شهور . لقد فكر فيها وهو وراء القضبان ،وحين جاءت لزيارته رفض مقابلتها . ثم نهاها عن الحضور ، وعن ذكر اسمه ، وأبلغها ذلك مع أحد رجال الحي ، وشدد في ردعه ، حتى أن الرجل الذي أبلغها هددها إذا هي عصت .

كانت قسوة الحياة تنبت قسوة في المشاعر . البحر ، هنا ، يخيّم بعاداته . إن فيه صفاء ، وفيه أوشابا ، وهو ، في تموجه الأبدي ، يعرف كيف يلفظ الأوشاب ويتطهر. وقال صالح في نبرة حسم ، دون صوت : « لن أخون نفسي . نحن هنا غرباء . اليوم في هذا المكان وغداً نرحل إلى غيره ، أو نعود إلى الوطن . إنها الحياة . وفي مواجهة مصاعبها علينا أن نضع حداً بين العاطفة والعقل ، بين الحب والواجب . كاترين الحلوة امرأة .. وهي امرأة مثيرة ، وأنا أحبها .. لقد نمت معها كثيراً ، وأحبها . لكنني ، في هذه الظروف لا أستطيع الاستمرار ، ولا يجوز ذلك . يجب أن تموت كاترين الحلوة ، أو ترحل .. ولا حل ثالثاً فيما أرى».

طرق الباب كما اعتاد أن يفعل . كرره بقوة أشد . كانت « كاترين الحلوة » نائمة فأيقظها . وجف قلبها للمفاجأة . رغبت عن الرد . طمرت رأسها باللحاف وتجاهلت ماتسمع. تظاهرت أنها غير موجودة كي تصرف الطارق . لم ينفعها ذلك . كان صالح يعرف أنها موجودة ويريدها . هذه الليلة يجب أن يحسم الموقف . على كاترين أن تفتح أو يخلع الباب . الحي لا يحتمل وجودها . لو أحبت رجلاً منه ، لو عاشرت رجلاً من أبنائه ، لو أباحت نفسها لكثيرين منهم ، كان ذلك مفهوماً من صالح . أنه سيتألم بغير شك . سيندم لأنه أقام علاقة معها ، وربما تساءل : « ألم أكن كافياً لها ؟ ألم

أرضها ؟ ألم أدافع عنها »؟ وقد يفكر بدمها العكر . امرأة لا تعرف الشبع . لا تستطيع أن تقتصر على رجل واحد . لا تقوى على انتظار رجل غائب أو سجين . كان يخترع لها أكثر من عذر ، ويدعها وشأنها ، فهي ، بعد ، ليست أخته ولا زوجه ، ولا يميل إلى فرض نفسه على أية امرأة بالقوة . إذا لم تحب المرأة ، ولم تشأ ، ولم تعط نفسها برضاها ، وتهب هذه النفس للمحبوب ، تصبح كل علاقة مفروضة ، وهو يأنف أن يفرض نفسه في مثل هذه الحال . غير أن كاترين تجاوزت الحدود المقبولة . أعطت نفسها للغرباء ، للاعداء ، ولم تراع حرمة الحي ، ولا كرامة أبنائه ، ولا مشاعر السجناء منهم . عملها في منتهى الدناءة . ومن النوع الذي لا يغفر ، ومهما تذرعت بالخوف فان ذنبها لا يغفر.. ثم ماذا تخشى ؟ الموت ؟ لقد مات غيرها ، وبفعلتها هذه دنست ذكراهم .

ظلمة وريح ومطر . إنه لا يحتمي بالظلمة عادة . ليس لصاً ولا مجرماً . ما يفعله لأجل الحي ، في سبيل حمايته ، سلامته ، دفع أذى الأتراك عنه . هو ليس متعصباً . يحب العمال ، كل العمال ، يحب كل الناس ، ويريد العيش مع الجميع ، لكن الآخرين متعصبون . الأتراك متعصبون ، ويريدون تهجيرهم . وهم لن يهاجروا ، هذا وطنهم أيضاً. إنهم من رعايا السلطان . وما داموا كذلك فلهم الحق في البقاء

وفي العمل . وهذا العدوان مرفوض ، وسيقاومه بالقوة .

ظلمة وريح ومطر . وصالح ينتفض في الخارج . لا يهتم بالريح ولا بالمطر . البلل ، بالنسبة اليه ، شيء طبيعي. هو ابن الماء ، مبارك الماء ، وليتساقط ماشاء . فلتبك السماء ما طاب لها ، عساها تغسل آثار أقدام الذين انتهكوا حرمة الحي في غيابه ، وتغسل فعلة هذه المرأة التي لم تعرف أن تصون نفسها ، ولا أصلها ، ولا حيها . أما الريح فما صدّت شراعه يوماً عن الإبحار . يعرفها هذه القوية ، المزمجرة ، المندفعة كغضب لا رحمة فيه ، ولن يأبه لها وهو على البر ، بعد أن لم يأبه لها وهو في النهر أو البحر ، دعها تنح .. إنها تندب على طريقتها ، والندب ما أخافه ، ولا أبكاه يوماً ، حين يكون ضعفاً ومسكنة .

كاترين في الداخل ترتجف : من الطارق ؟ ليس بينها وبين أيّ رجل موعد ما ، ولم تعتد أن تستقبل أحداً في منتصف الليل . والمصباح مطفأ ، وظلمة في الداخل ، وفي الخارج ريح ومطر وعويل يقشعر له بدنها ، وفي جفنيها آثار النوم ، وفي نفسها بقايا حلم مخيف . وقالت في ذاتها : « لن أرد ولن أفتح .. نفسي تحدثني بشر .. هذا الطرق العنيف وراءه مصيبة ، وليس حولي من يحميني ». أيقظت زوجها . كان ينام على طرحة فوق حصير بجوارها . فتح

عينيه مذهولاً . ماذا جرى ؟ وقالت له : « اسمع » ، وتعالى الطرق من جديد ، وجاءها صوت من الخارج :

– افتحي ، أنا صالح .

ودهشت : « صالح » . فركت عينيها جيداً . حسبته كابوساً . نهضت وقد أخذ قلبها يضرب بشدة . صالح في السجن ، وهي لا تعلم أنه خرج ، فهل ثمة من يحتال عليها ؟ مضت إلى الباب وسألت :

– من ؟ .

– أنا صالح .. افتحي ..

واحتارت ماتفعل . تفرح ؟ تحزن ؟ تطمئن ؟ تخاف ؟ الصوت واضح لديها ، لكن ماالذي جاء به في هذا الوقت ؟ شوقه ؟ أهو مشتاق وغير قادر على الانتظار ؟ أهو غاضب ويريد الانتقام ؟ لقد أذنبت . هي تعرف أنها أذنبت . كان يجب أن تحسب حساباً ليوم كهذا . لماذا لم تحسب حساباً ليوم كهذا ؟ .

رسمت ابتسامة على وجهها وفتحت . أخرجت الأنثى من جسدها ووضعتها حداً بينها وبينه . رجل يخرج من السجن ، لابد أن يكون محروماً ، ولا بد أن يكون مهتاجاً ، وهي قادرة ، حتى في حالة الغضب ، أن تستنفر مشاعرها الجنسية لإطفاء اهتياجه . ستجعل زوجها في الخارج . ليقف قليلاً في الخارج ، زوجته لديها شغل ، وحين تكون كذلك ، عوّدته ان يقف في الخارج

« حبابا » ليس زوجاً أبدياً . إنه يشعر بقهر ، يحس باهانة ، لكنه يداري القهر ويبلع الإهانة . لقد أصبح قواداً . روضته على أن يصبح قواداً . علمته أن يسمع من وراء الباب وأن يستمتع . كان يهتاج . يرى ما يجري في الداخل بأذنيه ، وحواسه تتشرب الكلمات المثيرة والمعذبة في آن ، وشيئاً فشيئاً تخلى عن ذكورته ، ثم تخلى عن رفضه . دخل اللعبة . جوعته يوماً ، وطردته يوماً ، وضربته يوماً .. وفي اليوم الرابع والخامس والسادس تفننت في تعذيبه ، وفي السابع هدل أذنيه ، أرخى شواربه إلى تحت وصار قواداً . وقال في نفسه : « الكهولة والزمن صيراني قواداً ». واستسلم لقدره .

كاترين من الداخل وصالح من الخارج . المصباح ضعيف ، لا يكفي لكشف ملامح الرجل الواقف في العتبة . وفي الداخل كان الكوخ مشوشاً . ثمة سرير من خشب تنام عليه كاترين . وحصيرة وطراحة مستطيلة ينام عليها «حبابا». وعلى جانب الكوخ خوان ، ومائدة صغيرة أمام الخوان عليها كؤوس . وبضعة كراس صغيرة . وفي الزاوية شرشف ذو مربعات ، معلق بحبل للغسيل بملاقط ، ووراءه تخفي المرأة حاجات زائدة ، وتطبخ ، وتضع جرة الماء . إنها فقيرة . كوخها فقير . كجميع الأكواخ في هذا الحي ، وتختلف النفس فقط . هنا نفس فقيرة أيضاً . هنا امرأة تبيع نفسها.. ولمن ؟ .

دخل صالح . مد يده وفك الشال الذي يتلثم به . حركة دالة تقول : أنا هو . كان مبتلاً ، وكان عابساً ، وفي وجهه رفض محذر : لا تقتربي مني . وعلى الجدار ، وراءه ، انعكس ظله طويلاً ، والباب وراءه صار مغلقاً ، وكاترين جمدت في مكانها ، وحبابا فرح بالرجل الكريم ، الشهم ، الذي كان يحمي البيت ، ويوفر له العمل في الميناء ، ويستشعر في وجوده الانس والحضور الانساني . هو أيضاً جمد ، ماتت الكلمات على شفتيه . كان يعرف ما هناك . كان شريكاً . لم يكن شريكاً . كان قواداً . لم يكن رجلاً . اللعنة ! الآن فهم إنه كان يجب أن يموت . لماذا لا يموت الانسان حين يجب أن يموت ؟ قصاص الحي أعظم . إنه يقاصصه . بنظرته يدينه . وبنظرته يطبق شفتيه : لا كلام . مات الكلام.

الخطوة الأولى ضاعت . فشل . والأنثى ، داخل كاترين بهتت . يعرف الحكاية كلها . هذا الواقف في عتبة البيت يعرف الحكاية كلها . لو يتكلم فقط . الصمت رهيب . أنشوطة في الرقبة . هيا ، ادفع الكرسي ودع الجسم يتدلى . لماذا يتأخر الجلاد في دفع المنصة من تحت رجلي مشنوق ؟ إنه يعذبها . وهو يتقصد أن يعذبها . قال لها كل شيء ، وفهمت كل شيء . اعترفت . لوت رقبتها . إنه الديّان .. من يستطيع أن يكون دياناً ؟ ولماذا ؟ الزمن ، الفقر ، البؤس ألوى بهيبتها مذ كانت صغيرة . إنها ضحية . يجب

أن يفهم أنها كانت ضحية ، وما تزال ، وستستمر .. ليس وحده ، ولا الحي وحده ، ولا أبناء الحي وحدهم ، الجميع ضحايا .. فمن يقاضي من إذن ؟ .

وقالت له :

– الحمد لله على السلامة ..

وقالت له :

– تفضل ..

وقالت له :

– ألا تجلس ؟ .

ودارت حوله . تفحّصته بعينيها، بحواسها ، بفراستها. وعلقت نظراتها فيه مستفسرة عن المصير :

وقال لها :

– لا تخافي .. ما جئت لأقتلك ..

وقال « حبابا » شيئاً وهو يشير إلى الخوان . كان أقل ذعراً منها . لم يكن يطلب رحمة . سيان الرحمة أو سواها. غير أنه ، بوجود صالح ، بدا مرتاحاً . هو أيضاً رجل ، وحتى القوادة لم تنسه أنه رجل . في الظلمة نجم . في البقعة السوداء ضوء . في الحضيض نبتة . وفي قلب « حبابا » أمل: أن تتخلص لياليه من كوابيسها . أن يكف الغرباء عن المجيء . أن يعود صالح وكل السجناء إلى بيوتهم .. أن يعودوا ، ولو جثثاً إلى الوطن .

وقال له :

ـ ذللنا بعدك ..

وقال له :

ـ كيف الرجال ؟ .

وقال له :

ـ ألا تدخن ؟ .

واستجاب صالح إلى عرض التدخين . شعر بجرح في إنسانيته تجاه هذا العجوز . لماذا الحياة قاسية إلى هذا الحد ؟ ولماذا عليه ، هو صالح ، أن يصدر حكماً في هذه الليلة ؟ هل لأنه خين ؟ هل لأنه كان عشيقاً قبل أن يكون إنساناً ؟ وهل ينتقم لنفسه في وهم الانتقام للحي ؟ .

عب الدخان عباً ، كانت كاترين قد ارتدت شيئاً يستر زنديها وصدرها . ماتت الأنثى فيها . مشاعر الإغراء باخت. صالح لم يأت لأنه مشتاق . جاء ديّاناً لا مشتاقاً . نظراته تقول هذا ، وتقوله حركاته أيضاً ، إنه يعرف كيف يكبت شهوته ويسيطر عليها . هي تعرف أنه أحبها ، وأنه اشتهاها ، وأنه كان مستعداً أن يقاتل في سبيلها ، لكنها أضاعته .فقدته. لعبة المرأة لا تجوز على كل الرجال . أيضاً لعبة الرجل لاتجوز على كل النساء . ثمة حد . هي تخطت الحد .شبقها دفعها ، ماضيها دفعها . حسبانها أنها قادرة على العبث بأيما رجل

دفعها . تورطت . خانت رجلها ، خانت حيها ، خانت نفسها ، الآن تقف عزلاء . سلاح الأنثى مثلم . قوة الإغراء انحطت . لا شيء ينفع . ولا تريد شيئاً ينفع . مستعدة لتقبل القصاص ، المهم أن يلفظه . أن يقول لماذا جاء ، في هذا الوقت من الليل ، وهي مهيأة للقبول ، للتنفيذ ، لدفع الثمن المطلوب منها .

وتكلم صالح أخيراً . لم ينظر اليها . تحاشاها . حسم الموقف بكلمات :

– استعدي للسفر .. غداً سترحلين ! .

لم تقل « لماذا » قالت :

– إلى أين ؟ .

– إلى الوطن ..

بوغتت . كانت تظن أنه سيطردها خارج الحي . عندئذ تذهب إلى هناك ، إلى الأحياء التركية ، وتقيم عند بعض من تعرفت اليهم . وكان هذا الانتقال ، في مثل ظروفها صعباً ، إلا أنه مقبول . هناك تعيش ، تقطع صلاتها بكل الذين تعرفهم ، وتسلم نفسها للرياح ، تقودها في الاتجاه الذي تريد . أما العودة إلى سورية ، فانه يضعها في قبضة الذين تتمنى البعد عنهم ، لتستشعر الأمان من انتقامهم.

قالت :

ـ لا أريد العودة إلى الوطن . ليس لي هناك أحد . ولا أعرف كيف أعيش .

قال بنبرة نصف هازئة نصف حازمة :

ـ أنت دائماً تعرفين كيف تعيشين .

ـ لا تظلمني .. لقد أخطأت ..

ـ أنا لم آت لمحاسبتك .

ـ لماذا جئت إذن ؟ لتطردني ؟! .

ـ الحي هو الذي يطردك ..

ـ الحي ليس أشرف مني .

وقف . كان الآن يرتجف للسلاطة المفاجئة . الحي ليس شريفاً . وهو غير موكل بشرف الحي . هناك نساء داعرات أيضاً . دائماً . في كل المدن ، في كل الأحياء ، نساء مريبات ، ليس لديه دفتر ذمة لأعمال من هذا النوع . إنه غير مسؤول سوى عن بيته ، لكن ما فعلته لا يدخل في باب العلاقات الجنسية مع هذا الرجل أو ذاك . لقد خانت الحي مع أعدائه . هذه هي النقطة المهمة . كيف لا تفهم هذا.

قال بهدوء مغتصب . هدوء من لا يريد أن ينفجر :

ـ اسمعي .. أنا أعرف ، وكذلك الرجال يعرفون أن في الحي أمثالك .هذه مسألة خصوصية لا تعنيني . قد تعني غيري لكنها لا تعنيني . المسألة ليست هنا . كان بامكانك أن

تتصرفي كيف تشائين ، مع من تشائين من رجال الحي ، أما فعلتك ، مع الأتراك ، في هذا الحي العربي ، والرجال في السجن . فانها خيانة لقومك .. ومن يخون قومه جزاؤه معروف .. لا تحسبي أنك قادرة على الخلاص إذا عصيت قراري . الأتراك لن يحموك أبداً . ذهابك اليهم ليس في صالحك .. افهمي ما أقوله جيداً .. يكفي أن ترحلي غداً أو بعده مع أول شختورة ترحل ، وينتهي الأمر . أعدك بأن ينتهي الأمر . لن نخبر أحداً ، ولن يحاسبك هناك أحد.. لو أردنا قتلك مااحتاج الامر إلى مجيئي في هذا الوقت . أنت تعرفين ماذا يساوي الانسان في ظروفنا . نحن نعيش تحت الخطر . نمشي وأرواحنا على أكفنا . قتلك إذن ليس مشكلة.. تبحيرك ليس مشكلة . حرق البيت وأنت داخله ليس مشكلة. يستطيع أي شاب أن يصفّي حسابك في لحظة .. لكنني ، أنا ، لا أريد أن يحدث ذلك .. ارحلي فقط . كل ماأطلبه منك هو الرحيل ، وأريد الجواب فوراً ..

قال « حبابا » كأن فرجاً جاءه :

— نرحل .. هذا أفضل من الموت ، وأفضل من الضياع في الغربة .. أنا أفهمك .. أفهم جيداً ماتقول .

— غداً ، من الصباح ، تحزمون أغراضكم إذن ..

وقالت كاترين مستسلمة :

ـ أهذا قرارك النهائي ؟ .

ـ هذا قرار الحي ..

ـ ألا تقبلون توبتي .. ؟ .

ـ قبلناها وإلا كنت في الأموات الآن ..

ـ وأنت ! ؟ .

ـ أنا ماذا ؟ .

ـ لن تكون حاقداً علي ؟ .

ـ سأنسى كل شيء إذا رحلت ..

ـ هل نلتقي ثانية ؟ .

ـ من يدري ؟ .

ـ أظن سنلتقي ..

ـ ....

ـ فقط لو نلتقي ..

ـ ....

ـ سكوتك يدع لي أملا ..

ـ ....

ـ على هذا الأمل أوافق ..

ـ هذا موقف طيب منك .

ـ متى يكون الرحيل ؟ .

ـ غداً ..

– أنا مستعدة ..

– في هذه الحال سيكون كل شيء جاهزاً. « الناولون»(١) أدفعه أنا ، وكذلك مصروف الجيب .. أحزمي أغراضك وانتظري .. (وبعد وقفة) لكن احذري خداعي ..

– معاذ الله ..

بعد يومين رحلت كاترين الحلوة . رحل معها « حبابا » أيضاً . لم يكن أحد في وداعها .البحر الذي جاء بها أعادها ثانية . كانت الشختورة على وشك الرحيل حين وصلت إلى الميناء . كان صالح وراءها . كان هناك رجال من الحي أيضاً . لم يقتربوا . قال لهم صالح لا تقتربوا . ظلوا بعيدين ، تحسباً لأية مفاجأة ، وظل صالح على الرصيف . كان منفعلا قليلاً ، قليلاً فقط .. وحين أقلعت الشختورة ، أدار ظهره ومضى .. وفي المقهى القريب جلس يدخن سيكارة،ويفكر ..

(١) أجرة السفر .

- ٦ -

وقال سعيد حزوم في نفسه : « كذلك كان أبي».

وفي قبة السماء ، عند منحدرها صوب الغرب ،كانت نجمة تضوي . وقال في نفسه ، كرة أخرى : « كذلك كان أبي ». الليل عذب . ليل الصيف عذب . غبش على البحر . الماء رصاصي ، يمتد بعيداً ، ومن بعيد ، يأتي الموج متدافعاً ، وعلى الشاطىء ، تخاريم زبد ، يترك وراءه ، وهو يتراجع . لقد أدى المهمة . قبل اليابسة . من الاعماق ، في اندفاعة متواصلة ، متوالدة ، يأتي الموج : ماذا تريد أيها الموج ؟ لا يقول ، ثم لماذا ؟ لمن يؤدي حساباً ؟ أن يعشق فتلك سيرته . هو نفسه عشق ، والشيء من بعضه يكون . والقبل؟ « جفنه علّم الغزل »، جفن الأرض ، علّم البحر ، أن يتغزل ، ومنذ الأزل ، بيتاً وراء بيت ، ينشد الماء قصيدته لليابسة ، وحين يهيجه الشوق ، يبعث شفتيه ، على ذرى الأمواج ، فتأتي وتهمس في أذن الشاطىء ، كلمة حب ولا أحلى ، وإذ ذاك تتصاعد موسيقى هادئة ، مهموسة ،

تنداح وتتفرق في الهواء .

في قلب هذا الليل كان سعيد يسير . كان سيره ، لمن لا يحس إحساسه ، غير مبرر . ماذا في هذا الشاطىء المهجور ؟ أية متعة أن يستبطن السائر الظلمة ويجاور الماء؟ وهذا الخطو الوئيد على عجينة رملية ماذا يستثير من أحاسيس؟ وتحت النجم البعيد ، في قبة منورة عالية ، أية أحزان يهدهد ؟ والنسيم قُبَلٌ على الوجنتين والعنق ، وزورق ما ، يذهب في طلب الصيد ، ومنارة كسلى تومض وتخبو ، وهمس كائنات مسحورة ينبعث على الجانبين .

وقال في نفسه : « هناك سيدة تنتظر ».

وقال في نفسه : « هناك رجل ينتظر ».

وقال أيضاً : « ليلة أمس لم تظهر عروس البحر ».

واستعاد أغنية فيروز : « ياماريا ، ياطالعة من البحر». وتذكر كيف كانت عروس البحر تطلع من البحر ، وكيف، في الليالي المقمرة ، والدنيا صيف ، كانا يجلسان على الرمل، هي بكل فتنتها ، وهو بكل أشواقه ، والصمت كلام ، والشفاه ارتعاشة محموم ..

وقال متحسراً : « لا مناص ... لحقتني لعنة البحر».

وأضاف : « هذه اللعنة خلفها لي أبي ».

ومضى يسير مبتعداً باتجاه الشمال ، لا مبالياً بشيء ،

كأنما يمشي تسكعاً ، يده في جيبه ، وصفيره يموسق أغنية قديمة ، وخطواته على الرمال تترك آثاراً مبهمة ، وروحه متشردة ، قلقة ، تبحث عن شيء لا تدري ما هو ..

« لقد كنت بكر أبي ، كان يحبني ويؤثرني على إخوتي. كان بيتنا في مرسين كوخاً خشبياً بغرفتين ، وكانت أمامه حديقة صغيرة ، تعنى بها أمي ، وقد زرعت فيها الأزهار ، وبعض النباتات الخضر ، وشجيرات عباد الشمس ، وفي زاوية منها مأوى صغير من صفيح ، مخصص لكلبنا « رهبر » الذي كنت صديقه وكان حارسي ، وكان ما بيننا من ود ما يكون عادة بين الأطفال والحيوانات الأليفة ، حتى أنني كنت أفضله على نفسي ، فأطعمه الحلوى التي كانت تخصني بها أمي ، وأشتاقه إذا غبت عن البيت قليلاً ، وكان هو يعبر عن فرحته بعودتي بالركض إلي ، والقفز من حولي ، وشمشمة ساقي ، والتعلق بأذيالي ، فاذا خرجت ليلاً ركض أمامي ، وظل يدور ويلف حوالي ، كأنه يتبين لي الطريق تارة ، ويستكشف لي الأعداء طوراً ، وينبح من حين لآخر تحية لمقدمي ، أو تنبيهاً لنا إذا ما جاء غرباء إلى البيت .

وكانت أمي ذات وجه أليف ، طيب ، وعينين غسليتين ، ولونها فاتح ، فيه مسحة من بياض ، وقامة طويلة ، مستقيمة ، وفم رقيق الشفتين ، وشعر خرنوبي ، وكانت تتحدث على مهل ، بصوت مطمئن ، ونادراً ما سمعتها تشكو .

فهي راضية بأن تكون ربة بيت ، وأن تفني حياتها بالطبخ والنفخ والإنجاب ، والتوفر على تربيتنا ، أخوتي وأنا ، وإرضاء والدي الذي كان صموتاً ، مهيباً ، نادر الضحك، مع أنه غير عبوس ، وغير مرح بشكل يخرج به عن صورة الوقار التي يريدها طابعاً مميزاً له . وقد فتنتني من هذا الوالد قوته ، وما كان يقال عنها في الحي ، وما تذكره الوالدة من قصص عنها . كنت أعتز به ، وأسعد لكونه قوياً ، وأحس من ذلك بقوة وطمأنينة وجرأة وامتياز ، وأتجاسر على أولاد الحي ، وأتشوف عليهم ، لا لقوة خاصة بي ، ولا لمكانة اكتسبتها بأفعال قمت بها بينهم ، بل لأن والدي كان صالح حزوم ، وكان علي ، كما استقر في ذهني ، أن أكون مثله ، لا أهاب عدواً ، ولا أبالي باقتحام أية صعوبة، ولا أتوانى أن أكون في مقدمة المهاجمين أو المدافعين في المعارك التي كنا نخوضها مع أولاد الأحياء الأخرى ، وخاصة الأحياء التركية .

وكنت ، في حضوره ، التزم الأدب احتراماً وتقرباً اليه . وكان حديثه ، في المجالس التي أشهدها ، يسقط عذباً في أذني ، ويدخل قلبي ويستقر فيه ، ويصنع لي سعادة ، لأنه يدور على البحر ، والميناء ، والعمل ، والشجارات التي كانت تقع ، وكان رأيه ، بين الحاضرين ، رأياً مسموعاً، وكثيراً ما سمعت الذين يجالسونه يثنون على ما يقول ،

ويستشيرونه في ما يقع ، ومهما تناقشوا معه فإن رأيه يظل مقبولاً ومعمولاً به لدى الجميع .

ويوم قام بمغامرته الكبيرة في النهر ، وأنقذ المراكب والمواعين ، ضج الحي كله بالخبر ، وجاء الناس من الميناء يهنئونه بالسلامة ، ويمتدحون شجاعته ورجولته وهمته ، ويسألونه أن يروي لهم ما حدث وكيف حدث ، وعلى تأففه من إعادة الحديث،كان يضطر إلى الكلام على الحادث، وكنت أشعر بسعادة بالغة عندئذ،وأفتح أذني جيداً ،وتشدني صوره حتى أحس أنني مكانه ، وأني أقوم بما قام به ، وأواجه كما واجه الاعصار ، وانتصر مثله ، وكان هذا كله يثلج صدري ويملأ ني بالزهو .

وعندما سجن بعد المعركة مع الأتراك حزنت أمي كثيراً. حزنت ولم تبك . حذرها من البكاء ، ومن التماس الواسطة، أو الذهاب إلى رئيس الميناء . رضي أن تزوره مرة في الاسبوع ، حاملة اليه الثياب ، النظيفة وبعض الطعام ، وقد صحبتني مرة معها . أذكر جيداً كيف صحبتني معها. كان ذلك بعد السجن بشهور ، وبعد الحاح من طرفي ورفض من طرفها ، وأخيراً عرضت الأمر على أبي ، فرضي بأن أزوره ، وقبل الزيارة بيوم أرسلتني إلى الحلاق ليقص شعري ، وغسلتني ، وأعطتني ثياباً نظيفة ، وأوصتني بالهدوء ، والأدب ، وتقبيل يديه ، وحذرتني من البكاء ،

قالت : « لا تبك أمامه مهما حزنت لرؤيته سجيناً ،ولا تظهر الضعف ، وقل له ، أمام السجناء ، إننا بخير ، ونحن ننتظر عودتك ، وهذا كل شيء ، هل سمعت» ؟ وأجبتها : « نعم .. سأكون ولداً شجاعاً ، ولن أبكي ، ولن أضايق أبي ، أو أجعله يخجل بي أمام الناس ».

ويوم الجمعة ، وهو موعد الزيارة ، لبست أمي فستانها الرسمي . أخرجته من الصندوق وعلقته على حبل مشدود إلى جدارين ، كي يتهوّى ، وتزول طياته . قالت لنا إنها ذهبت ، في الزيارة الأولى ، بفستان أسود . لامها أبي قال لها : « هل متّ كي تحزني علي ؟ إنما السجن للرجال ، وللرجال الذين يدافعون عن أنفسهم وحيّهم . معنى هذا أن رأسنا مرفوع ، فلماذا الحزن ولماذا لبس السواد ؟ لاأريد أن أراك في ثياب سود مرة أخرى . إلبسي أفضل مالديك ، وارفعي رأسك ، ولا تسألي عن أحد » وحفظت أمي وصية أبي . رجعت من السجن بمعنويات عالية . أرادت ، هي البسيطة ، أن تبدو فخورة . كان هناك بعض الذين شمتوا بنا . الحسد لا يخلو منه حي ، وراحد أو اثنان من الجيران شمتوا بنا ، فرجعت أمي من السجن وتعمّدت أن تردد ما قاله أبي بصوت مرتفع . وقفت أمام الباب ، وتكلمت بصوت عال مع جارتها ، كي يسمعها الآخرون ، وكي يعرفوا من يكون أبي ، وكيف يرى إلى السجن . وكان

البحارة وعمال الميناء ، ورجال الحي ، يزورون والدي في سجنه . ويأتون إلى أمي يتفقدون حالها . يعتبرون ذلك واجباً . يبدون عواطفهم الأخوية . ويعرضون خدماتهم ، ويسألون عما إذا كان هناك من يضايقنا أو يتعرض لنا بسوء. كانت روح أخوية سائدة ، مبعثها كفاح الحي ضد أعدائه. وهكذا فهمت ، في وقت مبكر ، ماذا يعني أن تكون هناك قضية مشتركة ، وأية قوة تهبها هذه القضية للرجال المؤمنين بها ، وأي طاقة يحملها إيمان المرء بأنه يدافع عن الحق والعدل ، وأنه يضحي في سبيل عروبته ، المعتدى عليها من قبل عنصريين ، همهم استعباد العنصر الآخر ، المحتلة أرضه من قبلهم ، حتى صار حب العروبة يعني الانعتاق من السيطرة التركية ، دون أن ندري كيف ، لأن الوعي بالاستقلال لم يكن قد انتشر ، وحركة الحي العفوية كان دافعها التمرد على الظلم دون معرفة بأسبابه ردوافعه .

ويوم خرج والدي من السجن غصّ البيت بالمهنئين. كان البحارة يتوافدون ، يقولون أشياء لا أفهمها جيداً ، لكن والدي بدا مسروراً ، وراح يشرح ظروف السجن ، وكيف يتحمله رجال الحي الباقون بشجاعة وصلابة ، وكيف يتضامنون ، ويقتسمون الرغيف ، ويقفون كرجل واحد ، ضد أية محاولة للنيل من أحدهم . وقال ، بشيء من الحزم كعادته :

– غداً أنزل إلى الميناء .. سأبحث عن شغل .

فقال أحد الحاضرين :

– لو استرحت قليلاً .. بضعة أيام مثلا .. نحن نشتغل، ولن تكون في حاجة إلى شيء .

– أعرف .. كل ما فعلتموه في غيبتنا نعرفه..نحن أخوة. حي « الشرادق » لن يضام وفيه رجال مثلكم ..لكنني جائع إلى العمل .. اشتقت إلى البحر يا أولاد .. كيف حاله ؟ أما زال أزرق ؟ .

وقال الرجل :

– البحر باق كما هو .. استوحش في غيابك فقط .. افتقدناك يا أبا سعيد .

– سأعمل على أي مركب .. صار السفر أمنيتي .. لم أخلق للعمل في الميناء .. اشتقت إلى البحر ..

– لو تنتظر حتى يمر الشتاء .. السفر يحلو في الصيف ..

– السفر يحلو في كل الفصول ..

– هذا أوان العواصف ..

– يا مرحباً بها ..

– قل إنك اشتقت إلى المغامرة ..

– لا أدري .. البحر صديقي على كل حال ..

– البحر لا صديق له ..

ـ من قال هذا ؟ .

ـ ألسنا بحارة مثلك ؟ .

ـ بلى ؛ لكنكم اعتدتم على الميناء ..

ـ في الميناء رزقنا ..

ـ لا أجادلكم في هذا .. ولكن أن يسافر البحّار ، يعني أن يجد نفسه .. عندي حنين إلى البعد .. إلى الوقوف على مقدمة المركب والريح تدفع به إلى أمام ، وهو يشق الماء ويستثير الزبد ، والموج يلطم به من جانبيه، وطيور النورس أمامه وخلفه وأغنية « عندك بحريّة ياريّس » تعلو من فم بحارة في فترة راحة ، والمسافرون يتجمعون على السطح ، والغروب الجميل .. آه ! لكم فكرت بهذا وأنا في السجن ..

ـ أنت عاشق يا صالح ..

ـ ربما ربما .. الماء حبيبي !

ـ ومن في الماء أيضاً .. لقد سافرت كاترين الحلوة..

ـ دعونا من ذكرها ..

ـ لقد سافرت فجأة ..

ـ دعونا من ذكرها ..

ـ يقال إن ..

احتد والدي وصاح :

ـ قلت لكم دعونا من ذكرها ..

وخيّم صمت على المجلس .. عبس والدي كما لم أره عبوساً من قبل . إنه في النقطة التي لا تساهل فيها. ذكر هذه المرأة يزعجه ويستثيره . هو وحده ، من بين الحاضرين ، يعرف لماذا : فجأة سافرت . لقد فرض عليها هذا السفر فرضاً . باسم الحي ، قال لها ، سافري ، وأرغمها .خيّرها بين الموت والسفر ، وكل هذا عرفته ، فيما بعد ، منها بالذات . قالت لي : « والدك كان رجلاً »، وكان قاسياً . كان بحّاراً ماهراً عنيداً ، وقد اعترف الأتراك بمهارته وجسارته . لكنه كان متعصباً لعروبته ، متعصباً لحيّه ، متعصباً لكل عربي يسكن ذلك الحي ، ويعتبر ذلك واجباً وشرفاً مَنْ أخل بهما فقد استحق اللعنة والقصاص . لقد قاصصني دون أن يسمع كلامي . كنت أحبه . أحببته من كل قلبي ، وأعرف أنه كان يحبني ، وقد ذبح قلبه لأجل شرفه . لم يستطع ذبحي فذبح نفسه ، سامحه الله ، إنني امرأة خاطئة ».

جرى هذا فيما بعد . ثلاثون عاماً مضت قبل أن أقف على السر . وحين وقفت عليه تذكرت أبي في ذلك المجلس وصيحته الغضوب «دعونا من ذكرها ». كان الجرح جديداً. كان ناغراً ، وكان الدم يسيل في صدره دون أن ندري . كان السفر دواء له . إنه يريد أن يسلو . في البحر يكون السلوان . في المنبسط المائي الواسع ، حيث لا حدود أمام

النظر ، لا تخوم يصطدم بها الفكر ، لا جدران رصاصية تعترض النفس الراغبة في الانطلاق ، يرسل المرء ذاته إلى بعيد ، يتنفس بحرية ، ويبث الموج شوقه وأشجانه . ولو هبّت العاصفة لكان ذلك أفضل. في مواجهتها يتوحد البحار كما أمام الموت . يستنفر كل قواه ، يضفر كل أعصابه ، يركز كل تفكيره عليها . يمتص التحدّي كل ءاعداه . يعطي البحار دمه ولحمه للمعركة ، يقول دون كلام : « أنا وهي» تصبح العاصفة امرأة . يصبح العراك فعلاً جنسياً . تحمرّ العيون من خوف وجسارة ولذة . تغدو الريح نشيداً حربياً كموسيقى أمام السائر إلى المعركة . والمطر والليل والبحر مشاهد مثيرة . يصير الخطر اهتياجاً . يتسارع الاهتياج ، يتدفق ، يتراكم ، وحين ينفجر يكون القذف .. تنقلب الدنيا . موت أم نجاة ؟ لا يهم الموت ولا تهم النجاة . لقد بلغ البحّار أقصى عنفوانه . الفعل تم . الجسدان المرتعشان من شبق همدا ، والتعب حل الأوصال المتوترة . شلواً يصير البحار ، وشلواً تصير العاصفة ، والمركب الذي كان سريراً لضجعة اللذة يترنح من فرط ما اهتز . لقد سكر الخشب وانتشت حواسه الخمس . سمع ، شهد ، لمس ، شم ، تذوق ، إنه ، بدوره ، عرف اللذة على طريقته . الطبيعة عرفت اللذة على طريقتها . الطبيعة تعرف اللذة دائماً على طريقتها ، وعناصرها المعربدة تتطامن ما أن تبلغ ذروة

هيجانها . العاصفة ، حين تهب على البحر ، لاتريد أن تقتل البحر . تعلم أن ذاك لا يصير . غايتها أن تنكحه ، والبحّار حين يواجه العاصفة يعرف أنه يستطيع اغتيالها . يرقص معها ، يدخل دائرتها المجنونة ، يضاجعها ، والدي كان يرغب في السفر كي يواجه العاصفة ، كي يضاجعها ، كي ينسى كاترين فيها ، وكنا جميعاً لا نفهم ذلك . أنا الصغير كنت أجهل كل شيء ، خفت على الوالد من السفر . تمنيت أن يبقى في الميناء ، لكنني فرحت حين صمت الرجال .. تجلّت ، عندئذ ، قوة والدي ، الوالد يفتن ، أول مايفتن ، وبأكثر ما يفتن ، بقوة والده .. أنا أذكر ، حتى الآن ، تلك العروق الزرق ، المتعرجة النابضة تحت الجلد في سطح كفيه . كان فيها دم ، وغضب ، وعنف . كانت فيها شهوة . كان والدي يشتهي كاترين الحلوة . لقد انتصر إذ حملها على السفر . استراح من وجودها في الحي . نظّفه منها . خيانتها مع الأتراك ، ولو عن طريق الجسد ، عوقبت كما يجب . لقد رحلت هي ، وبقي القلب المعنّى بهواها . والدي لم يكن يتحدث عن هواه . كان كتوماً في هذه الناحية. يعتبر الحديث فيها عيباً . نقصاً في الرجولة . إهانة للمشاعر وللعلاقة بالآخر ، بالمرأة ، وبسبب من ذلك كان يتألم ، يصبر ، ويزمع على السفر .

بعد ذلك لم يدر حديث حول كاترين الحلوة في بيتنا ،

وما أظنه دار في أي مجلس يحضره والدي . لقد سافر كما قرر. أنا لا أعرف البلاد التي كان يسافر اليها ، لكنني كنت أسمع من والدتي أنه يعمل على مركب بين مرسين والشواطىء السورية – اللبنانية ... مرة واحدة سافر إلى مصر . غاب طويلاً ، ولدى عودته قص علينا أخباراً عجيبة عن بلاد يسميها أبناؤها « أم الدنيا » ، وحمل الينا فاكهة لم نستسغها، عرفت فيما بعد أن اسمها « المانجا »، وأنها فاكهة الذوات، وأن الباعة في مصر يغنّون على فواكهم غناءً حلواً ، استجلاباً للشارين ، وأن المصريين قوم يمتازون بسرعة البديهة ، وارتجال النكتة ، والرد المفحم على من يحاول التعرض لهم ، وأن أصواتهم حلوة لأنهم يشربون من ماء النيل ، ويقولون عنه « بحر النيل » وأغنيتهم المشهورة هي: « عطشان يا صبايا دلّوني ع السبيل – عطشان وما سقوني من مية بحر النيل ».

ورجته أمي ألا يسافر إلى مصر كرة أخرى ، فسألها مستغرباً . :

– لماذا ؟ .

– كيلا تطول غيبتك .

– وماذا في ذلك ؟ هذه حياة البحر ..

– أعرفها (تنهدت) أعرف أن البحّار لايستقر في بلد . وعائلته لا تعرف طعم الراحة .

فابتسم والدي من اشفاق وقال :

– تخافين عليّ ؟

– وعلى من أخاف إذن ؟ .

– وماذا تصنعين في غيابي ؟ .

أخفت والدتي أنها كانت تبكي .

– أصلي لأجلك .. وأقفل بابي على الأطفال وأنتظر .

رق قلب والدي وقال :

– هذه حال نساء البحّارة ..

أضاف :

– قريباً نعود إلى الوطن وتنسين ..هناك أهلنا ولن تستوحشي في غيابي .

وقالت في نبرة تمرّد نصفها توسّل :

– أنت أهلي .. وأريدك ألا تغيب ..

– لا أغيب لألعب .. إنني أعمل ..

– ولماذا لا تعمل في الميناء كالآخرين ؟ .

سكت والدي . سكوته كان تهديداً في ذاته . حين يصمت يضع حداً للحديث . أطرق مفكراً . ماذا يقول لزوجته ؟ كيف يشرح لها الفارق بين الميناء والبحر ؟ أية كلمات تعبر عن الحنين الداخلي إلى السفر ؟ بماذا يبرر هوسه إلى الإبحار بعيداً ، مستجيباً لنداء يسمعه وحده ؟.

وقالت أمي في اعتذار مفاجىء :

ــ لا تغضب مني ..

وقال والدي :

ــ لن أغضب .. أنا أفهمك .. لكنك أنت لا تفهمينني .. لا تستطيعين أن تفهميني .. أنت لا تحبين البحر .

وألوت أمي عنقها :

ــ كل ما تحبه أنت أحبه أنا .. لو تبقى معنا فقط .. آه من البحر ..

وحين غادرنا والدي ، متجاهلاً شكوى والدتي ، شاعراً بالعجز عن اقناعها أن حياة البحر حياته ، وأنه يسافر لأجلنا ، وأن العمل في الميناء ، مهما يكن نوعه ، ينتقص من رجولته ، من سمعته كبحار ، وأن هواه هناك ، في اللجة البعيدة ، جلست والدتي في ركنها المعهود صامتة . لم تقتنع ولم تحتج . إنها تخاف عليه ، لكن خوفها السلبي لم يتقدم ليصبح إيجاباً . التمرد غير وارد في قاموسها . رجولة والدي كانت مظلة كبيرة تخيّم على البيت . هي ، تحت هذه المظلة ، قبرة تسبّح بحمد الله مرة وبحمد زوجها مرات . أن صوتها لا يجوز أن يرتفع على صوته ، وهيبته تبعث فيها انفعالاً لمجرد أن يتراءى خياله لها . ومع أنه ما كان يضربها أو يشتمها ، فقد كانت شخصيته طاغية بالنسبة اليها ، ومحبوبة منها إلى درجة العبادة . كان يكفيها أن تكون زوجة

صالح حزوم . لا تباهي بذلك ، لكنها تمارس اعتداداً خفياً به . وعندما تتحدث لنا عنه ، تفيض بكلمات الاعجاب ، فننتشي لذلك . ويكبر الوالد ، تطول قامته كثيراً .

في ذلك النهار ، بعد خروجه ، نادتني وأجلستني في حضنها . قبلتني . مسحت على رأسي ،بدت كأنها تخاف علي من شر ما . تفرست في وجهي وسألتني :

– أتحبني ؟ .

– كثيراً ..

– ولا تخافني ..؟ .

– أبداً ..

– سأطلب منك طلباً صغيراً ..

– أن أشتري لك حاجة من السوق ؟

– لا .. أنا لا أحتاج شيئاً .

– ألاّ أتعارك مع الأولاد ..؟

– هذا ضروري .. لا تتعارك مع أحد ..

– والدي يقول : لا تدع أحداً يعتدي عليك !

– اسمع ما يقوله والدك ..

– وماذا تريدين اذن ؟ .

– عِدْني أن تسمع مني ..

وعدتّها ..

فكرت لحظة . لاح عليها الهمّ . ترددت كأنها أدركت عبث مطلبها ، كأنها تقرأ الغيب في صفحة المستقبل وقالت برجاء حار :

ــ لا تكن بحّاراً كوالدك ..

ــ لماذا ؟ .

قلتها بدهشة طفل ، باستغراب أكبر من عمري ، فالبحر كان ملعبنا ، كان جارنا ورفيقنا ، كان جزءاً من حياتنا ، وكثيراً ما تصورت نفسي كبيراً ، أرتدي ملابس البحر كوالدي ، ومثله أسافر ، وأغدو قوياً ، شجاعاً ، يهابني الجميع ، ويحترمني الجميع ، وأسوح في بلاد الله الواسعة .

وظلت أمي صامتة وهي تمسد شعري ، فأعدت سؤالي :

ــ لماذا لا تريدين أن أصبح بحّاراً ؛ ؟

ــ لأنني أخاف عليك ..

ــ أنا أعرف السباحة جيداً ..

ــ ولهذا أخاف عليك ..

ــ هل يغرق البحّار ؟ .

ــ نعم يابني .. كثير من جيراننا غرقوا ..

ــ والدي لا يغرق ..

ــ لا تقل هذا . أدعو الله أن يحميه .

– لكنه يسبح جيداً ..

– البحر لا يأخذ إلاّ سبّاحيه ..

– ولماذا لم يأخذ والدي ؟

صاحت :

– بعد الشر عنه .. لاتقل هذا .. سيزعل البحر منك .

– لكنه لا يسمعني ..

– البحر يسمع كل شيء .. أطلب منه أن يحفظ والدك.. كن ولداً صالحاً .

أضافت :

– كان يجب أن تذهب إلى المدرسة .. فيها يعلّمون الأولاد الأشياء الحسنة .

ولا أذكر كيف انتهت المحادثة . ظني أن أمي أقلعت عن المحاولة . كنت مفتوناً بوالدي ، وأريد أن أصبح بحّاراً مثله ، وهذا ما قلته لأمي ، فأنزلتني عن ركبتها ، وأرسلتني لألعب ، ثم لم تكرر المحاولة .

طفت بالحي . كانت الشرادق التنكية والخشبية منتثرة على أرض رملية فيما يجاور البحر من فضاء ، والأشجار قليلة . هذا الحي بناه الأغراب والبحارة . كان حديثاً قديماً لا هوية له . كان فقيراً إلى درجة تملأ العين بؤساً . ولم تكن البلدية تعنى به . لا مياه ، ولا كهرباء ، لا تنظيفات . قال

والدي : « المدينة نفسها لا تعرف الكهرباء .. نحن نراها في عربات القطار فقط ». وكانت المياه تجلب من بعيد . ثمة آبار حفرها الرجال . مياهها كانت مالحة لا تشرب . والأوساخ والنفايات تملأ الطرقات الضيقة بين الأكواخ . وفي قلب هذه التشكيلة العجيبة من فقر وبؤس وقذارة ، كانت هناك حدائق صغيرة . كان « المنتور» أكثر ما يُزرع فيها . كذلك زهر « فم السمكة» « والعطرة »، وكان الورد نادراً ، والفل في تنكات صدئة . وكانت الأسر تنحشر في غرف ضيقة ، وأغلب البيوت يتألف من غرفة واحدة ، المطبخ في زاويتها ، ومن كان لديه غرفتان مثلنا ، يعتبر من وجهـــاء الحي . وكان الناس ، بـــرغم ذلك ، يتناسلون ويتكاثرون ، والاطفال من أعمار مختلفة ، يلعبون أمام البيوت ، والرمد والبرداء يفتكان بالسكان ، خاصة في الصيف ، حيث يتكاثر البرغش بسبب المستنقعات القريبة والأوساخ .

لقد أحببت هذا الحي برغم فقره وقذارته . وعيي بالوجود بدأ فيه ، وطفولتي الأولى . هناك ، على رمله ، حبوت ودرجت وصرت صبياً . كان البحر القريب جاراً كريماً لنا . كان مسبحاً مفتوحاً للجميع في الصيف ، وبركة لاصطياد السمك ، وشاطئاً يقذف لنا بالاخشاب فنجمعها شتاء ، وكان منتزهاً في الليالي الحارة ، يجلس الناس ،

فوق حصر من قش ، على رمله الناشف ، ويحدقون في القمر الفضي الذي يسكب أشعته على الماء ، فيتراءى البحر ، في الأعماق ، كأنه يبتسم ، وشلالات من الضياء تنسكب عليه ، وفلائك الصيد ، ذات الفوانيس ، تبدو علامات من ضوء ناعس فوق مرج مائي داكن ، لا نشعر بحركته إلا من الأمواج المتكسرة على الشاطىء ، في خرير متواتر ، ونحن نسبح ليلاً ، ونلهو كأننا في بيوتنا .

ولم أفكر أن أطلب من البحر شيئاً . كان الاطمئنان اليه اعتقاداً طبيعياً كما الاطمئنان الى اليابسة . والدي يبحر فيه . إنه قطعة منه . والمركب الضخم ، من يستطيع إغراق المركب الضخم ؟ والمهارة في السباحة ، هل يعجز والدي ، في حال الاضطرار ، عن السباحة والعودة إلى البر ؟ إننا أبناء البحر ، أسماك آدمية لا أكثر ، مخلوقات نصف عمرها على اليابسة ونصف عمرها في الماء ، فكيف نخشى الغرق ، إذا كان الطفل منا قادراً على العوم يوماً كاملاً ، ناهيك بالرجال الذين قضوا حياتهم على ظهور المراكب ؟.

وماذا يعمل الصبي اذا كان والده بحّاراً ؟ كيف ينشأ في الميناء ثم لا يكون فيها ؟ وهل ثمة حياة ، بالنسبة الينا ، غير هذه الحياة ؟ ومهنة الوالد ؛ من لا يتعلم مهنة والده ؟ ابن النجّار يصبح نجاراً . وابن الحلاق حلاقاً ، وابن البحار بحاراً ؛ هذه هي القاعدة ، فلماذا أرادت أمي أن أكون

استثناء ؟ وكيف يوافق والدي على هذا الاستثناء ؟ وهل أخالفه إذا رفض ؟ وفي المستقبل ، حين يعجز عن العمل ، أية غصة ستقف في صدره إذا لم يرني بحاراً مكانه ؟

هذه الأفكار لم تدر في رأسي على هذا النحو من الوضوح، وبهذه الصيغ والعبارات . إنني أترجم عن ذات الصبي الذي كنته . أحسب أن الكلمات هذه خطرت لي دون أن أستطيع التلفظ بها ، وحتى الأفكار كانت غائمة . ولكن عقل الصبي ، في التشبث وعدم تلبية طلب الوالدة ، كان يفكر على هذا النحو ، وقد فهمت الوالدة بغير كلام أن الأمور ستكون كذلك ، وأن طبيعة الأشياء ، في الأعراف السائدة، ستؤدي إلى هذه النتيجة ، فانطوت على خوفها المضاعف ، وصار البحر عدوها ، صار غريمها ،وفقدت المسكينة القدرة على حبه ، وظلت كذلك حتى ماتت .

ذات يوم ، بعد معركة الحي التي سجن فيها والدي بعامين ، عاد إلى البيت متهللاً . كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، وظل الأتراك قد انقشع عن البلاد العربية ، وفي الشام ، كما قال الوالد ، قالت حكومة عربية ، و « يوم الخلاص الذي انتظرناه طويلاً قد جاء أخيراً ».

— إيه ، قال الوالد وهو يتنهد كمن ينزل حملا ، لقد انتهت غربتنا .. سنعود إلى الوطن .

– إلى سوريه ؟ .

– نعم إلى سورية .. إلى اسكندرونة .. لقد ارتبطت بعمل فيها .. العرب من أصحاب المراكب يعودون أيضاً.

– والحي ؟ يعود كله ؟ .

– أبناء سورية سيعودون ..وماذا يفعلون هنا ؟ أما كفاهم ما لقوا من الأتراك ؟.

– وبيتنا ؟ نتركه أم نبيعه ؟ وكيف ، هناك ، سيكون لنا بيت ؟ .

قال والدي وهو يعجب لمنطق والدتي ..

– عجيب .. أنا أتحدث عن الوطن وأنت تتحدثين عن البيت ! ؟ أقول لك الوطن استقلّ .. رحل الأتراك عنه.. سورية عربية ، وفي الشام حكومة فيصل .. ألا يعني هذا شيئاً كثيراً عندك ؟ .

– ومن هو فيصل ! ؟

– فيصل ملك عربي ..أول ملك عربي .. صرنا مثل العالم ، لنا ملك ودولة ..

لم تفهم والدتي ، وكذلك لم تتحمس ، وهذا ماأزعج والدي :

– أنت معذورة .. أما أنا فأعرف كل شيء .. هناك، في الميناء ، الدنيا قائمة قاعدة . الناس يتحدثون .. ألم تسمعي

من الجيران ..؟ لن أدخل السجن بسبب الأتراك بعد اليوم، فهمت ؟ .

– فهمت .. أنا مثلك لا أحب الأتراك ، ولكن البيت والحديقة ؟ والزهور التي فيها ؟ .

– البيت سنبيعه أو نتركه .. لايهم .. في اسكندرونة سيكون لك بيت وحديقة وزهور أيضاً .. هناك نعيش بأمان واطمئنان ، لا يهاجمنا الأتراك ولا نقضي ليالينا في قلق وخوف .. نتخلص من حي « الشرادق » !

– وماله حي الشرادق ؟ ألم نعش فيه كل هذه الأعوام ؟

– عشنا أغراباً .. والآن انتهت الغربة .. سنعود إلى الوطن ، ألا يفرحك هذا ؟

قالت أمي مدارية :

– بلى .. ولكن ..

وقاطعها والدي ساخراً :

– كيف نترك البيت .. أليس كذلك ؟ .

انتبهت الوالدة إلى مافي كلامه من بوادر غضب فقالت :

– فداك البيت .. البيت فداك .. كلنا فداك ..

– يكفي يكفي .. أعرف هذه الديباجة .. من الغد استعدّي .. سنبيع الأشياء التي لاحاجة لنا بها . لن نأخذ سوى الثياب والفرش .. هناك نشتري .. المهم أن نعود

ونصل بسلامة .. وأن نرى أهلنا ، ألم تشتاقي ؟ .

تحركت عواطف والدتي فقالت :

– بلى .. اشتقنا ياصالح .. ملعون أبو الغربة ..

وقال والدي :

– وسيكون لدينا بعض المال .. لقد اقتصدت قليلا .. أنت تعرفين ..

– وهل تمشي المجيديات هناك ..؟

– الفضة مثل الذهب تماماً .. لا تبطل أبداً ..

– اجتهد في أن تبيع البيت .. لماذا نتركه مشاعاً لغيرنا؟

سر الوالد وقال :

– هذا ما سوف أفعله .. وعند اللزوم أفككه وأبيعه خشباً .. اطمئني .

– أنت تعرف شغلك .. أنت خيمتنا وتاج راسنا .. الله يديمك .

ازداد سرور والدي . هذا الاذعان من الوالدة يرضيه. صحيح أنه يتصرف على هواه ، وما يريده يصير ، والكلمة الأخيرة له ، لكن الموافقة تظل مطلوبة . إنه ، برغم صلابة مظهره ، ينطوي على شيء من اللين الداخلي ، ويسعده ، في النهاية ، ألا يُعاكَس ، وأن تكون آراوءه محل تسليم الآخرين ، ومنهم زوجته .

ومن الغد انتشر الخبر في الحي . « انتهت الغربة وسنعود » قال الناس بعضهم لبعض . ولتبرير العودة ،وربما لجعلها أمراً لا يقبل المناقشة أو التردد ، صار الراحلون يذكرون المقيمين بمواقف الأتراك من العرب . « آن لنا أن نتخلص من الظلم .. ولماذا الاقامة على كره ؟ ثم من يضمن ألا يهاجم الأتراك الحي من جديد ويذبحوا سكانه ؟ أما سمعتم بمـــذابح الأرمن » ؟ وصار التذكير نوعاً من الإنذار. الشائعات تحولت إلى أفاع تزحف بين الأكواخ . نبتت لها رؤوس ذات ألسنة تنضنض ، ومن لم يكن يفكر بالهجرة اضطر إلى التفكير بها . وفرض حديث الرحيل نفسه على الرجل وامرأته ، على المرأة وأولادها ، على الفتى وخطيبته ، على الجار وجاره ، وانقلب الحي إلى خلية نحل ، لا شاغل لسكانه إلا تدبير أمورهم والاستعداد للسفر بحراً ، فهو الوسيلة الوحيدة المتوفرة للعائدين ..

أنا لا أدري ماذا حل ببيتنا . باعه والدي ؟ تركه ورحل ؟ أوصى به من بقي من الجيران ؟ لا أذكر كيف تمّت الأمور ، لكنني ، ذات يوم ، وجدت نفسي أغادر الحي ، أمي تمسك بيدي ، ووالدي يسير أمامنا ، وقدّامه عربة يجرّها حصان تحمل أمتعتنا ، ونحن نقصد الميناء ، حيث كانت عائلات أخرى من الحي مسافرة على المركب نفسه . ولقد جرت دموع كثيرة عند الوداع . أمي بكت كثيراً ، أمام

الباب ، وفي الشارع ، وعلى رصيف الميناء ، وفي كل مكان مررنا به وصادفنا ناساً يعرفوننا . كانت تقول لهم : «سامحونا ، أذكرونا» أو تقول إلى « اللقاء في الوطن » ويجيب المودعون « مع السلامة » . لا بد أن نلتقي . أنتم السابقون ونحن اللاحقون »، وتتعانق النسوة ، ويبكين ، ويقبّل الرجال بعضهم بعضاً ، ونمضي هكذا في جمع يتضخم ، يتوقف ، يعاود السير ، والكلمات نفسها والدموع نفسها على طول الطريق .

في الميناء أنزلنا أغراضنا على الرصيف . ذهب والدي لإنجاز أوراق السفر وشراء بعض ما نحتاجه في سفرتنا . كان علينا أن نحمل طعامنا معنا ، فالمركب لا يقدم طعاماً، ولا مطبخ فيه ، والسفرة قد تطول وقد تقصر ، حسبما تسعف الريح ، والخطر كبير ، فالنازل إلى البحر مفقود والطالع منه مولود كما قالت الوالدة ، وهذا ما جعل للوداع ، في أحد جوانبه ، حزيناً جداً ، مادام الأمل بالوصول ، معلقاً برحمة الله وصمود المركب الذي كثيراً ما اضطر إلى إلقاء حمله في البحر عند مواجهة نوء شديد .

بقينا على الرصيف وقتاً طويلاً . جلسنا حول الأم فوق حوائجنا . كانت تريد أن تبتسم في وجوهنا لتشجيعنا فلا تقوى . كانت حزينة ، خائفة ، بائسة . لقد غادرت بيتها، وحديقتها، وزهورها ، وكان علينا ، في الميناء ، أن نفارق

كلبنا « رهبر» حسب تعليمات الوالد . ولكم حاول ،ونحن نخرج من الحي ، أن يثني الكلب عن اللحاق بنا فما أفلح . أمي ودعته من الصباح . دللته . أطعمته جيداً . قالت له : « بخاطرك يا رهبر .. نحن مسافرون إلى بلدنا .. لن ترانا بعد الآن ..ولن ترى سعيد وتلعب معه .. البحر بيننا ، البحر كبير يا رهبر ولن تستطيع قطعه الينا . نحن آسفون .لا يمكننا أن نأخذك معنا . صاحب المركب لا يريد كلاباً في مركبه . يتشاءم منها . صحبتنا انتهت . كنت مخلصاً لنا . كنت حارساً لبيتنا . كنت صديقاً لنا ولأولادنا . لكننا غرباء ، والغريب لابد أن يعود إلى وطنه ..أنت أين وطنك يا رهبر ؟ أين أهلك ؟ ولمن تلتجىء بعدنا .. وعلى باب من تنام الليلة ؟ ستبقى على بابنا ، لكنك ستكتشف غداً أو بعده أننا رحلنا، وهكذا سترحل أنت أيضاً . ستعيش مشرداً بغير أصحاب ، بغير أهل ، أسفي على الذي يبقى بغير أهل .. هل تفهم ما أقول يا رهبر .. »؟

وطالت المناجاة ، وطالت الدموع ، وأمي تحتضن الكلب وتقبله ، وهو قابع في حضنها، حزين لحزنها، صامت لا يصدر عنه صوت ، ولا يقوم بحركاته المعتادة . ربما أدرك ، من المؤكد أنه أدرك أن شيئاً غير عادي يجري اليوم، وأن ثمة من يرحل ، بدليل هذه الأغراض المصرورة ،

وهذا البيت العاري ، الخاوي إلاّ من الأسى المعشش في زواياه .

فعلت كل ذلك في غياب أبي.هل كانت المرثاة ضرورية لها لتنفّس عن صدرها ؟ لو سمعها أبي لثار من غير شك. لقد تغيّب عمداً . تذرّع بوداع بعض الأصحاب وخرج ، تاركاً أمي تودع دنياها الصغيرة حسبما تشتهي . كان يعرف أنها ستبكي . الدموع وسيلة تعبير متداولة في الحي . النساء يبكين دائماً ، وخاصة في حينا . دموع أمام الموت ، دموع في الحزن ، دموع عند أي صدمة ، دموع بسبب الفقر . وكان أبي يكره الدموع إلا في المآتم ، برغم أنه لا يبكي ، أو لم أره يبكي فيها أبداً . كان جلداً ، صبوراً ، متماسكاً . وفراق الحي والبيت والجيران عناه كما عنى أمي ، لكنه بخلافها أمسك نفسه عن الجزع . وحين لحق بنا الكلب انتهره . أراد إرجاعه إلى الحي ، وتجنيب الوالدة رؤيته في الميناء ، لكن الكلب أصر ، ولازمنا حتّى نزلنا المركب ، وعندئذ خرج عن طوره ، وأخذ ينبح ويقوم بحركات مسعورة ، خفنا معها أن يلقي بنفسه في الماء كي يصل الينا .

مكثنا على ظهر المركب في الميناء وقتاً طويلاً .وضعنا أغراضنا في العنبر وتجمّعنا على السطح .

كانت مراسم الوداع قد انتهت وعاد المودعون إلى بيوتهم وأشغالهم ، لوحوا لنا بالأيدي ، وفعلنا مثلهم ،

وبعد ذهابهم جلس والدي عند قدم الصارية وراح يدخن. كان قليل الكلام بطبعه ، والآن انقطع عن الكلام نهائياً . ولم تجرؤ الأم على مفاتحته بالحديث . بماذا كان يفكر ؟ هل عزّ عليه فراق الحي بأكثر مما قدرنا ؟ هل كان يحسب حساب الرحلة البحرية ، في موسم العواصف الربيعية ؟ هل لديه هموم حول مستقبل حياتنا في اسكندرونة ؟ لا أحد يدري ، فقد هبط الليل ، وبرد الجو ، ونزلنا إلى العنبر مع الوالدة ، وهناك اقتعدنا حصيراً حولها . أما والدي فقد بقي على السطح مع الرجال ، وكانوا جميعاً بانتظار هبوب ريح مواتية ليقلع المركب بنا باتجاه الوطن .

ولم توات الريح إلا بعد منتصف الليل . وحين أقلع المركب لم يكن على الرصيف إلا كلبنا « رهبر»، وقد نبح نباحاً مديداً حزيناً حتى صرنا في عرض البحر وانقطع صوته عنا . والدي قال لنا ذلك ، وأضاف : « لم أستطع تحويل نظري عنه حتى غيّبه الظلام ، وأحسست أن صوته سكين يحز في صدري». وبعد ذلك استدعى ريّس المركب والدي وقال له : « أنت بحار معروف .. تعال وامكث معي في القمرة طوال الرحلة . لا تبق بين النساء والأطفال » وشكره والدي وتردد عليه ، لكنه أبداً — كما قال — لم يتدخل في شؤون البحارة ، احتراماً للزمالة . كذلك اعتذر عن قبول بعض الامتيازات . فقد سمح الريّس لوالدتي أن

تطهو طعامنا في المطبخ المخصص للبحارة ، وكان هذا ضرورياً لنا ، فقدر والدي هذه البادرة ولم يأذن لوالدتي باستعماله ، احتراماً لمشاعر الآخرين . كل ما قبله ، كما قالت الوالدة ، دعوة عشاء أو غداء مع الريّس ، في قمرته ، وقضى بقية وقته مع الرجال المسافرين ، يشاركهم الطعام ويشاطرهم الحياة على المركب .

لقينا بعض المصاعب من تقلبات النوء . داخت والدتي ولزمت الفراش . خشينا عليها المرض . كان البحر يداعب المركب على طريقته ، ولعله راعى أخوة الوالد ، فلم يعصف إلا قليلا . وداخ بعض الرجال والنساء أيضاً ، فاهتم الوالد بأمرهم ، وطمأن الجميع على حالة البحر . أكد أن الريح مؤاتية ، وأننا بعد نهار وليلة ، سنجتاز منطقة الخطر ، ثم نقترب من جون اسكندرونة الهادىء . « الله معنا — قال للناس — هو يرانا ويحمينا . نحن عائدون إلى الوطن ، وهو يقدر نية العائد إلى وطنه . لا تخافوا ، فما في الجو أثر لنويّة . البحر يصبح آمناً بعد الآن ، فالجبال القريبة مكاسر طبيعية تردّ عنا الريح العاتية إذا هبّت ». وكان المسافرون يرتاحون لكلامه . « أنت بشارة خير ياصالح .. أنت بحار وتعرف .. إذا قلت شيئاً صدقناه .. نعرف أنك لا تكذب علينا ولا تخدعنا ». ويجيب والدي : « الحافظ هو الله يا جماعة .. غير أن التجارب علّمتني .. هذه أطيب رحلة

في هذا العام .. شكراً للبحر ، هذا الصديق الطيب ».

وذات صباح حمل البشارة إلى المسافرين وهو على غاية السرور : « اليوم ، بعد الظهر ، إذا ظلت الريح مؤاتية ، نصل اسكندرونة .. احزموا أغراضكم واستعدوا .. تناولوا طعامكم باكراً ، فالصعود من المركب ، والمرور على سلطات الميناء ، وتحميل الأغراض ، يستغرق وقتاً . اصعدوا إلى السطح ..الجو رائع .. ربيعنا يأتي باكراً ... اسكندرونة دافئة ، والبحر أزرق جميل ، والقلوع ، ما شاء الله . منفوخة بالريح ، والمركب حمامة .. آه ماأجمل السفر على المركب حين يطير على الماء كالحمامة ».

لم تتمكن والدتي من الصعود إلى السطح . دوران البحر هدّ قواها . وحدي خرجت مع الركاب . غافلتها وتسللت. كان والدي والريّس يدخنان عند المقدمة . اقتربت منهما بحذر ، ولما رآني والدي ناداني اليه . أمسكني من يدي بحب ، وقال للريس « محروسك سعيد » فداعب الريّس رأسي وسألني : « هيه ، قل لي ، ألا تريد أن تصبح بحاراً كوالدك »؟ وخبأت وجهي في شروال والدي حياء . قال هو نيابة عني : « وماذا سيصبح إذن ياريّس ؟ من شابه أباه ما ظلم » فقال الريّس : « ما شاء الله ، فرخ البط عوّام.. ليكن مثلك وأكثر ، ريّساً إن شاء الله ».

غمرتني سعادة لا حد لها . حنان والدي ، وكلمات

الريس ، والاقتراب من الوطن ، وهذا الجو الرائع . ماذا يريد الطفل أكثر ؟ لقد رسخت في ذهني هذه اللوحة الصباحية . ولعل كلمات الريس قد نقشت في مكان ما من الصدر. تراءى لي مستقبلي على نحو غامض . وقلت في نفسي « متى أكبر وأقف مثل والدي على مقدمة المركب » ؟ بدا لي، الآن ، عملاقاً . كنت مفتوناً به، مفتوناً بما أسمع من حكاياه، والآن صار مثلاً أحتذيه ، غدا بطلاً أقيس بعالمه كل عالم مقبل . باندفاع طفل معجب ، وأنا أمسك بيد والدي ، قرّبت وجهي وقبّلتها ، فشعر بذلك وداعب رأسي ، وأنتقل دفء كفه إلى شعري وغمر جسدي كله .

كانت الشمس مشرقة ، والسماء زجاجية ، صافية ، لا غيم فيها ، ولفحة برد صباحية تلذع الوجه ، وطيور تحوم حول المركب المبحر ، وعن يسارنا جبال ، وعن يميننا مدى أزرق، والأمواج تصطفق على الجوانب، والركاب منتشرون على السطح ، والريس يرفع منظاره ويتطلع إلى بعيد ، وابتسامة كبيرة على الوجوه ، والبحار الواقف وراء الدفة يحركها رفيقاً ، والمركب يهتز ويمضي كسمكة ضخمة تشق عباب الماء .

في اسكندرونة سكنّا بيتاً من حجر . كان بيتاً من طابق واحد ، فسيحاً ، مبنياً على الطريقة العربية ، في وسطه فسحة سماوية ، عن جوانبها الغرف ، وفي الحوش الحجري الكبير

بعض الزهور ، وثمة مطبخ مشترك ، لجميع الذين يسكنون الدار ، ولهذا فهو شبه مهجور ، إذ تطبخ كل عائلة في بيتها ، وتضع أدوات المطبخ في زاوية البيت ، وراء ستارة ، تماماً كما في « شرادق » .. حينا القديم ، والمرحاض مشترك أيضاً ، وليس لنا حديقة مستقلة ، ولا نستطيع أن نربي كلباً ولا دجاجاً .

والدي كان راضياً . المهم لديه أنه عاد إلى الوطن ، ليس إلى اللاذقية ، وهي بلده الأصلي ، بل إلى اسكندرونة ، حيث تعاقد مع أحد المراكب على عمل . ولقد استأجر غرفتين في هذه الدار الكبيرة ، التي تقطنها عائلتان غيرنا ، وفقدنا بذلك بعض الاستقلال السكني الذي كان لنا في مرسين ، غير أن الوالد راح يهون الأمر على الوالدة ، ويشرح لها مزايا البيت الحجري ، في قلب السوق ، حيث لا حفر ولا طين في الشتاء ، ولا غبار في الصيف ، وحيث البلدية تكنس الشوارع ، وتجمع القمامة ، والحياة أفضل بكثير ، أفضل بما لا يقاس ،وليس هناك شبه بين مرسين واسكندرونة ويكفي أن نكون هنا في الوطن ، وفي بلد لا يحكمه الأتراك.

ـ والحديقة .. أنبقى دون حديقة ؟ قالت الوالدة وهي تستشعر وحشة في قلب دار يسكنها أغراب .

ـ يمكننا أن ننشىء ما يشبه الحديقة في الدار نفسها ..

نصنع كالآخرين .. نربي الزهور في تنكات نضعها أمام غرفنا .

– والمطبخ والمرحاض ؟ هل يعقل أن نستخدم مطبخاً ومرحاضاً مشتركين ؟ .

– المطبخ شبه مهجور .. يمكنك استعماله متى أردت .. والمرحاض يهون أمره .. نعتاد ..

– كنت أفضل كوخاً مستقلاً ..

– وأنا كذلك .. لن نؤبّد هنا .. حين تتحسن الظروف أبني بيتاً ولو صغيراً ، تحمّلي قليلاً .

كان والدي ، الآن ، طويل البال ، كان قادراً ، كما خيل إلي ، أن يظل جائعاً دون أن يشكو . الوطن ولا شيء سواه . هو في وطنه إذن فهو في جنته . ثمة أسباب للشكوى، ومضايقات ، وظروف لم نعتدها ،وهو، في تقديره الشخصي مسؤول عنها ، لأنه أول من أطلق فكرة العودة إلى الوطن ونفذها . كان قادراً أن يلجم شكوى الوالدة ، أن يفرض عليها الواقع ، ويحملها على القبول به ، لكنه آثر أن يتحمل مسؤوليته ، أن ينهض بكل واجبات رب الأسرة ، ويصبر على الظروف الصعبة ، ويجعل الوالدة تألف الحياة الجديدة وتندمج فيها .

كان يقول :

ـ عند الانتقال من بيت إلى بيت ، ولو في المدينة الواحدة يستوحش المرء .. إنه يحن إلى القديم .. أفهم هذا، أفهمه .

ـ أنا لا أعترض على الانتقال . هذا وطني أيضاً ، ولكن لو سافرنا إلى اللاذقية بدل اسكندرونة .

ـ هذا هو الأساس في شكواك .. كنت تفضلين اللاذقية..

ـ هناك أهلنا ..

ـ وهنا رزقنا .. لا تنسي هذا .. ثم اللاذقية غير بعيدة، نحن في وطن واحد ، والسفر سهل علينا .. انتظري قليلاً .

ـ إذا كان هذا يرضيك فهو يرضيني .. سأنتظر ..

ولم يطل انتظارها..ألفت البيت والمدينة.خفّت شكواها ، تحولت في موقفها تماماً عندما دخلتُ المدرسة . شعرت أن العودة إلى الوطن كانت ضرورية جداً ، ولولاها ماذهب أولادها إلى المدرسة، وما سنحت لهم الفرصة لتعلّم العربية، لغة آبائهم وأجدادهم . أما الوالد فكان مسروراً جداً . كان سعيداً أنني دخلت المدرسة ، وأن مستقبلي صار مضموناً ، فقد رفض ، في مرسين ، أن يرسلني إلى كتاب يعلم اللغة التركية ، ووجد عاراً أن أتعلم لغة قوم هم أعداؤه .

كانت المدرسة قرب البحر . هل مصادفة كانت المدرسة قرب البحر ؟ لقد كانت الحروف التي تعلّمتها مبتلة بالماء،

فنحن لا نفارق الشاطىء ولا يكاد جرس الظهر يقرع حتى نهرع اليه ، ولا ننصرف مساء إلاّ ونمرّ به ، وفي الأصباح ، حين نأتي المدرسة ، نمشي على الساحل ، كأنما نملأ من مرآه رئاتنا بعزم يعيننا على الدراسة والحفظ ، وهكذا تقدمت في صفوفي وعمري وحبي للبحر ، كبرت وكبر معي ،وحين أخذت الشهادة الابتدائية كان كل شيء معداً لأن أعمل في الميناء ، لأن أصبح مستخدماً في أحد المخازن البحرية ،أو أصبح بحّاراً كوالدي ، وأسافر مثله على متن أحد المراكب.

في البدء عملت كاتباً في مخزن بحري . كتب عليّ أن أعيش في الميناء ، وأنغمس في شؤونها ، وأنصهر في نار مستعرة لحياة شديدة الطرافة ، كثيرة التنوع ، قاسية ، وحشيّة ، لذيذة . كان علي أن أسهر على مصالح صاحب المخزن الذي يعمل في التصدير والاستيراد ، أن أكون مرقّماً عند الوزن في القبان ، مدققاً عند تسليم البضاعة «للسيكورتاه» (١) مشرفاً عند تحميل الأكياس والصناديق والبالات في المراعين ، مراقباً عند شحنها في البواخر ، وأن أدخل في عراك مستمر طوال فترات هذه العملية التي تتكرر يومياً أو في الأسبوع مرة على الأقل . وكان علي ، في النار التي ألقيت فيها ، أن أنصهر جيداً ، أن أغدو قطعة فولاذ ، وبذلك أتكرس ابناً

(١) شركة التأمين .

حقيقياً للميناء ، أو تلفظني خارجها ، إنساناً خائباً ليس له في عالم البحر موطىء قدم .

قال لي والدي ذات مساء ، وقد عدت من عملي شاكياً، بسبب ما لاقيت من مشاكسات العاملين في الميناء ،والإصطدام بموظفي الجمارك ، وضياع صندوق من البضاعة ، ألقي عمداً من علو على الرصيف ، فتحطم وتبعثرت محتوياته وسُرقت : « اسمع يا سعيد ! كان في وسعي أن آخذك معي في البحر رأساً . كنت ستتعلم ، خلال سنوات ، كل مايجب أن يتعلمه بحار ، وتتعرف إلى موانىء العالم ، وإلى رجال هذه الموانىء وفتيانها . كنت ستغدو بحاراً ، يعرف متى تؤاتي الريح ومتى تعاكس ، ويعرف كيف يفرح بمؤاتاة الريح وكيف يصبر على معاكستها . ويكتسب القدرة لا على الصبر وحده ، بل على رباطة الجأش عند الخطر أيضاً . يهب نفسه لهذا العالم العجيب ، ثم لا يبالي بما فيه من وحوش وتماسيح ، وبما يصادفه من مآزق وأهوال ، وبما يفتح الله عليه من رزق وبما يقبض منه بحيث يعرف الجوع الحقيقي. إنك ، في البحر ، لا تواجه عواصف النوء وحدها . هذه خطيرة فعلاً ، لكنها نادرة ومحتملة ، وتشعر في صراعها بلذة ، لكن عواصف المتاعب والنذالات والتحديات ، عواصف الفجور والدسائس والوشايات ، هذه هي المتعبة والمقرفة ، لكنك بشجاعتك ، بمراسك ، باستعدادك لاقتحام

الصعاب ومنازلة الخصوم ، ستعتاد على مواجهة كل أنواع العواصف والتغلب عليها . السيادة في البحر للشجاعة أولا وللمهارة ثانياً . كن شجاعاً وماهراً ، أثبت كفاءة في العمل وفي القتال ، تجد الطاعة والمحبة والانقياد من أكثر الذين كانوا سيتآمرون عليك ، ويغدرون بك ، ويخربون عملك، لو لم تكن شجاعاً وماهراً . احتفظ بزهوك ، باعتدادك ، بثقتك بنفسك ، دون غرور ، دون تبجح ، دون مهاترة ، دون ثرثرة ، دون فضول ، وأقدم حين يتراجع الآخرون ، وضع نصب عينيك الحكمة التي وضعتها نصب عينيّ دائماً : الموت كأس على كل الناس ، وكلنا سنموت ، ولا تسأل بعد ذلك متى .. قد تنجو من أعظم خطر ، من أشرس عاصفة ، من أقذر معركة ، ثم تموت بحادث بسيط .. الموت حق ، لكنه عظيم في وقته . دعه يأتي حين يريد أن يأتي . لا تتهور ، ولكن لا تتردد ، حين يلوح الخطر لا تكن في المؤخرة . ضع نفسك في الصف الأمامي . عانق البحر في ساعة الشدة، والبحر يعرف رجاله الشجعان ويحميهم . كن شهماً، كريماً، مستقيماً ، وعامل الاخيار بما يستحقون ، والأنذال بما يستحقون أيضاً . لا أوصيك بأخلاق الملائكة ، ولا بأخلاق الشياطين ، أوصيك بأخلاق البحارة الحقيقيين ، الذين يأخذون مهنة البحر بجد ، باحترام ، بفروسية ، ولا يسمحون لعار اللجة أو الميناء أن يلحق بهم ».

وبعد أن أشعل سيكارة أضاف : « من لا يعرف بلده لا يستطيع أن يعرف بلدان العالم ، ومن لا يكتشف بحره لا يقوى على اكتشاف بحار العالم ، وكذلك من يجهل ميناءه فلن يكون خبيراً بموانىء الدنيا . من أجل ذلك أردتك بحاراً يبدأ من الصفر ، من الخطوة الأولى ، من الساحل ، من التقاء الماء باليابسة ، من بيئة البحار الحقيقية ، وهي الميناء. هذه هي المدرسة البحرية الأولى . فيها تعلمت أنا ، وفيها ينبغي أن تتعلم أنت ، وحين تصبح على ظهر المركب ، تكون قد عرفت الرصيف الذي انطلق منه ، والرصيف الذي سيرسو عليه ، وهكذا تتدرج في المهنة من أسفل إلى أعلى ، وتصبح خبيراً بكل شيء ، وصلباً في مواجهة أي إشكال».

سكت بعد ذلك حتى حسبتُه انتهى ، لكنه لم يلبث أن فاجأني بهذا السؤال : « أنت تدخن ، اليس كذلك » ؟ كنت أدخن سراً ، احتراماً له ، ورغبة في عدم إيذاء شعوره ، وأمام نظرته اعترفت بالحقيقة: « نعم أدخن ». قال: « حسناً ! ولكن التدخين في السر ليس من أخلاق البحارة . لا تقل إنك تخجل بسبب صغر سنك . ان يكن التدخين عيباً يعني ألا تدخن في السر وفي العلن ، وأن لا يكون كذلك فلماذا الخجل ؟ إن بحاراً يخجل ليس بحاراً . ليس معنى هذا أن تكون وقحاً ، لكن معناه ألا تمارس شيئاً تستحي به . حين كنت في سنك تعرضت لما يتعرض اليه ابن الميناء :

التدخين ، الشرب ، المرأة : هذه أشياء ملازمة للبحر . لكنني لم أدع أياً منها يستعبدني ، ولم أكن رخواً أمام الشراب ولا أمام المرأة ، ولم أكن نذلاً في ممارسة أي منهما ... جرِّب كل شيء .. البحار لا بد أن يمر بكل التجارب ، لكن عليه ، حين يكون رجلاً ، أن يفيد منها ، ولا يدعها تقوده إلى التهلكة أو الدناءة » .

هذه أطول مرة يتكلم فيها أبي . لم يكن منفعلاً ولا هادئاً . كان يتكلم بجد بالغ ، على قضية يراها ضرورية إلى درجة يتخلى فيها عن حديثه القصير المعتاد . إنه يلخص تجربته على طريقته ، يصوغها في قالب نصيحة موجزة لي ، وأنا صامت لا تند عني نأمة ، مأخوذ بواقعية الحديث وما فيه من تجارب مكثفة ، تتشرب روحي الكلمات التي ضن بها والدي علي طويلاً ، ثم ها هو يفيض بهـــا كأنما كان يحتبسها في صدره المثقل بأعوام العمر .

غير أنني سأذكر هذه الكلمات بعد سنوات من ذلك بكثير من الحسرة . سأستعيدها على النحو الذي نقشت به في ذاكرتي وأكاد أشرق بالدمع . لقد كان والدي يتلو علي موعظة في حياة البحر . كان يودعني وصيته البحرية دون أن أدري ، وكان يرجو ، في ذات نفسه ، أن أحفظ هذه الوصية ، ولم أخيب رجاءه ، فأنا بحار تجاوز مرحلة الشباب ومر بالمراهقة والصبا والرجولة دون أن تغيب عنه المعاني التي

تجلت له حقائق في المواقف الصعبة من حياته البحرية . أسفي أن والدي لم يعاود الكرة ،لم يجد ضرورة للعودة إلى استعراض تجاربه أمامي ، فقد كان كثير الأسفار ، كثير المشاغل ، وكان تدبير أمور العائلة التي غدت كبيرة مع الأيام ، يأخذ من وقته القسم الأكبر ، ولم يكن شأن العائلة وحده الذي يعنيه ، كانت شؤون البحارة ، أعمالهم ، مشاكلهم ، أحوالهم المعيشية ، مصاعبهم ، تستأثر باهتمامه ، كأنما نصب نفسه رئيس ميناء ، أو كأنما غدا ريّساً لمركب واحد يشتغل عليه جميع بحارة اسكندرونة ، فهو مسؤول عنهم ، معني بكل صغيرة وكبيرة من أمورهم .

ولكي يكون قريباً من هؤلاء البحارة ، مختلطاً بهم ، مطلعاً على حياتهم ، مشاركاً لهم في خير الأيام وشرها ، فقد انتقل بنا من حي الرشدية الذي سكنّاه أول وصولنا ، إلى حي البحارة غرب المدينة ، وهناك أقام لنا بيتاً خشبياً من غرفتين ، أمامه حديقة كما أرادت الوالدة ، وله مطبخ مستقل ومرحاض مستقل ، تنفيذاً لرغبتها .

غير أن الأزمة الإقتصادية ، في مطلع الثلاثينات ، سرعان ما أدركتنا . لقد أصابت هذه الأزمة عمال السكة الحديدية وعمال الميناء بكارثة . توقف التصدير والاستيراد ، وظلت أكياس الحبوب وبالات القطن مكومة كتلال صغيرة في الميناء وعلى أطراف الشوارع المؤدية اليها ، عرضة للريح

والمطر والحر ، بحيث تلفت وتعفنت وفاحت رائحتها النتنة، ولم تجد من يلقي بها في البحر ، ولم يُسمح للناس الجياع بمد اليد اليها .

كانت المخازن البحرية تصرف عمالها ، والميناء تبدو مهجورة أكثر فأكثر ، فلا بواخر ولا مراكب ، ولا تحميل أو تفريغ ، وعشرات العمال ، ثم المئات والآلاف ، يترددون على أماكن العمل السابقة ، عارضين أنفسهم بأبخس الأثمان ، مقتعدين الأرصفة ، منتشرين على الطرقات ، جالسين على رمل الشاطىء ، دون أن يجدوا من يستأجرهم بلقمتهم .

وكان تأثير هذه الأزمة الاقتصادية الطاحنة ظاهراً في حينا بأكثر من ظهوره في الأحياء الأخرى . كان حي العمال والبحارة ، حي الفقراء ، وكانت النكبة التي حلت به شديدة إلى درجة أن رجاله باعوا كل ما يستطيعون بيعه ، وأقبلوا على الصيد حتى اكتظ بهم الشاطىء ، وراجعوا السلطات الفرنسية المنتدبة ، وقدموا العرائض والاسترحامات ، وتظاهروا وخاضوا المعارك دون جدوى . كانت أوربا المستعمرة تصدر أزمتها إلى مستعمراتها ، وكان علينا أن نجوع بينما المستعمرون في شبع ، وأن نشتهي الرغيف بينما أكوام الحبوب متروكة للمطر والريح والعفن .

والدي ، تلك الأيام ، كان في ثورة داخلية يضطرب

لها جسمه في اليقظة والمنام . لم يعد يسافر. المركب توقف عن الابحار ، وهو تعطل عن العمل ، وكنت قد سبقته إلى ذلك، وغدا بيتنا فارغاً ، ونحن نقتسم اللقمة ونحرص على كسرة الخبز ، والفرج لا يلوح في أفق الحياة . لأن الأزمة تشتد يوماً بعد يوم .

ماذا يفعل في هذه الحال ؟ اعتكف في البيت كي لايذل نفسه ويستجدي العمل كالآخرين . قاوم بصمت وكبرياء. لم يثرثر ولم يشتم . كان لا يلجأ إلى التنفيس حين يفعم الألم قلبه . تماسك فلم يظهر الضعف أو الاستخذاء . وحين كان البحارة يفدون اليه ، يقاسمهم ما تبقى معه ، ويعطيهم مما توفر لدينا من مؤونة قليلة ، فاذا وجد لديهم الاستعداد قادهم إلى الاحتجاج علناً ، وسار أمامهم إلى السراي ، لمقابلة المحافظ أو المستشار ، أو طاف على المخازن البحرية يطلب من أصحابها العون لمن وصلوا إلى حافة الهاوية .

كنت أراه مفكراً ، مهموماً ، لا يدري ما يفعل ، ظني أنه كان مبلبلاً محتاراً ، لا يهتدي في تفكيره إلى تحديد المسؤول عن هذه الكارثة . كان الوعي قليلاً آنذاك . كانت المطالب المهنية والحياتية معزولة عن المطالب السياسية . الحقد على فرنسا كبير ، الحقد على الأغنياء يتزايد ، النقمة تتبدى في العيون . لكن العدو المباشر كان ضبابياً ، فلا أحد يستطيع أن يقول إن فلاناً مسؤول عن نكبتنا . أما في الميناء فكانوا

يلقون اللوم على « بلاد بره» تلك التي أوقفت الاستيراد ، لأن لديها من الحبوب والأقطان والبضائع ما يفيض عن حاجتها ، فهي تلقيه في البحر ، أو تحرقه في الأفران ، وكان المحافظ ، من جهته ، يلقي المسؤولية على الغيب ، يقول : « كفرتم وهذا عقابكم .. بالغتم في المعاصي والآثام ، والله يعاقبكم على أفعالكم » . فاذا قالوا له : « وماذا تفعل السلطة » ؟ أجاب : « تنتظر عودة الحركة إلى البحر .. ألا ترون الحالة في الميناء» ؟ .

فتك الجوع بالحي . كان الرجل يصوم ليأكل أولاده . وكانت العائلة التي تتوفر لها أرغفة من الخبز تقسط تناولها على أيام . تخفيها كيلا يراها الآخرون من الجياع . وأمام حالات الانهيار الصحي ، كانت المرأة تبيع أيما شيء مقابل حفنة من الطحين ، تعجنها وتخبزها على الصاج ، وتطعم صغارها وهي تبكي ، كانوا يمسكون بكسرة الخبز ويشمونها ، عسى أن تمسك الرائحة بقية رمق . وصار الحمص عزيزاً ونادراً ، فهو يشوى أو يحمص ويتناول كل فرد حبات معدودات منه ، خادعاً بذلك معدته وحواسه .

وأدرك الوالد ، في قلب هذه المحنة ، أن الأتراك ليسوا الأعداء الوحيدين . في مرسين كانوا يأكلون على الأقل ، وحتى في السجن كان الطعام يتوفر بطريقة ما . كانوا يعملون في البحر والميناء والمدينة . كان بر الاناضول واسعاً ، ولو

خرج الرجل إلى القرى لحصل على قوته وقوت عياله . هناك كان يشتغل عاملاً زراعياً . كانت الأرض بحاجة إلى عمال ، أما هنا فالقرى جائعة أكثر من المدن . لقد كسدت المواسم . الأرض بقيت بوراً ، والفلاح هبط المدينة يبيع مواشيه . إنها الأزمة ، وقيل إنها عمت الدنيا كلها ، وإننا جزء من هذه الدنيا ، وعلينا أن نعاني ونصبر . لكن الجوع كان كافراً ، كان يدفع الناس في طرقات ما خطر لهم أنهم سيسلكونها ، وصار العمال ، كعصابات الطير الكاسرة ، يحومون حول الميناء ، وفي عيونهم الشر ، وصارت الجريمة شيئاً عادياً ، في سبيل ما يملأ البطن أحياناً .

وظهر في الحي محرضون على الثورة . كانوا يتنقلون ، في الليل ، من بيت إلى بيت ، ويقولون أشياء عجيبة ، يتلقنها الناس بنهم شديد . يحفظونها ، يرددونها ، تصبح قناعات لديهم ، وتتحول إلى مشاعر غضب عنيف ، لا يحتاج إلا إلى احتكاك كي ينفجر . واستعاد الوالد ، بطبيعته الثائرة ، كل سمات القائد الشعبي الذي كانه في مرسين . هنالك الأتراك وهنا الفرنسيون . الذل واحد والعبودية واحدة ، وجاء الجوع فطفح الكيل ، ودفع الجميع إلى التمرد ، إلى الاستهانة بالموت ، إلى الاستجابة لكل نداء يدعو إلى الثورة ، إلى الخروج على القانون ، وتحطيم حق الملكية المقدس .

هكذا ، ذات صباح ، خرج الحي ليهاجم السراي ،

كان المحرضون في المقدمة . كانوا شجعاناً ، لا يبالون بالموت ، ويستهينون بالخطر كأنما نذروا أنفسهم لأعمال كهذه . ومشى الوالد معهم . ارتدى ثياب البحر ، رعصب رأسه فوق طاقية البحار ، وحمل عصا غليظة ، واندفع مستثيراً حماسة الناس ، ومشيت وراءه محمولاً على أمواج الغضب الذي عصف بالجميع ، وانضم الينا الفقراء في الأحياء الأخرى ، وجاء العمال والبحارة من كل أنحاء المدينة ، وراح قادة المظاهرة يطلقون الهتافات ، ورفعوا يافطة كتبوا عليها « العمل والخبز » ومضوا بنا عبر الشوارع إلى مقر المستشار .

هناك كان جنود سود يحيطون بالسراي ، وفي أيديهم البنادق ، وما أن اقتربنا حتى أسندوها إلى صدورهم في وضع الاستعداد لإطلاق النار . وتقدم قادة المظاهرة يريدون دخول السراي لتقديم عريضة ، لكن الضابط الفرنسي منعهم . أمر الجنود بارجاعهم إلى وراء ، فلما رفضوا أمر باطلاق النار ، في الهواء أولا ، ثم على الصدور بعد ذلك ، واضطرب الحشد الكبير ، وتعالى دوي الرصاص مختلطاً بصيحات المهاجمين ، وتساقط القتلى والجرحى . وأضعت والدي في قلب الحشد الكبير الذي ماج في حركة مد وجزر ! وانقلبت باحة السراي إلى ساحة معركة دامية غير متكافئة ، والرصاص ينهال من الأدراج والنوافذ

والاسطحة ، والجموع تتراكض في اضطراب بلغ من شدته أن الناس داسوا بعضهم بعضاً .

ذلك اليوم عرفت ما يعني الاحتلال . وما تعني مقاومة الاحتلال ، وصار العدو واضحاً لنا ، وصار السلاح ضرورياً أكثر من الخبز لنا ، لكننا ، واأسفاه ، لم نكن نملك سلاحاً ولا خبزاً ، وجاء المساء وقد رزح الحي تحت وطأة المجزرة كما يرزح تحت وطأة الجوع .

وعاد والدي متستراً بالظلام .. عاد مجرحاً ممزقاً كئيباً خاسراً . لقد أفلت من طوق الجنود ، ونجح في الالتجاء إلى إحدى البنايات المحيطة بباحة السراي ، ورأى بعينيه ما جرى ، وعاش بوجدانه وحشية القتلة ، وانطوى على نقمة عاجزة عبرت عن نفسها بصمت شديد لم نجرؤ على الكلام حياله. كان والدي يتعلم من تجاربه . علم التجربة وحده كان يرسخ في صدره ، كأنما نقش هناك بأزميل . وقد رأيت في عينيه ما تعلمه من تجربة اليوم . الوطن مازال محتلاً . دم الساحة صرخ بذلك ، راح الأتراك وجاء الفرنسيون . لم يتغير شيء. دم الساحة كان يطل من عينيه . ليس خيبة ما فيهما بل عزم. النسر الجريح يحط على صخرة في الجبل . سيعاود تحليقه حين يشفى ، حين يغادره الذهول، حين يستوعب ما جر ، أما الآن فانه يداري مشاعره الراعفة في الصدر . في مرسين قاوم الأتراك بالمدية والعصا ، كان سلاح المعركة متكافئاً .

هنا الجسوم مقابل الرصاص . الرجال مقابل الجنود . حي البحارة مقابل السراي . وسمعت صريف أسنانه : « فرنسا ! يا فرنسا !» أشفقت عليه . وددت لو تكلم . لو قال شيئاً . لو تشكّى من شيء . اقتربت منه . نظر في عيني . أطرق . تراه خجل مني ؟ خشي أن أقرأ فجيعته في عينيه ؟ أن أكون شاهداً على ألمه الشخصي ؟ قال لنا : « ناموا » هو لم ينم . أطفأ الضوء ولم ينم ، ظل ساهراً ، تركناه وشأنه . احترمنا جراحه ، وفي اليوم التالي خرج دون أن يتبلغ بشيء . وفّر ما عندنا من خبز لنا . تحامل على نفسه وخرج في موكب التشييع . كان لا بد من تشييع القتلى . إنه يعرف واجبه . سار بخطى ثابتة . حمل النعوش ، نحّى الناس للمؤاجرة ، وفي المقبرة استند إلى شجرة واستمع إلى خطاب تأبيني . سره أن ثمة من ظل قادراً على الكلام . ظن أن قادة المظاهرة قتلوا أو اعتقلوا . هذا واحد منهم . إنه غريب عن الحي . لم يَر له وجهاً قبل الآن ، لكنه يتكلم مثل الآخرين . لايهاب فرنسا .. على الضريح هتف بسقوطها . حيّا الشهداء ، قال إن المعركة طويلة ، لكن النصر للمناضلين .. قال إن فرنسا سترحل كما جاءت .. ثم نزل عن الضريح واختفى بين المشيّعين ، وعاد والدي إلى البيت . عاد كالآخرين . كان أفضل حالاً من أمس. أكل كسرة ونام .. ظل نائماً إلى المساء .

شفيت جروحه بعد أيام . استعاد طبيعته وصار يخرج ليلاً . لم يقل إلى أين يذهب . أمي لم تسأله ، وكذلك نحن. ما عوّدنا التدخل في شؤونه ، نثق أنه لا يذهب للهو . مضى زمن اللهو . ولا يذهب إلى التسلية ، فالهموم من القتامة بحيث يربدّ الوجه . والنساء ، على وفرتهن ، فليس إلا النذل من يفكر باستغلال حاجة امرأة إلى رغيف . إنه زمن الجماعة، زمن الوحدة ، زمن التكاتف ضد جائحة شيطانية تنهش القلوب . ودم المجزرة مازال ندياً ، يصرخ على بلاط الشوارع ، وفي السجون معتقلون ، وفي المدينة ظلام وجوع وقهر .

كان يعود مع الفجر . يخلع ثيابه ويندس في الفراش . أمي قالت هذا . خشيت أن يكون في خطر ، من جراء الحرص الذي يظهره وهو يتبطن الظلام في انطلاقه من البيت. سألت ربها أن يدفع المصيبة عنا . تهيأ لها أنه ينوي شراً بأحد من الناس . كانت تعرفه ، هذا الكهل الذي مانام على ضيم. تعرف أن له ثأراً . إنه يطلب ثأره ولو دفع رأسه ثمناً . لقد قتل الذين في السراي أناساً من حينا . قتلوا جيراناً من العمال والبحارة . صالح حزوم قُتِلَ أيضاً . إنه يستشعر عذاب الآخرين ، دموعهم ، آلامهم ، ودماءهم . أوصتني أن أخرج وراءه . أن أرصد حركاته ، وأحميه عند الخطر . لكن الوالد ، اليقظ كهدهد أمام الدبيب ، اكتشفني وأعادني

إلى البيت . أمرني بالعودة إلى البيت . كان قادراً أن يقتلني لو عصيت . « ارجع – صاح بي – لا تتدخل في أمر أقوم به أنا » كان صارماً . هذا البحار العتيق ، ذئب الميناء ، قائد المعارك الشعبية ، كان يقود الآن عصابة . رأيت الرجال يخرجون اليه من مخابىء على الطريق . ينضمون اليه ويمضون معه . كان يتقدمهم باسلاً ، شامخاً ، لا يلتفت ولا يتراجع ، كان خفيفاً كالريح ، ضامراً كالحورة ، متوثباً كنمر ، تغزل عيناه ناراً تومض كشرارات في الظلام . وقلت في نفسي : « ضاع والدي» . أكبرته وخفت عليه . تصورته قتيلاً في الصباح . تصورته سجيناً كما في مرسين ، وازدادت أوهامي فتخيلت المصير الرهيب الذي سينتهي اليه إذا لم يكف . كان منظر أحد المشنوقين ، وهو يتدلى من أنشوطة الحبل ، ما يزال حياً في مخيلتي . وخيّل إلي أن مصيره ، حتّى لو نجا من الموت ، سيكون الاعدام بالمشنقة ، ولأول مرة أحببته بجنون ، بعشق ، وتمنيت أن أقبله ، أن أقول له « خذني معك .. أنا ابنك ، أنا سندك ، أنا فداك» ، لكن والدي كان قد أصدر أمره برجوعي إلى البيت ، وكان أمره نافذاً كرصاصة .

عدت إلى البيت مثقلاً بهمومي . لم أقل شيئاً لوالدتي . زعمت لها أنني فقدت أثره في الليل . طمأنتها حتّى نامت ، وبقيت ساهراً إلى الفجر ، إلى حين عودته كشبح انسرب

إلى الداخل دون أن يشعل الضوء . تظاهرت بالنوم ، وعلى ضوء عود من الثقاب ، أشعله ليرى طريقه ، لمحت في يده مسدساً ، أخفاه في الحديقة أغلب الظن ، لأنني رأيته يخرج ويتجه اليها .

كنت أقدر أن والدي لا يخرج بغير سلاح في مثل هذه الليالي . ظننت أنه لا يملك سوى الخنجر الذي أعرف أنه يضعه في مطاوي الزنّار. وسمعته ، بعد المجزرة ، يتحدث عن السلاح . كان يتمنى الحصول على سلاح . إنه عملي من هذه النواحي . يعرف أن يضرب ضربته عند اللزوم ، ينقض على خصومه ، في المواقع التي لا يتوقعون ظهوره فيها ، ويختفي . وكنت على يقين أنه لن ينام على ضيم ، ولن يدع دماء الحي مهدورة . قد يخالف هذا سلوك الآخرين . ربما رفضه المحرضون الذين عادوا إلى الظهور ، لكن والدي يتصرف حسب قانونه الخاص . هو يحب هؤلاء الذين يبشرون بيوم الخلاص ، ويقدم لهم مساندته الشعبية ،وهذا ما فعله يوم المظاهرة ، لكنه إذا جرح انقلب إلى نمر ، ومن الصعب إقناعه بغير الانتقام .

وصرت أنزل المدينة متسقطاً الاخبار . كنت أتصور ، كل صباح ، أن والدي يمكن أن يكون معلقاً في باحة السراي. الفرنسيون طغاة . يقبلون كل شيء إلا حمل السلاح ضدهم. وها أنا ، فجأة ، اكتشفت أن والدي يحمل سلاحاً . يتزعم

جماعة ، ويخرج ليلا ، ثم هو لا يتكلم . يعرف أن يصمت . أن يقود ، أن يواجه العواصف من كل الأنواع ، غير مكترث بالنتائج ، كأنما الحذر ، في مثل هذه المواقف ، كلمة غير موجودة في اللغة إطلاقاً .

وصدقت ظنوني . قتل حارس في السكة الحديدية . قتل خفيران في الميناء . وسمعت، ذات صباح ؛ أن ضابطاً فرنسياً لقي مصرعه ، وقيل إن جثمانه أرسل إلى فرنسا . ونُهب ، بعد ذلك ، مخزن للحبوب ، وسرت شائعة في الحي بأن أكياساً من القمح وجدت في حرج قريب ،زحف اليها السكان وتقاسموها . وتشجع الناس . خرجوا ، كذئاب جائعة ، من أوكارهم ، وراحوا يهاجمون أكوام الحبوب ، في الميناء وعلى أطرافها ، في محطة السكة الحديدية ، في المخازن المنتشرة على طول الشاطىء . وتأكدت أن ثمة عصابات لا عصابة واحدة ، وأن والدي بدأ والآخرون تبعوه ، وأن الموت نفسه لن يوقفهم عن انتزاع لقمة أطفالهم من أشداقه .

اضطربت سلطات المدينة . استدعت مخاتير الأحياء . هددت باعدام « الخارجين على القانون » أعطت الأوامر باطلاق الرصاص فوراً على من يحوم حول الميناء . جن جنون المستشار الفرنسي . ربط بين ما يجري في المدينة والحركات الثورية في المدن الأخرى . أنزل الجنود . سيّر

دوريات مسلحة . قام البوليس بغارات على الاحياء ،وبخاصة على حينا . اعتقل بعضهم . قتل آخرون ، واختفى الوالد نهائياً . لم يعد يظهر في الحي ، وجاء من أبلغنا أنه في الجبل، وبكت أمي كثيراً ، واحترت في ما أفعل . وددت أن أراه مرة ، أن أتحدث اليه ، وأقنعه بالسفر بعيداً ، ريثما تهدأ الحالة في المدينة .

كنت على قناعة تامة أن والدي لا يمكن أن يمكث في الجبل . إن أحداً لم يطرق بابنا ، وهو غير مطلوب بعد ، وربما كان اختفاؤه من باب الاحتياط ، فقد يتوصل التحقيق اليه ، وربما ورد اسمه على لسان أحد الموقوفين ، أو ربما وشى به أحدهم ، وهو لا يريد أن يقع غنيمة باردة بأيدي السلطة ، ويفضل الموت في أية معركة على السجن أو الإعدام.

ومن مخبئه في الجبل أخذ يقوم بغارات على السكة الحديدية والميناء . لكن النتائج لم تسفر عن شيء ، فالسلطة شددت الحراسة في كل مكان ، وبات من الصعب الوصول إلى مخازن الحبوب ، وعاد الجياع يلوبون ، ولم يعد في بيتنا أيما شيء نأكله ، واستحكمت البطالة في كل المرافق،وشرع والدي ، الذي اعتبر نفسه مسؤولا عن حي البحارة ، يفكر بوسيلة تعود بالنفع على الناس الذين أضناهم الجوع ،وتحول بعضهم إلى شحاذين في الطرقات .

كان ثمة باخرة جانحة في البحر . لقد احترقت هذه

الباخرة قبل عام في الميناء . ففي ذات صباح شب حريق هائل فيها ، واتسع اللهب وارتفع عالياً ، لأن الباخرة كانت تحمل محروقات إلى المدينة . تلك الأيام لم تكن في سورية مرافىء بترولية ، ولم تكن أنابيب البترول قد مُدّت ، ولا عرفنا الناقلات ، وكان الكاز والبنزين والزيت يُعبأ في صفائح ، وتأتي البواخر التي تحمل هذه الصفائح فترسو في الميناء ، ويقوم العمال بتفريغ الصفائح ونقلها إلى «الكازخانة» على الشاطىء ومنها توزع على محطات المحروقات وتباع في المدينة ، وتنقل إلى المدن الداخلية للاستهلاك .

إن أحداً لم يعرف سبب الحريق . قيل إن بحاراً ألقى عقب سيكارة مشتعلاً على سطح الباخرة ، وجاء عقب السيكارة في مكان ملوث بالبترول ، فاشتعل لشدة الريح . وقيل إن احتكاكاً بين الأشرطة الكهربائية وقع في أحد العنابر ، فتولدت من الاحتكاك نار أدّت إلى الحريق . وزعم آخرون أن الحريق متعمّد ، وأن القبطان أحدثه بتحريض من شركة بترول منافسة للشركة التي تعود إليها شحنة الباخرة . وترددت شائعات كثيرة لم نعرف مدى صحتها ، فباخرة الشحن هذه فرنسية ، والسلطات الفرنسية هي التي قامت بالتحقيق ، ولم تنشر أي جريدة تفصيلات عن الحادث ، وظل الحريق سراً من أسرار الانتداب الفرنسي .

والدي فكر بهذه الباخرة . الأصح أنه فكر بالبحر

ففكر بالباخرة التي في البحر . كان ، وهو على قمة الجبل ، كأنه على ذروة موجة . لم يكن يكره الجبل ، لكن البحر كان شيئاً آخر ، يحياه من الداخل . ومرة قال لي ، بعد أن عملت في الميناء : « انتظر اليوم الذي تسافر معي في البحر. أنا لا أورثك شيئاً إلاّه . البحر لا صاحب له . البحر صاحب الدنيا ووالد الأرض . منه ، من مائه ، انفصلت اليابسة وجفّت . هكذا سمعت . وقد صدقت ما سمعت . البحر سيد الوجود . فخذه على أنه كذلك ، وأحبه على هذا الأساس. أحب البحر تحبني . أو أحبّني تحب البحر ، فأنا وهو شيء واحد . لقد امتزج دمي به ، وكثيراً ما جُرحت ، في السفر أو الصيد ، فكنت أضع طرفي المجروح في الماء ، كي يمتص البحر دمي ثم أمتص ملحه فنتآخى . من أجل ذلك أصبح البحر أخي وأصبح عملك . إنه أخي ولن يغدر بي . لجته بيتي وحديقتي . قاعه دنياي ، فالسندباد لم يعثر ، في كل رحلاته على أغنى منها . ولو ضاقت بي الأرض يوماً، فسألوذ به ، وسيحميني . أستطيع فيه أن أحيا ، ثم في النهاية أموت . ترى يسمحون بدفن الناس في الماء ؟ لا ، هذا مستحيل ، إلا إذا متّ على ظهر باخرة مسافرة . أنا لا أتمنى أن أموت على ظهر باخرة مسافرة بعيداً عنكم ، ولكن إذا متّ فادفنّي في البحر ، أو على مقربة منه ودع قبري يشرف عليه ، لعلي من تحت الثرى أتأمله في الصباح وفي المساء ،

حين يكون حلواً ، وديعاً رائقاً ، ويكون سطحه الرصاصي ملعباً للاشرعة البيض ، وسماؤه فضاء رحباً لطيور النورس. أفكر : أية عقوبة ، يمكن أن تنزل بي ، وتكون أقسى العقوبات على نفسي ؟ وفي الجواب أقول : البعد عن البحر. لو فرقوا بيني وبينه لقضوا علي ، ولو حكم علي يوماً أن أبقى في الجبل ، لانتحرت . محال ! لا أستطيع العيش دون هذا الأزرق الحبيب ، وسأجازف بكل شيء حتى أعود اليه».

خواطر والدي كانت إيمانه . كلمته قَسَمه.إذا قال فعل. أعرف هذا عنه ، ومن أجل ذلك أدركت ، يوم بلغنا أنه في الجبل ، أن حياته هناك لن تطول ، وأنه سيأتي البحر ولو كان موته على شاطئه . سيأتيه عاشقاً ، كما يأتي امرأة معشوقة ، وسيجد ألف عذر لذلك . وتمنيت أن يوفق ، حين يأتي البحر ، إلى مركب مسافر يبحر معه . فهناك في الغربة ، يكون سالماً . سيتعذب لأنه غريب ، وسنشعر نحن بالغربة بعده ونتعذب ، لكن العذاب يهون مادام سالماً من الأذى .

ولقد صممت ، إذا جاء أحد من عنده من هناك ، أن أذهب اليه ، محاولاً اقناعه بالعودة إلى مرسين ، بالسفر إلى مصر ، بالعمل على أية سفينة ، وأنا أقوم مقامه برعاية البيت ، وإعالة الأسرة . سأقول له أشياء كثيرة ، عاطفية ، وأصر عليه ، وأقبل يديه وقدميه ، ولن أدعه قبل أن يستجيب

لطلبي .. إن قلقي لن يهدأ قبل سفره ، والبيت لن يعرف طعم الراحة قبل أن يتحقق ذلك ، وعلى الذين معه أن يقنعوه بدورهم . أن يشعروه بالخطر ، وبالضرورة القصوى للرحيل ، فبحّار مثله ، معتدّ بنفسه ، مُفادٍ بحياته ،لايقوى على البقاء بعيداً عن البحر ، ولا يقوى على القعود عن العمل. ولن يحتمل حياة التشرد والبطالة طويلاً .

ولم يكن حولي من أفضي اليه بهواجسي . أنا لا أستطيع أن أقول هذا الكلام لوالدتي . إنها لا تعرف مكانه ، ويجب أن تبقى جاهلة ، ولا تدرك مدى الخطر المحيق به ، ومن الأفضل لها أن تبقى كذلك . ثم إنني أخاف أن أبوح بهمومي للآخرين . للجيران أو البحارة . السر إذا تجاوز الاثنين شاع . لقد ائتمنني والدي على سره . بعث يخبرني أنه في الجبل . وعلي أن أكتم السر وأصمت . يجب أن أطبق شفتي وأتظاهر بالهدوء في البيت وخارجه .

ونقل إلي أحدهم ، ذات يوم، أن بحارة الحي اهتدوا إلى «كنز» .. أدهشني الخبر . ظننت أنهم اكتشفوا مستودع حبوب بغير حراسة ، أو أنهم استولوا على أموال للدولة ، أو اقتحموا أحد بيوت الأثرياء . وقال ناقل الخبر : « لا . لم يحصل شيء من هذا .. « الكنز » في البحر ، ولا صاحب له ، ألا ترى صفائح الكاز التي ملأت الحي والمدينة »؟. راقبت ذلك في الأيام التالية فوجدت الخبر صحيحاً .

كان البحارة يقومون ليلاً بنقل صفائح الكاز وبيعها سراً . يتعاقدون مع أصحاب محطات المحروقات ، مع أصحاب الدكاكين ،في النهار ، ويقبضون جزءاً من ثمن البضاعة التي تأتيهم ليلاً ، وهكذا يشترون مقابل المال الذي يتحصل لديهم بعض الحبوب والخبز ، ويقدمون مساعدات لعائلات العمال ، وتأتينا حصتنا التي تسلم إلى الوالدة سراً .

كان الموضوع ، في ذاته ، طريفاً ومفرحاً . البحارة لا يهاجمون « الكازخانة » ، بل يستخرجون الكاز من البحر. معنى هذا أن الحكومة لا شأن لها بهم . وإذا كان لها شأن ، فان ذلك سيكون اعتداء . سيكوان تحرشاً بالبحارة لمنعهم من عمل يدر عليهم ما يسد الرمق . لكنني تساءلت : « هل طلع للبحارة بئْر كاز في البحر ؟ وإذا كانت مثل هذه البئْر قد وجدت فجأة ، فمن أين الصفائح ومن يملأها ؟ ولماذا تتم العملية في الليل وسراً ؟ وهل بلغ ذلك الحكومة وأغضت عنه ، كي يجد الجياع ما يأكلون ، أم أن الذين تتم العملية بينهم يكتمون السر »؟ .

وعرفت ، بعد أسبوع ، أن صفائح الكاز تُستخرج ليلاً من الباخرة الجانحة ، التي احترقت في الميناء وسحبت إلى الجهة الجنوبية الغربية من البحر ، مقابل حيّنا تماماً . وكانت الباخرة تبين لنا في النهار ، على مقربة من الشاطىء، مغمورة كلها بالمياه ، لا يظهر منها سوى أطراف صواريها.

ومع أننا كنا في الصيف نسبح على الشاطىء ، فان أحداًمنا لم يذهب اليها ، ولم يقترب منها ، خوفاً من أن يتعرض للأذى ، بسبب ما يطوف حولها من بترول ، أو مايكون على سطحها من أدوات جارحة . وهكذا ظلت الباخرة مهجورة ، غارقة ولا أمل في تعويمها أو انقاذها ، ولم تفكر الحكومة ، طوال سنوات ، في أمرها ، ويبدو أن الشركة التي تملكها يئست منها ، ولم تجد فائدة في العمل لاستخراج محتوياتها ، لأن ذلك يكلفها أضعاف ثمن البضائع التي فيها ، إذا ما جرّبت أن تأتي بالغطّاسين ووسائل التعويم .

بحّارتنا الأفذاذ تولّوا أمرها . صاروا ينزلون اليها ليلا ، في ضوء القمر ، ويغطس أحدهم إلى عنابر الصفائح ، ويقتلعها من أماكنها ، ولأنها تعوم فان دوره يقتصر على اقتلاعها ، ويتكفل البحر باخراجها إلى السطح ، حيث يكون البحّارة الآخرون بالانتظار ، فيدفعونها أمامهم إلى الشاطىء ، ومن هناك يحملها آخرون إلى الأسواق والأحياء ومحطات المحروقات فيبيعونها .

كانت العملية كلها مغامرة مثيرة . « ليس للبحّارة سوى البحر ». هذا ما كانوا يقولونه في الحيّ . « البحر الكريم، أعطى . لقد عرف أننا جياع » ولكن البحر ، لكي يعطي ، يحتاج إلى رَجُله لا إلى تعويذة ، فمن ذا الذي فكر بأمر هذه الباخرة المحترقة الغارقة ؟ أية فكرة شيطانية نبتت في دماغه

فنفذها بجسارة كهذه ؟ لا بد أن يكون بحاراً شجاعاً ، مجرباً ، يمتلك طاقة كبيرة لا على السباحة وحدها ، بل على الغوص أيضاً ، على نَفَس مديد يساعده في النزول إلى عنبر الباخرة واقتلاع صفائح الكاز منه .

خطر لي أن أشارك في هذا العمل الجماعي ، الذي يعود نفعه على الحي كله . كنت أعرف في نفسي القدرة على الغوص . هذه الميزة البحرية اكتسبتها من والدي . هو أيضاً يغوص . والمسألة هنا لا تتوقف على طول النَفَس ، بل على قوة الساعدين ، ورشاقة الحركة ، ومعرفة أصول الانسياب تحت الماء . والدي هو الذي درّبني على الغوص . كان يريدني مثله في كل شيء . البحار يحتاج إلى المهارات الأساسية ، ومنها وفي مقدمتها الغوص في البحر . النزول إلى الأعماق ، والصعود باندفاع ، كصاروخ ، كجسم مدفوع من القاع بضاغط شديد القوة .

وقلت في نفسي : « والدي لم يسمع بحكاية الباخرة هذه . لو كان على البحر لم يسبقه أحد في النزول إلى أعمق عنبر فيها . هو وحده كان قادراً على الغوص إلى الأعماق ، واستخراج كل ما في جوف الباخرة من صفائح » . وتوقعت أن يصله الخبر فيأتي . إنه لن يتخلف عن عمل كهذا . سيندفع اليه غير مبال بالخطر . وعندئذ تستطيع الحكومة أن تنصب له كميناً وتصطاده . الباخرة « طعم » قاتل . طعم

جدير باجتذاب جميع البحارة ، وليس على السلطة إلا أن تصنع منه فخاً لهذه الطيور البحرية . وفرحت في سرّي لأن والدي في الجبل وليس على البحر . قلت : « أنوب عنه.. أعرض نفسي على البحارة ،أتطوع للغوص في عمق الباخرة ، وحين يسمع والدي بما قمت به سيكون مسروراً «سيزهو ويفخر ، سيقول : « هذا هو ابني » ، لعله أن يقتنع بأنني صرت رجلا ، صرت بحاراً ، وأنني خليق أن آخذ مكانه في الميناء وفي البيت ، فيرضى ، عندئذ بالسفر ، وينجو من حبل المشنقة .

نمت على هذا الأساس . كنت سعيداً بالوصول إلى هذا القرار . من الصباح – قلت في نفسي – سأذهب إلى من أثق بهم من بحّارة الحي . سأعرض نفسي للعمل . سأصرّ على أخذي معهم . سأقول لهم : أنا نيابة عن الوالد . إذا كنتم ترعون خاطره ، وتريدونه ألاّ يخاطر بنفسه ، أشركوني في هذا العمل الذي تقومون به . دعوني أساهم في قضية حيّنا الجائع ، دعوا الشباب يتقدّم للتمرس ، وسيوفرونكم لعوائلكم ، وربما كانت عقوباتهم أخف ، فالسلطة ليس لها عندهم شيء .. إنني ، مثلا ، غير مطلوب ، وعقوبتي ، في حال القبض علي ، لن تكون كعقوبة الوالد .. أنا لم أشترك في أية غارة على مخازن الحبوب ، ولم أقتل أي شرطي أو أي فرنسي ».

تناهبتني الأفكار . كانت أفكاراً حماسية سعيدة . كنت أنتظر طلوع النهار بفارغ صبر . جفاني النوم ،ورحت، كعاشق ، ألاحق تفصيلات صورة الحبيبة ، صورة القضية التي ملكت علي زمام نفسي . صار همّ الحي همّي . أحسست بمسؤولية كبيرة . تخيّلت نفسي منغمساً في المغامرة الليلية . أمشي متخفياً . أنزل البحر مع النازلين ، وأقوم وحدي بعمل لا يستطيعه أربعة غيري .. إنني سبّاح ماهر ، غطّاس لا يجارى ، وسيكون في مقدوري أن أنزل إلى عمق لا يبلغه الآخرون . إن هذا وحده سيجعلني محترماً من الآخرين ، مرموقاً بينهم . وفي النهار ، حين أطوف في الحي ، وأرى الصبايا ، سيكون احساسي الداخلي على درجة كبيرة من الزهو ، دون أن أبوح بشيء عما قمت به في الليلة الماضية . الحي جائع ؟ حسناً ! انني اساهم في توفير اللقمة له . لقدكبرت . صرت شاباً ، صرت رجلا ،صرت بحّاراً . أنا سعيد حزوم ، ابن صالح حزوم ، الرجل الذي أنقذ في مرسين السفن والمراكب في النهر ، وكانت له مواقف مشهودة في البحر ، والذي حمى حي « الشرادق» من هجمات الأتراك . لقد دخل السجن لنضاله ضدهم ، وأنا أدخل السجن لنضالي ضد الفرنسيين . أكون بذلك لائقاً بالاسم الذي أعطانيه ، خليقاً بالبنوّة التي اكتسبتها ، وبروح البحر التي نفخها في جسمي ، وبشرف الرجولة التي

كانت لوحة على باب بيتنا . هكذا أدخل الحياة البحرية من باب المغامرة أكبر بسرعة . أساوي قدماء البحارة . أسجّل أول نقطة في دفتر حياتي البحرية . وغداً حين ألتقي والدي، سيكون دفتري في يميني ، سيكون شهادة على أنني أصبحت في المرحلة التي يصطحبني فيها معه في البحر ولا يندم . سيقول الناس : «كان بحّاراً وخلّف بحّاراً» وفي المرافىء، حين يصل المركب الذي أعمل عليه ، سيكون عليهم أن يعاملوا الابن كما كانوا يعاملون الأب ، وسأكون ، أنا الذي من صلبه ، سيرة متمّمة لسيرته ، وصورة شابة من صورته في كهولته » .

لا أدري إلى أي ساعة بقيت هكذا ، يقظ الأعصاب ، منفعل النفس ، مهتاجاً بتخيلاتي التي يتوالد بعضها من بعض، ثم تمتد وتتشعب ، وتجرني معها تارة إلى الماضي ، وطوراً إلى الحاضر ، ثم تجمح بي إلى المستقبل ، فيتهيأ لي أنني أنجزت مهمتي في البحر على ما يرام ، وحققت مهارتي البحرية على نحو رائع ، وصرت حديث الناس ، وموضع اهتمام الصبايا ، وانهالت علي عروض العمل ، عندما تعاود الحركة ميناءنا الراكد الآن . إن الأحلام ، حينما تكون في يقظة مسهدة ، تصبح من الخصب بحيث تكر مثل « كبكوبة » خيوط حريرية ، وتتفتح عن رؤى بعذوبة ولطف الصور الجنسية في خيال محموم لفتى مراهق ، حتى

أنني حاولت ، عدة مرات ، أن أوقف انثيالها في المخيلة ، أن امتنع عن متابعتها والتلذذ بها ، فأفلت الأمر من يدي ، وصارت حالة عصبية مسيطرة علي ، وصرت أسيراً لها ، أجوس جنانها الوارفة ، وأقطف ثمارها كأن كل شيء قد تحقق وفق تصوري له .

عند الفجر أغفيت . كفّ ذهني عن توليد الصور . غلب النعاس على يقظة الأعصاب . نمت نوماً سعيداً ، كأن حياة أخرى ، سعيدة ، ماجدة ، بهيجة ، قد فتحت لي ذراعيها ، وربما ، لو قدر لي ، أن أرى نفسي وأنا نائم ، لرأيت طيف ابتسامة على شفتي . كنت فعلاً أبتسم . أحشائي تسرّ بما يختلج فيها من بشارة أنا كنت فيها البشير والمبشر . كنت كالفتاة التي ابتسم لها فتاها لأول مرة ، أغزل من أشواقي قمصاناً ملونة لعرسي المقبل . وفيما كنت أهيم في وديان الرؤى المحمولة على أجنحة نور تحلّق بي في فضاء فسيح ، سمعت ، بين النوم واليقظة ، طرقاً على الباب . لم أستيقظ فوراً . تركت نفسي لأحلامي وسعادتي ،وتقلبت في الفراش ، غير راغب بانقطاع طيراني الخفيف ، الماتع ، بين السحب الوردية . لكن الطرق تعالى ، وسمعت من ينادي باسمي :

– سعيد ، يا سعيد ، افتح يا سعيد !

رفعت رأسي عن الوسادة . فركت عيني لأطرد النوم الذي يثقل جفوني . أصغيت في نوع من شك ودهشة إلى الطرق ، وإلى إسمي الذي ينادي به أحدهم من الخارج ، وحين تأكدت أن الصوت حقيقة ، وأن هناك من يطرق الباب ، نهضت دون أن أشعل الضوء ، وصحت من وراء الباب المقفل :

– من هناك ؟ من ينادي ؟

وجاءني صوت بحّار أعرفه :

– أنا بدر .. افتح .. أريدك في مسألة مستعجلة .

أفاقت والدتي وصاحت :

– من هناك ؟ من يطرق الباب ؟ وماذا يريدون ؟

تنبّهت فوراً إلى دوري كرجل بيت . عمدت إلى تهدئتها وإبقائها في الفراش كيلا تنهض وتلحق بي إلى الخارج. قلت :

– لا شيء .. هذا بدر.. يريدني في مسألة .. نامي أنت..

لكنها كانت قد صارت ورائي ، وهي تقول :

– ماذا يريد بدر ؟.. أية مسألة دعته إلى إيقاظك ؟.

– لا أدري .. انتظري قليلاً ..

– سأخرج معك .. قلبي يحدّثني بشر ..هل حدث سوء لوالدك ؟ .

وقلت بنبرة زجر ، محاولاً تقليد والدي :

– لا تخرجي .. هذا ليس شغلك .. والدي بعيد ولا خطر عليه .. ما هذه الأفكار ؟ .

دسست قدمي في حذائي وأنا أتلمسه في العتمة .فتحت الباب وخرجت .كان بدر يقف بعيداً . ناداني اليه ، وطلب مني أن أرافقه ، دون أن يفصح عن المسألة التي جاء يوقظني لأجلها . وخرجت والدتي حافية في أثري ، ملحّة في سؤالها عما هناك ، مصرّة على اتباعي إلى حيث أذهب ، وعدت اليها أقنعها ، ثم أزجرها ،وأخيراً استعملت يدي في دفعها إلى الداخل وإغلاق الباب ورائي .

مضينا في العتمة ، بدر من أمام وأنا من وراء . كنت أسرع لألحق به ، وكان يسرع ليبتعد عني . خشي أن أسأله ماذا هناك . فرّكيلا يروي لي ماحدث . كان غبش الصباح يعطي جسمينا شكل شبحين ينسربان بين الأشجار والأدغال. أحسست ببرد خفيف . النجوم مازالت عالقة في القبة .نجمة الصبح تلتمع مدلّة بمكانتها وحقيقتها بين النجوم . السماء زرقاء صافية ، وسحب رقيقة ، في تشكيلات فوضوية ، تخفّ مدفوعة بريح رهوة ، والطريق أمامي متعرّج ، يدور بين الأدغال ويمضي باتجاه البحر . وتساءلت في نفسي : « إلى أين »؟ وصحت بأعلى صوتي :

– بدر ! قف .. أريد أن أعرف .. الآن ، في هذه اللحظة ، ماذا جرى ؟ .

– أنا لا أعرف .. البحارة طلبوا مني أن آتي بك .. إنهم ينتظرونك هناك ، قرب الفنار .

– لكنك تعرف ما هي المسألة على كل حال.. لقد كنت معهم ..

– أنا لم أكن في الباخرة ..

– أية باخرة ؟ .

– الباخرة الغارقة .. هذه التي أمامنا في البحر ..

– وأي شأن لي بها ؟.. إنني لم أكن فيها أبداً .. لم أنزل اليها ...

– ربما يريدونك أن تنزل ..

خفق قلبي . لقد فكروا بي أخيراً .. حلمي يتحقق.. وقلت بيني وبين نفسي : « أنزل فوراً .. دون تردد » لكن فكرةً خطرت لي .. شكاً نبت في ذاتي،فالنزول إلى الباخرة يكون ليلاً ، ونحن في الصباح ، وفي هذا الوقت ينتهي العمل ، يعود البحارة إلى بيوتهم أو مخابئهم ، وتبقى الباخرة وحدها ..

– إسمع يابدر .. أنا لم أقتنع بما تقول .. هناك مسألة أخرى .. مسألة خطيرة ، وإلا ما بعثوك في طلبي .. قل لي، أرجوك ، ماذا جرى ؟ .

لم يلتفت بدر إلي . تجنّب أن ينظر في عينيّ .. كان يسرع ، وكنت أسرع وأسير بمحاذاته ، وأمسكته من كمه وقلت :

– ألن تخبرني ؟.. ألست صديق والدي ؟.

لم يجب بدر . فتح فمه وأطبقه . بان عليه الارتباك . وبرغم الغبش لاحظت أنه يخفي عني شيئاً ، فازدادت وساوسي ، ووجدت نفسي أحضنه بذراعي ، وأرمي برأسي على صدره وأنا أنشج :

– قل لي .. ماذا هناك ؟ هل قبضوا على والدي ؟

– لا ، لم يقبضوا عليه ..

– قتلوه !؟ .

– ولا هذا ..

– يطاردونه ..

– ربما ..

– وما شأني أنا ؟ لماذا استدعوني ؟..

– قلت لك لا أدري .. ربما كي يخبروك .. كي يقولوا لك ما يجب أن تفعل .

قالها وتخلص مني ، وعاود سيره السريع وأنا وراءه . لقد تأكدت الآن أن الأمر يتعلق بوالدي . الخطر يحيق به. وقد يكبسون البيت . وربما تحرّوا الحي ، إن أحداً وشى به.

لقد علموا ، بطريقة ما ، بدوره في الغارات على مخازن الحبوب ، وفي مقتل الدرك والضابط الفرنسي . توصلوا إلى حقيقته وشرعوا بمطاردته . إن عليه أن يختفي بأعالي الجبال . عليه أن يفر إلى منطقة أخرى . الآن غدا محاصراً. الحلقة ستطبق من حوله يوماً بعد يوم . لن يكون في وسعه أن ينزل المدينة ولا أن يسافر في البحر ، فات أوان السفر في البحر . عليه أن يعيش ملاحقاً حيث هو ، وعلي أن أجد وسيلة للاتصال به . سأذهب اليه ليلا . سأقطع الجبال مشياً. سأنضم اليه وأحارب الفرنسيين . نموت معاً أو ننجو معاً .. هذا أفضل .. انني أفتديه بروحي ، وسأقول هذا للبحارة وأطلب مساعدتهم .

قرب الفنار ، عند شجرة دلب ، كان يقرفص أربعة أو خمسة من البحارة . كانوا يدخنون صامتين ، ومن عيونهم الحمر ، المحترقة بالملح ، ووجوههم المنداة ، وثيابهم التي تلتصق على جسومهم ، عرفت أنهم كانوا في البحر . هؤلاء من رجال الليل ، من رجال المغامرة ، وربما كانوا من المطلوبين ، وقد عملوا حتى الصباح ، وهم في طريقهم الآن إلى الاختفاء ، وينتظرون وصولي .

نهضوا مذ دنوت منهم . سلموا علي بحرارة . كان لديهم ما يقولونه لكنهم محرجون . طالعت الحزن والأسى والحيرة في وجوههم . سألتهم عما هناك ، ولماذا أيقظوني في

مثل هذه الساعة ، فقال أحمد المستكفي ، وكان بحاراً جيداً، شجاعاً ، معروفاً في الحي ، ومن أصدقاء والدي :

— خير ياسعيد .. ليس هناك إلا الخير .. ماهي أخبار الوالد ؟ .

دهشت للسؤال . كان مباغتاً لي . اطمأننت قليلاً . كنت أتوقع أن يفضوا لي بخبر عنه . حدست الأسوأ فظننت أنهم يحملون إلي خبراً فاجعاً عنه . قتل في معركة ، أو جرح وهو ملقى في الجبل ، أو قبض عليه وهو يتدلى الآن من خشبة المشنقة في باحة السراي ، فمن عادة الفرنسيين أن ينفذوا الاعدام في الفجر .

قلت وأنا أرتجف :

— تسألوني عن الوالد وأنتم أدرى بأخباره .. إنه معكم، وكنا ننتظر خبراً منه ، رسولاً يأتي من الجبل ، أو اشارة من أيّما جهة تعلمنا بمصيره ... فماذا حدث ، قولوا ... لا تخفوا شيئاً عني .

قال أحمد المستكفي وهو يشعل سيكارة :

— أنت شاب ، ولن نخفي شيئاً عنك .. والدك بخير ..

— وأين هو ؟ .

— في البحر ! .

— هل سافر !؟ .

ـ لا نعرف بالضبط .. سمعنا أنه في البحر .. ونحن نبحث عنه .

اشتممت رائحة ما في أقواله . أدركت أنه يعرف أكثر مما يقول . لقد وقع لوالدي مكروه . هذا واضح من وجوههم يريدون اعلامي بالتقسيط . وربما استدعوني ليحتجزوني ، كيلا أقوم بعمل طائش ، كيلا أنتقم لوالدي في فورة حزن أو غضب .. يا إلهي ! ياربي ، ماذا جرى لوالدي ؟.

ـ اسمعوا .. والدي غير ضائع حتى تبحثوا عنه . إنه في الجبل .. فاذا نزل البحر فلا بد أن يكون معكم ، وبمعرفتكم .. هيا ، قولوا كل شيء دفعة واحدة .. ياعم أحمد قل ماذا جرى .. أخبرني ، لاتعتبرني ولداً صغيراً .

وقال أحمد المستكفي :

ـ معاذ الله ! معاذ الله ياسعيد .. أنت شاب .. أنت بحّار .. أنت بمقام صالح حزوم بيننا ، ولا حاجة إلى اللف والدوران ..

وبعد أن عبّ نفساً من سيكارته أضاف :

ـ والدك نزل من الجبل .. كنا معاً هذه الليلة .. عملنا معه ، منذ مدة ونحن نعمل معه ..

ـ تعملون بماذا ؟ .

أشار إلى الباخرة الجانحة وقال :

ـ في هذه الباخرة .. كنا نستخرج تنكات الكاز منها .. هو صاحب الفكرة ..

قاطعته غير مصدق :

ـ والذي صاحب الفكرة ؟ .

ـ ومن غيره ؟ إنه أخونا ، معلمنا وتاج رأسنا ..

ـ لكنه في الجبل .. كل علمي أنه كان في الجبل ..

ـ هناك نبتت الفكرة في رأسه .. كنا على اتصال دائم به ، ننقل اليه أخبار الحي وأعمال الفرنسيين ، وكان حزيناً لضائقتنا ، يتألم للشدة النازلة بنا ، ويشعر بالجوع مع أصغر طفل في حينا .. وذات ليلة قال لنا : « قوموا معي ، وجدت حلاً لمشكلتنا . لن نموت ونحن مكتفو الأيدي .. الجائع يقتل أو يقتل ، وكله سواء .. الحياة تجعل الانسان ذئباً .. وهذا أفضل .. أن نكون ذئاباً ونرمى بالرصاص خير من أن نبقى جياعاً كالكلاب ، يهرّون علينا بالعصي ...

وسألناه :

ـ وما هو الحل ؟ .

ـ الباخرة ..

ـ أية باخرة ؟

ـ الباخرة الغارقة ..

ـ نعوّمها ؟ .

ـ نستخرج تنكات الكاز منها ..

دهشنا للفكرة .. كانت آخر ما يمكن أن يخطر في بالنا.. كانت فكرة جريئة ، جيّدة ، فاذا ما توفقنا استطعنا أن ننقذ الحي من الجوع .. السلطة لن تفكر بحراسة باخرة غارقة . ولا يمكن لأحد أن تخطر له الافادة من باخرة غارقة. إنها مشاع .. من صاحبها ؟ البحر سيأكلها .. لقد تركوها غنيمة للبحر .. وها نحن نزاحمه .. قدرنا أن نزاحم البحر ، أن نستخلص لقمتنا من فمه ، أن ننال رزقنا من مائه ..

وقال والدك :

ـ البحر كريم .. ماوقعت في شدة إلا وكان البحر عوني للخلاص منها ..

ـ وماذا ترى ؟

ـ أن ننزل اليها هذه الليلة ..

ـ دعنا نرسل اليها من يكتشفها في النهار ..

ـ لاحاجة لذلك .. إتبعوني ..

وتبعناه .. نزلنا من الجبل .. انقسمنا إلى مجموعات صغيرة .. تسللنا من الجنوب .. هناك لا حراسة ولا سلطة.. بلغنا الشاطىء المقابل ونزعنا ثيابنا .. سبحنا اليها وصرنا على سطحها .. ساعدنا ضوء القمر ، وشرح والدك فكرته : « أنا أغطس إلى القاع ، إلى عنابر الباخرة ، وأعوّم الصفائح ،

فاذا طفت على السطح خذوها إلى الشاطىء وهناك نفكر بكيفية تصريفها ...

وقلت مستعجلاً الوصول إلى النهاية :

ــ وبعد .. خبروني .. ماذا جرى لوالدي ! ؟

ــ لا ندري ..

ــ ياعم أحمد ..

ــ آه يابني .. والدك ، كعادته منذ أسبوعين ، ظل ينزل إلى الباخرة ويعوم الصفائح .. واليوم ..

صحت وقد ارتعدت لفكرة غرقه :

ــ هل أصابه مكروه ! ؟

ــ لا ندري .. نزل ولم يطلع .. انتظرناه طويلا .. غطسنا وراءه ، ومضت الساعات ولم نقف له على أثر .. فقررنا أن نستدعيك .. لتقوم بالبحث معنا ..

ضربت على رأسي . أدركت أكثر من الجميع أن والدي غرق .. محال أن يكون حياً حتى هذا الوقت .. ومحال أن يذهب إلى أيما جهة دون إعلامهم .. إنه في الباخرة .. والدي ما يزال في الباخرة ، وقد مات .. لقد مات والدي ... وانفجرت باكياً ، وشرعت أركض باتجاه الباخرة .. معتزماً البحث عنه بنفسي ، ولو كلفني ذلك حياتي .

كان الصبح قد أشرق ، ولا بد للعم أحمد والبحارة

الآخرين من الاختفاء . وقد احتضنني قبل ذهابه وقال : « اسمع ياسعيد .. نحن لا نستطيع المكوث معك . سنبعث بالفتيان اليك . وفي الليل نعود . جربوا ، في ضوء النهار ، أن تقعوا له على أثر . وفي الليل ، إذا فشلتم ، سنعاود البحث بأنفسنا .. المصيبة كبيرة . فقدان والدك مصيبة كبيرة ، خسارة الحي لا تعوض ، لكن القدر ، هذه المرة ، كان أقوى منا .. صالح ضحى بحياته لأجلنا . لن ننسى هذا أبداً. الحي لن ينسى ، وكذلك البحارة . لقد كنا مستعدين ، كل بحار كان مستعداً ، أن يفتديه بروحه ، لكنه ، هو الكبير فينا ، افتدانا بروحه .. ذهب شهيداً يابني ، وإذا كان قد مات ، فروحه الآن في علّيين .. الكارثة رهيبة ، وعلينا أن نتحملها بصبر وشجاعة ، وأملنا فيك ، وكذلك ثقتنا ، فتصرّف بحكمة ، بعقل ، ولا تجازف ، حتى لا نقع في كارثة أخرى لا سمح الله .. والآن بخاطرك .. كن رجلا ، كن بحّاراً مثل والدك ..».

بعد ذلك قبّلني . ابتل وجهي وهو يقبلني . كان يبكي. وكان يتكلم ، وكنت في عجلة من أمري ،لا أصدق بالوصول إلى الماء ، فتخلصت من ذراعيه ، وافترقنا .. وكان هذا آخر لقاء بيننا ، فبعد أسبوع سيقتل هذا البحار العزيز ، وسيعدم اثنان من البحارة الذين كانوا معه .. وسيهبط ليل من الحزن على الحي ، وينطوي الناس على جراحات حفرت

عميقاً في الصدور .

أيها البحر ، يا بحرنا ، ياصديقنا ، لماذا غدرت ، هكذا، بنا ؟ ألم يكن صالح حزوم أخاك ؟ وهل يقتل الأخ أخاه؟ وكيف ، بعد هذه العشرة الطويلة ، نكثت بالعهد ؟ أمهلته حتى عاد إلى الوطن ؟ أردته أن يكحل عينيه بمرأى الوطن؟ ضقت ذرعاً بتحدياته ؟ كرهت شجاعته فقتلته لأجلها ؟ تريد أن تبقى وحدك الشجاع ؟ وحدك الملك ؟ والذي لم يخطر له أن ينازعك الملك . كان واحداً من رعاياك،واحداً من جندك ، واحداً من بحارتك ، فهل يقتل الملك رعاياه وجنوده وبحارته ؟ كرمى لمن فعلت ذلك ؟ وعلى اسم من كانت الضحية ؟ مبارك أنت ، على كل حال ، مبارك ماؤك وسمكك ومرجانك ، مبارك في رضاك وغضبك ، مبارك في عطاك وفي أخذك ، ولتتكرم ، يابحرنا ، أن تعيده الينا .. أعده ولو جثة ، ويسّر لي أن أعثر عليها ».

هل فهم البحر شيئاً مما دار في خاطري ؟ كنت أتكلم بغير صوت . كان الموج يتكسر على الشاطىء لا مبالياً ، وكان الزبد يترك تخاريمه المنمنمة على الرمل ، وكان الخرير موسيقى هادئة ، والهدير رتيباً ، يكرر قافيته في إيقاع ينداح دوائر في الريح الصباحية الخفيفة ، والشمس ، من جهة الشروق ، تضرم ناراً أرجوانية في السحب ، والبحر مدى رائق ، منبسط ، بغير نهاية ، واعراف الموج ، في تدحرجه

الكسول إلى الشاطىء ، تترك وشحات بيضاء ، وهي وحدها تخالط الزرقة المبتسمة لأشعة الشمس الأولى . وفوق السفينة الغارقة تحوم طيور بيض ، وبعضها يقف على رأس الصواري البارزة من الماء ، والموج يرتطم على جسم السفينة . وداخلها يرقد والدي الذي تحققت أمنيته : أن يموت في البحر ، كما عاش فيه .

بقي معي اثنان من البحارة . ومقابل الباخرة رأينا عدة جال . لم تكن هناك صفائح ولا آثار . اختفى كل شيء . سنقول لرجال السلطة ، إذا جاءوا ، إنه كان يصطاد على ظهر الباخرة . هذا يجنّبنا إثارة فضيحة . يرفع عنا المسؤولية. إنني ابنه . ومن حق الابن أن يبحث عن أبيه . لادخل للسلطة هنا . ليس في الأمر جريمة . حادث غرق . قضاء وقدر . سأدلي بشهادتي عند اللزوم . سأصر عليها . الحي لا علاقة له ، وكذلك البحارة . ولن أطلب مساعدة ، وحدي سأبحث . أنا واثق من قدرتي على البحث . والدي درّبني على الغوص . هـل كان يحزر أن ذلك سيكون ضرورياً لي ؟ وهل كان يقدر أنني سأبحث عنه ؟ وهل من الأفضل أن أبقيه حيث هو ، راقداً في أحضان البحر ، أم أخرجه لأدفنه كما يليق ، في تراب الوطن ؟

نزعت ثيابي إلا من السروال الداخلي . وقال أحد البحارة :

– انزع السروال الداخلي أيضاً .

– لماذا ؟ .

– لأنه يعيق في الغطس داخل الباخرة ..

– كيف ؟ .

– قد يعلق بمسمار ما وأنت نازل أو طالع ..

وقلت بيني وبين نفسي : « هذا حق .. إنها فكرة جيدة .. ربما نسيها والدي . الباخرة ملأى بالأوتاد والمسامير ، ملأى بالنتوءات التي تعلق بها الثياب ، وربما كان سروال والدي الداخلي هو السبب .. لقد نسي أن ينزعه . لم يلفته اليه أحد . فكان السبب في غرقه ..».

لكنني ترددت في نزعه أمام الناس . عورتي لم تنكشف لإنسان بعد ، فكيف أكشفها الآن ، وكيف أعود إلى الشاطىء ، إذا ما تجمع عليه أهل الحي بعد قليل ؟والبحر؟ أنزله هكذا عارياً ، كما أيام الطفولة ؟ كان علي أن أفكر ، أن أتدبّر الأمر ، غير أن البحار عاد إلى تنبيهي :

– اخلع سروالك ياسعيد .. لاتكن خجولاً ..الرجل لا يخجل من رجل مثله .

وقررت :

– سأخلعه على ظهر الباخرة .. هناك أفعل ذلك ..لدينا متسع من الوقت .. لن أكرر خطيئة والدي .

وقال البحار :

ـ ما أظن والدك قد أخطأ .. هو المتمرس بالبحر لايقع بخطيئة قاتلة كهذه ..

وقلت في نفسي : « من يدري ، إنه قد يرفض التعرّي أمام الآخرين . أنا أعرفه .. كان شديد العفّة ، كثير الحياء ويحافظ ، في كل الظروف ، على مظهره الخارجي ..».

وأجبت :

ـ سنرى .. أرجو أن يكون قد انتبه ، وألا يكون هذا الشيء التافه سبباً في غرق بحار مثله .

نزلت الماء ومعي بحاران . طلبت من الآخرين ان ينتظروا على الشاطىء . قلت لهم : « انني سأغطس وحدي. لن أسمح لأحد بأن يفعل ما أفعل . أنا الفدية إذا كان لابد من فداء . لن أعرّض غيري للخطر ، وإذا عجزت عن العثور على أبي فلن يعثر عليه غيري » . ولم يعترضوا على كلامي . راعوا شعوري . تركوني أتصرف كما أريد . أوصوني فقط ألا أغامر كثيراً . وقال واحد منهم : « انتبه ياسعيد .. إذا كان قد لحق مكروه بوالدك فلا ضرورة أن يلحق بلك مكروه أنت أيضاً . لا تجعل الفجيعة فجيعتين .. ارحم شبابك وأملك . لا تعاند البحر .. البحر لايعاند .. إذا كان قد عضّ على فريسته فلاتنتزعها من أنيابه . فكر بأن

للنفس مدى ، والغطس حدوداً .. إحسب وأنت تنزل حساب الطلوع .. دع معك من الوقت مايكفي .. هذه باخرة وليست قاع بحر .. في قاع البحر لاتوجد حجرات ولا ممرات ، ولا توجد دهاليز ومنعطفات .. الخطر هنا كبير .. وأنت غير متمرس بعد .. هل كنت يوماً في باخرة؟.

وقلت معتداً بنفسي ، ناسياً حزني للحظة :

— كنت في بواخر كثيرة .. أنا أيضاً ابن ميناء ،والبحر ليس غريباً علي .

— كنت في باخرة غارقة ؟ .

— لا ...

— إذن فاحذر .. لا تقترب من قمرة القبطان ولا غرفة الآلات .. انزل إلى العنبر مباشرة .. المرء يضيع في باخرة سليمة ، في باخرة ترسو على الشط ، فكيف به وهو في باخرة محترقة وغارقة ؟ كيف به وهو تحت الماء دون جهاز غطس ، ودون مصباح مائي ؟ اللعنة على الفرنسيين ... لماذا سحبوا هذه الباخرة إلى هنا ؟ .

وقلت :

— لا تخافوا .. ادعوا لي بالسلامة فقط ..

اندفعت إلى البحر وألقيت نفسي فيه . كان الماء بارداً. كان منعشاً وبارداً ، والباخرة أمامي على خط مستقيم ،

تلوح صاريتها كعمود مائل ثبت في البحر ، والسباحة اليها تعيد النشاط إلى جسمي الفاتر من السهر والحزن ، وتجعل لياقتي للغطس تستعيد القدرة والجرأة ، وتتيح لعينيّ أن تألفا النظر تحت الماء ، بعد الاكتواء بالماء المالح .

وكان البحّاران على جانبي ، يملكان مثلي رشاقة السباحة السطحية ، ويرسلان زنديهما في حركه اندفاع انسيابية ، ونحن نتقدم في صف واحد ، أجسامنا في الماء ورؤوسنا فوقه ، كسرب من الدلافين ، دون أن نتكلم ، دون أن نتبادل النظر ، وكل منا يفكر بالمهمة الصعبة ، ويتمنى في نفسه ، لو يكون البحر كيّساً معنا ، ويبقى هادئاً كحاله الآن ، إلى أن نعثر على الجثة التي أكد البحارة أنها في عنابر الباخرة .

وفي أمل كذوب ، يداعب النفس الملهوفة ، رحت أتخيّل والدي سليماً في القاع ، وقد تمكن ، بطريقة ما ، أن يدخل حجرة في الباخرة ويحتمي بها . ورجوت ، دون أي سند من قناعة . أن تكون لوالدي قدرة على التنفس وهو تحت الماء . وأن تقع معجزة كهده . بشفاعة جميع الأولياء ، فأعود إلى البر غانماً . شاعراً بهذا المعروف الذي لن أنساه للبحر ما حييت .

كانت عيون النوارس ، فوق الصارية العائمة ، تتجه

الينا . لعلها تريد ، من باب الفضول ، أن تعرف من نحن وماذا نفعل . لم تكن ثمة طيور غيرها . لقد راقبت السماء جيداً ، راصداً ظهور الشوحات (١) فيها ، كدلالة على وجود جثة طافية في الماء . فكرت أن البحر ، بعد أن تعوم الجثة في الماء ، قد يلفظها خارج الباخرة ، وبعدئذ يقذفها الموج إلى الشاطىء ، ولهذا علينا ، قبل البحث في العنابر ، أن نرسل النظر في الجهات الأربع ، ونراقب ظهور الطيور السوداء على امتداد الساحل ، فنعرف من حركة تجمّعها وطيرانها أن هناك جسماً غريباً في النقطة التي تحوم فيها .

أتينا الباخرة من جانبها المائل ، المغمور عميقاً في الماء. كانت ترتكز على حدها الأيسر ، بعد أن غاب غاطسها في الرمل ، لشدة ثقلها ، ولهذا بدا سطحها جرفاً خشبياً ، تصطفق عليه الأمواج ، ويحتاج المرء ،كي يقف عليه ، أن يكون على وضع مماثل للوضع الذي يتخذه وهو يصعد جبلا شديد الانحدار . ولقد قمنا ، نحن الثلاثة ، بالطواف حول الباخرة ، وتأملناها جيداً ، وتأكدنا أن هيكلها كامل ، مصفح ، لم يحدث الحريق فيه أي انبعاج ، ولم تحدث الأمواج أية ثغرة ، ومعنى هذا أن الوالد دخلها من السطح ، ومن جهة المؤخرة ، حيث تقوم العنابر ، وتكون فتحتها إلى أعلى عادة .

---

(١) مفردها « شوحة » وهي طائر كبير اسود يعيش على الجيف والمزابل.

دخلنا منطقة السطح ، وقمنا بغطسات استطلاعية . وقفنا على ظهرها ، وقاماتنا منتصبة ، فاذا الماء يغمرنا. وتشاورنا ،نحن الثلاثة ، حول طريقة البحث ، وقر رأينا على تحري سطح الباخرة أولا ، فلعل الجثة أن تكون قد خرجت من قاعها ، وعلقت بشيء ما على سطحها . ذهبت إلى المقدمة ، وبقي بحار في المؤخرة ، بينما قام ثالثنا بالبحث في الوسط ، وشرعنا بالغوص ، والاقتراب من خشب السطح والنظر الجيد حول المدخنة ، والصواري ، وبكرة المرساة،والدفة، وأكوام الحديد والحبال ، ولم نعثر على أثر لما نبحث عنه . غطست نحو الصارية وتسلقتها . طارت النوارس بعيداً ماان رأتني ، واستطعت أن أمدّ نظري في البحر من حولي ، دون أن اكتشف أي جسم غريب فيه ، ولم تظهر الشوحات في السماء ،ومعنى هذا أن الجثة ماتزال داخل الباخرة .

دنت لحظة الحسم . الآن يبدأ البحث جدياً ، الآن أبدأ رحلة المجهول نحو والدي . انني أغامر . البحر هو المغامرة الكبرى . حين تضع قدمك فيه ، تضع الأخرى في ركاب فرس جموح ، وتستقبل عالماً مثيراً بما فيه من مفاجآت . عليك أولا أن تكون خيّالا . إذا لم تكنه فقلب خيال يكفي . البحر يعلمك ، لكنه ، بالمقابل ، يتطلب شجاعتك . من ينزل البحر عليه أن يكون للبحر ، ألا يخشى الغرق . فمعانقة

الخطر متعة بذاتها ، واجب يفعمك حماسة ، وعطاء للنفس دون شح أو اقتصاد .

هل نزلتم إلى قاع البحر يوماً ؟ هناك كل شيء ملون، كل شيء بهي ، مكشوف ، يختلف عن قاع الباخرة ، النازل هناك ، سمكة . والقاع رمل ، وصخور ، وكهوف، وحشائش ، وشجيرات بحرية . يبدو القاع لعينيك المفتوحتين واضحاً . تستطيع أن تنحدر ، ترتفع ، تبسط يديك ، تضمهما إلى جانبيك ، تقوم بحركات بهلوانية ، تنساب وتدور ، وتكون في مأمن ، لأنك لست في علبة من حديد وخشب ، لست في ظلمة أو جحيم ، وتعرف أن الطريق إلى أعلى يظل مفتوحاً أمامك ، فما أن تعتزم الصعود حتى تضم قدميك ، وترسل ساعديك أمامك وتندفع ، فاذا أنت سهم يمرق ، وإذا أنت سهم يبين ، رأسك أولا ، ثم كتفاك . وتتنفس بعمق ، وتستشعر راحة لذيذة ، مبعثها وجودك المغمور بالضوء والهواء ، والفضاء الرحب ، كأنك تنتقل، من احتواء ماتع إلى احتواء ماتع ، وتحس أن جسدك الذي كان في حضن الماء قد صار في حضن الشمس .

الباخرة شيء آخر . علبة الحديد الصدئة ، الكبيرة ، الغارقة ، شيء آخر تماماً . انني أقدر ما فيها . أرتعش من تهيّب وأنا أتصور فتحة العنبر التي سأنزلق منها إلى الداخل، وسط ماء راكد ، بارد ، مظلم ، علي أن أعتاد الرؤية فيه ،

وأن أتحمل مافيه من تلوث ورائحة عفنة ، وأن أمرق منه إلى غيره ، مكتشفاً طريقي بصعوبة ، دائراً حول المواقع ، مرتفعاً عن الحواجز ، حافظاً خط الرجعة ، حاسباً مقدار ما أنفقت من نَفَس في النزول ، ومقدار ما علي أن أنفق في الطلوع ، معرضاً أبداً إلى اصطدام بهذا الجدار ، بتلك العقبة ، قادراً على الانزلاق والالتفاف إلى أن أعثر على فوهة الخروج فأندفع منها .

فكرت بوالدي ، أي قلب كان له ، أية جسارة فائقة . كيف اهتدى إلى هذا المنجم الكازي ؟ وكيف تجرأ ، هو وحده ، أن يقتحم ، ولو في التصور ، خطراً كهذا . أمس كان هنا . ليل أمس كان هنا . وقف مثلي على ظهر الباخرة ومثلي استعد للنزول ، لكن قلبه لم يكن في خفقانه كقلبي . هل كان قلبه حديداً ؟ هل صيّره البحر والخطر حديداً ؟ هل ماتت فيه حاسة الخوف ؟ كيف غامر ؟ كيف نزل في المرة الأولى ؟ أية رعدة أخذت جسده وهو يهم بالنزول إلى هذا الكهف المظلم ؟ أما فكر بالموت ؟ هل كان شبع الحي يعادل عنده فرحة الحياة ؟ هل الخبز في أيدي الصغار ، كان أحلى لديه من التمتّع بمباهج الدنيا التي خلّفها ؟ إنني لا أفهم والدي . لم أفهمه أبداً ، لم أقدر أنه يملك تصميماً كهذا ، وعزماً كهذا ، ورغبة في التضحية تبلغ حد الإستخفاف بالخطر على هذه الصورة المرعبة .

لقد أنقذ المراكب والسفن في ذلك النهر . أقدم على فعلة يندر أن يقدم عليها بحار ، لكن كل شيء هناك ، تمّ في الضوء ، فوق الماء ، وبرغم أن العاصفة كانت مخيفة ، فان كثيرين يواجهونها ، يدورون في إعصارها ، وقد يطاردونها أيضاً ، غير أن وجودهم تحت المطر ، في الريح ، في الموج، يظل مأموناً ، ما داموا خارج كهف جهنمي مظلم كهذا ، وما دامت النجاة ميسورة ، ولو عن طريق التعلق بقطعة خشب ، أو السباحة دونها في قلب النوء. أما هنا فان أحداً لا يستطيع أن يعرف ، دون أن يجرب ، ماهناك من رهبة ، حين يكون على الانسان ، ذي النفَس المحدود مهما طال ، أن يدخل سردابية مغارة حديدية ، يضيع فيها وهي فوق الماء ، ينقبض فيها صدره وهو قادر على التنفّس ، فكيف إذا كان محبوس الأنفاس ، غاطساً في قاع ، الله وحده يهدي إلى مداخله أو مخارجه المظلمة ! ؟ .

أتساءل ، وقد مضت أعوام كثيرة على ذلك الحادث ، هل حقاً أنا الذي أقدمت على البحث عن جثة والدي في باخرة الشحن الغارقة تلك ؟ وكيف ألقيت نفسي إلى التهلكة ، مدفوعاً بعاطفة كبيرة ، نصفها ناشىء عن شعور البنوّة ، ونصفها الآخر ناجم عن الاعجاب بذلك البحار الذي كانه ؟ الحب الكبير يصنع معجزته دائماً . أول معجزة وقعت في هذا الكون كان دافعها الحب ، فهذا السر يجترح أعجوبته

بعمل خارق ، عملٍ يسمو عن مقاييس الممكن ، ويستهين بالمستحيلات ، ويتّصف بالجنون الذي هو أحد مظاهر الحب والشجاعة . لقد كان حبي لوالدي جارفاً إلى درجة أن شخصيته ظلت تسيطر علي طوال حياتي ، وظلت الرغبة في ألاّ أخونه قولاً أو عملا تحكم تصرفاتي .

قلت للبحّاريْن اللذين معي إنني سأنزل بمفردي إلى قاع الباخرة . سأكون حذراً ، وأتجنب كل مجازفة ،وأحسب حركاتي بدقة ، لكن من يدري ماذا هناك ، وماذا يصادفني ؟ لقد دفعتني حميّا الشباب إلى اعتبار عملي مغامرة نادرة الوقوع . كان شعوران يتناوبانني : الخوف ، والمبالغة في تقدير الخطر لتبرير الخوف . وكنت أهوّل ، مدفوعاً باعطاء النزول إلى الباخرة صفة البطولة الخارقة ، كي يقال عني كل ذلك في الحي ، وتسمع به النساء ، وتثار ضجة تجعلني بحجم والدي . وإذا كانت الدوافع ، وقتها ، ليست على هذه الدرجة من الوضوح ، فان عقلي الباطني كان يحوك نسيجه من غزلها ، دون أن أفطن لذلك ، أو أعترف به حتى لو فطنت .

خلعت سروالي الداخلي استجابة للنصيحة . ارتعشت لأني بدوت عارياً . خيّل إلي أن السروال كان كساء كاملا، وأن خلعه نزع عني ثيابي كلها . خجلت من عريي . خجلت من البحّارين . خجلت أكثر من البحر . تهيأ لي أنه

صار عيناً واسعة تراقبني ، وأنه لن يغفر لي هذه الفعلة ، وسيعاقبني عليها . بحثت عن مكان أخفي فيه سروالي . كان الماء يغمر كل شيء.ولم يكن ثمة ما أعلقه عليه سوى الصاري. صعدت الصاري وعلقته على رأسه . تعجب البحّاران من فعلتي . لاشك أنهما أشفقا علي . أثبت لهما أنني صبي غرير . هذا وحده دليل على انعدام التجربة ، فكيف أغطس داخل باخرة غارقة كهذه وليس لي أية تجربة ؟ كيف أواجه الموت وأنا أخجل من التعرّي ؟ أوليس الاحتفاظ بالسروال برهاناً على أنني استسهل العملية كلها ، وأنني منذ الآن أحسب حساب الذين سأواجههم على الشاطىء ؟ استنتجا من ذلك أنني غير جادّ ، وأن نزولي لن يدوم إلا دقائق ، أصعد بعدها وأعلن أنني لم أعثر على شيء ، لهذا وشت نظراتهما بتقدير أقل ، وانقلب الوداع المؤثر الذي كنت أنتظره إلى عناق بارد ، وساد الصمت ونحن نتّجه إلى باب العنبر الذي سأنزل منه .

سبحنا فوق سطح الباخرة حتّى صرنا في وسطها . غطست لأعاين فوهة العنبر ، وخرجت أقول إنها أمامنا . أصبح كل شيء واضحاً الآن . والدي لم يقم بمثل هذه الحركات . كان يكره الطقوس التي من هذا النوع . أنا واثق أنه لم يفكر بالموت مثلي ، وأن وداع من معه لم يخطر له على بال . كان يمضي إلى غايته مباشرة ، وفي العتمة المخيفة التي

غطس فيها داخل الباخرة لأول مرة ، لم يتوقف ليتبين الأشياء تحته ومن حوله . كان يعرف ، ويثق بمعرفته ، أن فتحة العنبر في المكان الذي حدده على السطح ، وأن الغطس باتجاهها ينفي كل تردّد وحذر ، وأنه بعد دقائق من نزوله كانت صفائح الكاز تعوم فوق الماء ، وأن كل شيء سار حسبما هو مخطط في ذهنه .

شملت الكون من حولي بنظرة خاطفة . خيّل إلي أنني أفارق هذا الكون في رحلة بعيدة . إن مواجهة الخطر قاسية لمن ليس له خبرة . كان الخطر تحتي تماماً . كنت أعوم فوقه ، والبحّاران من حولي ، فتنفست ملء رئتي ،وأرسلت يدي أمامي ، واندفعت وقد انثنى جذعي ، في حركة غطس عمودية ، ورأيت البحّارين يغطسان ، وأوسعا لي مجالا عند باب العنبر ، فانزلقت منه إلى الداخل ، وتركتهما يراقبان دخولي ، ثم صرت بمفردي ، وصار النور أقل . والعنبر واسع . كأنه مسبح قائم بذاته . حددت مسقط الضوء ، في الوسط . إلى هنا يجب أن أعود . هذا منفذ الخروج . مهما ابتعدت فالرجوع إلى الوسط يعطيني امكانية الاندفاع إلى السطح . مايزال نَفَسي يكفي للذهاب إلى أقصى العنبر والعودة . عيناي مفتوحتان . ساعداي يشقان الماء بقوة . جسمي ينساب كسهم . السيطرة على الاعصاب تزداد . إنني داخل المغارة الحديدية . علي أن اكتشف الأشياء

من حولي . فراغ . ليس ثمة صفائح ، ولا بضاعة. لم أبلغ أي جدار من جدران العنبر . معنى هذا أن مساحته أكبر مما قدرت . انتهت الجولة الأولى . لابد أن أخرج الآن .. هذا هو مسقط الضوء ، من هنا إلى أعلى . اندفعت ويداي تسبقاني ، تتلمسان لي الطريق . انفتح النور ، صرت خارج الباخرة .. رأسي فوق الماء . تنفّست بعمق.. بعمق .. وجاء البحّاران لمساعدتي . طلبا مني أن أستند بمرفقي إلى كتفيهما وأستريح .. أشارا إلي ألا أتكلم .. أطبقت فمي ..شعرت أني ولدت من جديد .. وأغمضت عيني لحظة ، حالماً بالأرض.

قدرت أن والدي أخرج صفائح الكاز من هذا العنبر . في الليل ، برغم ضوء القمر ، لا يمكنه أن يذهب إلى أبعد منه . لقد تعاون مع البحارة كما أفعل الآن . كان يغطس ويزيح الصفائح من مكانها . عمله اقتصر على ازاحة الصفائح من مكانها . كانت الصفيحة تعوم ، والماء ، في تموجه ، يدفعها إلى الفوهة ، فيتلقفها البحارة المرابطون فوق الماء ، ويدعون للموج أن يقذفها على الشاطىء ، حيث يقومون ، في الصباح الباكر ، بجمع ما يجدون منها . إن لديّ الآن تصوراً كاملا عن العملية ، وهذا التصور ينطبق على ما قاله البحارة . كل ما بقي أن أمشط العنابر ، واحداً واحداً ، دون أن أجازف بالتغلغل أكثر ، فالمروق من الأبواب قد يدفع بي بعيداً

عن مساقط الضوء ، وعندئذ أضل طريقي . وأذهب ضحية رعونتي .

كانت الشمس قد أشرقت الآن . كانت شمساً محببة . تمنيتها أن تكون حارّة أكثر . قلت في نفسي : « ستصير حارّة أكثر بعد قليل ». أحسست أنني أخرج من بئر ، كان العنبر أشبه ببئر مربعة ، مستطيلة ، ذات ماء بارد ، عكر ، وكانت فيها رائحة . كان صدري يضيق من كثافة الرائحة . لقد بذلت مجهوداً كبيراً ، كان علي أن أبذل مجهوداً أقل . البحار المتمرس يبذل مجهوداً أقل . سيصير هذا. حين أعاود الغطس يخف انفعالي . تزداد ثقتي بنفسي . لا أحتاج إلى الحركات التي قمت بها في المرة الأولى . كانت حركاتي غير متوازنة وغير ضرورية . أفهم هذا . التجربة تعلّم . أنا أتعلّم من تجربتي . لو كان والدي إلى جانبي لأبدى كثيراً من الملاحظات . كان يغطس ويراقبني . قال لي : « اقتصد في الحركات . أرسل ساعديك بوثوق ، بقوة دون عجلة ، واسحب بكفيك الماء نحوك ، يندفع جسمك كقذيفة إلى أمام . كثرة الحركات تتعب الذي يسبح . المبتدىء بالسباحة يكثر من الحركات ، لذلك يتعب . في النهر يضربون وجه الماء بأقدامهم . سباحة النهر مضحكة . لماذا الضرب بالقدمين ؟ مسخرة . على الانسان ألاّ يرفس . البغل وحده خُلق لهذا . الرفس لا يؤدي إلى تشنّج عضلات الساق .

تجنّب أن ترفع قدميك فوق الماء. دعهما وراءك .حركهما كمقص وهذا يكفي . حركة المقص ، مع الدفع إلى أمام، تعطي الجسم قوة ورشاقة . راقب الضفدع وهو يسبح . هل رأيت ضفدعاً يخرج قدميه من الماء ويخبط بهما وراءه؟ يحركهما بتناسق ، يثنيهما من الخارج ، حتى تغدو حركة المقص دائرية ، وبذلك يحصل الانسجام بين اليدين والرجلين.. احفظ ما أقوله لك .. خاصة في حالة الغطس».

حفظت ما قاله والدي . طول النَفَس هيبَة في عائلتنا. أنا مثل والدي طويل النفس . أستطيع النزول والبحث في العنبر كما فعلت الآن ، الشمس المشرقة تساعدني . تنير لي ظلمة العنبر . تجعل الرؤية ممكنة تحت الماء . الزوايا هي المشكلة . كيف أبحث في الزوايا ؟ قد أحتاج إلى مصباح كهربائي . السلطة لا تقدم مثل هذا المصباح . لا تقدم أية مساعدة . ماذا يعنيها من بحار غريق ؟ ليغرق جميع البحارة. تتخلص منهم عندئذ . إنهم « مشاغبون » في نظرها .لاتهمها حقوق المواطنة . المواطن لا حق له في بلد محتل . ويباح دمه إذا هو تمرّد .. دم والدي كان مباحاً . أنا من يطالب به لو قتل على يد السلطة . غير أنه مات في البحر ، فهل أطالب البحر بدمه ؟ .

بعض الأسئلة يبقى دون جواب . يكون الجواب أكبر وأخطر من السؤال . البحر لايطالب بدية . لايطالب بدم .

يعطي ويأخذ كيف يشاء . له كلمته الخاصة . له سرّه الذي لايدركَ . أمام عظمته يصبح التطاول تجديفاً . لو سمعني والدي أجدف على البحر لعاقبني . لو متّ فيه لما ثار لي . مجنون من يثأر من البحر ، ووالدي لم يكن مجنوناً .. ماذا ؟ هل أشك في هذه الحقيقة ؟هل كان مجنوناً بشكل من الأشكال ؟ وماذا أسمي حادثة النهر إذن ؟! كان التيار يقذف بالمراكب والسفن إلى البحر . كان يقدمها قرباناً اليه . النهر الذي ينحدر من الجبال ، الذي يتشكل من دموع الجبال ، الذي يصب في البحر ، أراد أن يولم للبحر . أراد أن يبرهن عن إيمانه وخضوعه ، فحمل من السهول هدايا له وجاء والدي كقرصان ذي رداء أسود ، يحول بين الهدايا والمرسلة اليه . نزل النهر في أعنف ثورة قام بها على اليابسة . تصدّى له وهو في شبقه المسعور إلى التواصل مع البحر ، ومن جبروت الانسان استمدّ عزماً على مقاومة جبروت الماء . قال له : «قف أنا هنا !» رقال النهر : « دعني .. أنا رسول الجبال إلى البحار ، أحمل هدايا القمة إلى اللجة » فقال : « أنا القمة واللجة ، أنا الجبل والسهل والبحر . أنا الانسان ، ولن أسمح أن يكون ما صنعته يداي عرضة للدمار ، أو هدايا نهر إلى بحر ، أو قربان عبد إلى سيد » . قال النهر : « سيغضب منك إله العاصفة ولن يغفر لك أبداً » فأجابه : « أنا أعرف العاصفة ولا أهابها ، وأعرف البحر ولا أخشى

صولته ، وهذه المراكب والسفن تحت حمايتي ، ومن كان في حماية الانسان لا تجرؤ على اقتناصه الطبيعة » وكذلك استل من حلق البحر فريسة وصلت إلى حلق البحر ، فكانت عداوة بينهما ، وكان ثأر . ثم احترقت سفينة الشحن ، وغرقت في البحر ، وتخلّى عنها أصحابها عجزاً أو يأساً . تركوها فريسة لمن اصطادها وقدّموها هدية من النار إلى الماء ، غير أن والدي جاء البحر قرصاناً مرة أخرى ،وقال له : « قف ، أنا هنا » وفتح البحر عينه الواسعة وراز هذا الوافد المتجاسر ، وقال : « دع ما للبحر للبحر ، واحتفظ بما للبرّ للبرّ ، انني صديقك » وأجابه : « من يعتدي يصبح عدواً ، وليس مع العدو سلام » وهكذا كانت المعركة بينهما ، وكان أن ثأر البحر لنفسه فقتل والدي ، وجاء الآن دوري للثأر من الثأر ، جاء دوري كي أحافظ على ما كانه والدي.. ولن أعقّ أبوته أبداً ».

التفتّ إلى البحّارين من حولي . خيّل إلي أنني غفوت. لقد رأيت والدي وكلّمته . سألته النصح فقال : « أنت تعرفه . إن تكن من صلبي فانتقم لي .. انتزع جثّتي من أشداق الماء ووارها الثرى كما يليق بالابن أن يفعل بجثمان أبيه.. لا تقل البحر مخيف ، الانسان مخيف أكثر ، ولا تقل البحر جبار ، الانسان جبار أكثر ، ولا تنتقص من احترامك للبحر ، لكن لا تنتقص من احترامك لنفسك .. صارع ..

هذا هو قانون الحياة ، الصراع قانون الحياة ، وهو يبدأ بالصغيرة وينتهي بالكبيرة .. إذا كنت بحّاراً قدّم برهانك، وإذا كنت شجاعاً قدّم برهانك . وإذا لم تكن كذلك فلست ابني .. الأبناء يخونون الآباء حين يتنكرون لرسالاتهم ، والتنكر يبدأ بالخوف وينتهي بالخيانة » .

صحت بصوت عال :

ـ أنا لن أخون والدي !

وقال أحد البحّارين :

ـ ماذا تقول ؟ .

ـ لا شيء ..

ـ لكنك قلت شيئاً .. ذكرت والدك ..

ـ قلت إنني لن أخونه .. سأبحث عنه ..

ـ وهذا ما تفعله ..

ـ لكن البحر لن يرضى عن فعلتي ..

ـ البحر لا شأن له بما تفعل ..

فكرت : « هذا البحار لا يعرف البحر .. هو منه ولا يعرف ما فيه . لا يستطيع أن يفهم ما كان يقوله أبي . علي أن أستأنف الغطس .. يكفي مااسترحت » .

أنزلت ساعدي عن كتفي البحّارين . قمت بحركة أو اثنتين لتنشيط أعضائي ، وفجأة غطست .. كان النزول

من فتحة العنبر أسهل الآن . صرت أعرف ما هناك . النور أفضل . كلما ارتفعت الشمس أضحى النور أفضل . علي أن أبحث في الجوانب . هناك يمكن أن أجد أثراً . اتجهت يميناً . نزلت إلى قاع العنبر . انطلقت على ارتفاع خفيض منه. تابعت انطلاقي . اعترضتني الصفائح . جبل من الصفائح . أمسكتها وتأكدت . ارتفعت إلى أعلى . مررت أمام صفوفها ، رأيت بعض الأسماك حولها . اضطربت الأسماك وهربت . لاحظت في الزاوية خيالاً أسود . اندفعت باتجاه السواد . عاينته عن قرب . كانت هذه صناديق خشبية . درت حولها ، ورجعت بسرعة . شعرت بثقل الماء حول أذني . أوشك نَفَسي على النفاذ . تحمّلت الضغط . زدت من اندفاعي . أرسلت ساعدي بقوة .. أحسست بالارهاق .. يجب أن أصعد .. الضغط يزداد . يجب أن أصعد .. أين مسقط الضوء ؟ خيل إلي أنني لن أعثر على مسقط الضوء . ياربّ، طنّت أذناي: هذا إنذار بالخطر.. أذناي أنذرتاني بالخطر.. اندفاعة أخرى ، وأخرى .. وبضربة من الساعدين صرت في البقعة المضيئة ، ثم بعزم،بكل ما تبقّى من عزم ، صعدت عمودياً . كان لابد أن أصعد عمودياً . إذا أخطأت فان رأسي سيصطدم بسقف العنبر . لم يصطدم رأسي بشيء. خف ضغط الماء ، أنا فوق الماء . وفتحت فمي كسمكة تموت .. وهرع البحّاران لنجدتي.

انقضت دقائق قبل أن يهدأ خفقان قلبي . حين يختنق الانسان يشعر بثقل رصاصي على صدره . أنا شعرت بثقل رصاصي على صدري . رئتاي اتسعتا ، اتسعتا .. لم يعد مجال للتماسك .. لابد أن أتنفس .. آه ما أعظم أن نتنفس ... أن نشهق ونزفر بحرية ، ونعبّ من الهواء قدر مانريد ..

فتحت عيني على مهل ، ببطء شديد . كانت الشمس مشرقة . كرة أخرى أرى الشمس المشرقة . لم تكن حارّة كما أريد . لماذا لم تكن الشمس حارة كما أريد ؟ الرمل على الشاطىء . ما أجمل الرمل على الشاطىء وأنت فوقه ، تستلقي ، تنام ، تتقلب . تشعر أنك على الأرض .. على صدر هذه الحبيبة ، على صدر هذه الأم .. ثم تغمض عينيك ، وترى ، من خلال أجفانك المطبقة ، كرة حمراء في السماء ، ناراً متوهجة ، دافئة ، وتحس بالراحة ، وبالحاجة إلى النوم . وتستسلم إلى خدر لذيذ ، لذيذ ، لذيذ .

لم أتكلم برغم أنني استرحت . أدركت الآن لماذا لا يتكلم الغطاسون عقب صعودهم من الماء . الراحة والكلام لا يتفقان . الغطاس يتعلم الصمت . يحبه ، يجد فيه راحته . لقد احترم والدي الغطاس طوال حياته . كان يكره حبة اللؤلؤ . يرى عليها آثار دم « اللؤلؤة موشّحة بالدم » يقول . غالية هي ، بحجم الجهد الذي بُذل فيها . شباب الغطّاس يفنى لأجلها ، ويظل عنق زوجته خالياً منها .

اللؤلؤ ليس للغطاسين ، ولا للبحارة . على عنق عجوز ثرية قلادة من لؤلؤ ، وعلى رمل القاع بقعة من دم . البحر يبادل ويضحك . ما أعظم تضحية الذي يقايض بدمه ، وما أفظع شَره الذي يستغل هذه التضحية . أيها الغطاسون ، يا جميع الغطاسين ، انني مثلكم الآن . أنتم تغطسون على اللؤلؤ الطبيعي ، وأنا أغطس على اللؤلؤ البشري . والدي كان لؤلؤة وضاعت . خبأها البحر في صدفته الكبيرة. أنا أبحث عن هذه الصدفة الكبيرة ، وحين أجدها سأنتزعها عنوة . لن يكون البحر راضياً . أفهم هذا . لكن البحر اعتدى هذه المرة ، ومن الصعب ارضاء المعتدي . سأغضبه . غضبه أسهل . ليكن بيننا ثأر . سأثأر وليكن ما يكون . والدي ، في شجاعته ، ليس أكثر جنوناً مني . لن أدع المعتدي يهنأ بعدوانه ، أقسم على ذلك .

نصحني البحّاران بالراحة أكثر . « إذا تعب الغطاس قلّت الفائدة من غطسه ». كذلك قال أحدهما . وقال الآخر : « أنت تغامر كثيراً .. انتبه ، لاتقامر على حياتك ». لم أجب بشيء . لا نجاح دون مغامرة . الحذر ، في بعض المواقف ، جبن . لو كان والدي حذراً ما واجه العاصفة على النهر . كان اختبأ كالآخرين في مقهى الميناء . حين يلوح الخطر ينتفي الحذر . هكذا تعامل مع الحياة . كان سيّدها لا عبدها. هو أورثني سيادته . إنها أمانة في عنقي . كل ما صنعه الأب

أمانة في عنق الابن . تجرأ على البحر حتى اغتاله البحر . لابأس . هذا أفضل من الاستكانة . لو استكان لعاش حياة ذليلة .. أي عار كان سيخلفه لي ؟ وأنا أي عار أخلف لأولادي ، إذا استكنت ؟ سيسمعون بحكاية جدهم . سيقول الناس : « غرق ولم يجد من يبحث عن جثته ... أبوكم جَبُن فلم يعثر عليها ». أي درس أقدمه لهم عندئذ ؟ أية تربية أكون مثلها لديهم ؟ ما هي القدوة التي أدعوهم إلى الاقتداء بها ؟ !

عندما يتعب الجسد ينشط الذهن . جسدي في حالة ارهاق وذهني في ذروة النشاط . التفكير يفرض نفسه علي. هل أفكر لأتشجع ؟ لماذا أتذكر أفعال والدي في هذا الوقت؟ إنني بحاجة إلى منشطات . ذكرى والدي تنشطني . تبعث حماسة في نفسي . تجعلني خصماً للبحر لا صديقاً .لايستطيع المرء أن يصارع خصماً دون حقد .. يجب أن أحقد على البحر ، هذا الذي قتل والدي .

غادرت موقفي بين البحّارين . تلبستني سحنة مقاتل يخوض معركة لا رحمة فيها . البحر ساكن من حولي . لن يخدعني سكون البحر . هذا سطحه . ما يهمّني هو العمق . أنا أتعامل مع الاعماق . هناك يتبدى البحر بصورة أخرى . أعرف تكشيرته حين يثب . سينقضّ الآن أحدنا على الآخر . أنا مكشوف له وهو مستتر عني . لا أدري

ماذا يخفي من مفاجآت .. المهم أن أستعد .. سبحت قليلاً .. شيء من السباحة ضروري قبل الغطس .. صرت فوق باب العنبر .. قفزت فوق الماء وغصت فيه ، وراقبني البحّاران حتى دخلت العنبر .

الذرات التي نراها في خيط من الشمس يمتد عبر النافذة، رأيتها في الماء ، عبر جدول الشمس المنسكب في القاع . كانت الأسماك تنجدل وتنفتل في الحزمة الشمسية الواسعة المتبقعة في الماء . هذه الحيوانات البحرية تتشمس . تجد في عنابر الباخرة غذاءها . أكبر الاسماك يتربى في الموانىء وعند مرابط السفن . العلف وفير هناك .. إذا لم أعثر على جثة والدي ستكون علفاً آدمياً للاسماك الكبيرة . وربما جاءت وحوش البحر أيضاً . هذه الوحوش لها حاسة شمّ قوية . ستأتي من مسافات بعيدة . تكون جائعة في مطلع الصيف . تجلبها رائحة الدم وتبعث فيها شراسة عدوانية خطيرة . أنا لن أترك والدي لوحوش البحر ، وسأصارعها إذا جاءت قبل أن أعثر عليه .

كانت خطتي أن أذهب شمالاً . العنبر مستطيل . أكثر العنابر مستطيلة . تتخذ شكل البواخر غالباً . لقد بحثت في الجهة المقابلة . الغطسة السابقة ذهبت يميناً . علي الآن أن أذهب شمالاً . انحدرت إلى القاع . قانون الغطس ، إذا أردت أن تقطع مسافة في البحر ، أن تلاصق القاع . يخف

ضغط التيارات الجوفية عليك . هنا ليس ثمة تيار جوفي .. العنبر أشبه بمسبح ، مع ذلك بلغت القاع ، وانطلقت فوقه. من الخير أن وقتاً طويلاً قد مضى على احتراق الباخرة وغرقها . هذا أدّى إلى زوال الكاز الذي يطفو على السطح . أمواج الشتاء ، والرياح العاصفة ، وتجدّد المياه في العنابر ، نظّفها من المواد النفطية التي تسربت من الصفائح والمحركات. لولا ذلك كان النزول اليها مستحيلاً . يختنق السبّاح إذا اقترب من بقعة نفطية . حتى الأسماك تموت . أعرف ذلك من الميناء . بحارة السفن قصّوا علي الكثير من حكاياهم .

قبل أن أبلغ الجدار انكشف لي باب إلى الاقسام الأخرى من الباخرة . لم يكن باباً . الحريق كان في هذه المنطقة ، لعله امتد اليها . النار أتت على الجدار الخشبي .. هذه آثار الحريق . ثغرة كبيرة في الجدار . الماء يتدفق منها . يتموج عبرها . هل دخل والدي منها ؟ أشك في أنه فعل ..والدي كان معنياً بصفائح الكاز . لم يكن يبحث عن كنز . صندوق المجوهرات الذي يغري القراصنة في سفن الركاب غير موجود في باخرة شحن كهذه. البحث عن الكنوز والمجوهرات عن خزانة القبطان وما فيها من مستندات ، يحتاج إلى غطاسين مزودين بأجهزة الغطس . المهمة تتطلب بعثة كاملة . والدي كان بحاراً ويعرف هذه المعلومات الأولية . إنه لا يجازف بدخول الثغرة دون سبب . لم يكن فضولياً في أمور المهنة،

وإذا كان قد مات في العنبر فان الماء لا يحمله إلى الداخل . الطبيعي أن يقذفه ، مع حركة الموج ، من داخل الثغرة إلى العنبر . أنا لا شأن لي بالثغرة . علي البحث في العنبر . هناك صفائح . في أقصى اليسار صفائح . الحريق لم يمهل الباخرة لتفرغ شحنتها . ظلت في الجوانب صفائح . والدي نزل إلى هنا . هذا هو المنجم الذي اقتلع حجارته . ارتفعت إلى السطح . اقتربت من صفوف البضائع . شاحنة الكاز تظل مرتبة . أحجام الصفائح المتساوية تساعد على قيام أنساق منظمة منها . محال أن يكون فيها مسمار أو وتد . محال أيضاً أن تنهار صفوف الصفائح على من يقتلعها من أماكنها . إنها لا تسقط إلى الأرض . الماء الذي يملأ العنبر يرفعها إلى السطح . هكذا يكون والدي في منجاة من خطر انهيار الصفائح عليه . سرّه يحيرني .. لقد بلغت أقصى الشمال . درت حول الصفائح . عاينت الفجوات بينها . شعرت بضغط الماء . أذناي تعطيان تحذيراً . لا بأس بالمكابرة .. سأبحث في طريق العودة أيضاً . صبّرت نفسي . حمّلت رئتي فوق طاقتهما . تحملت الضغط قليلاً . أطلقت قواي وركزتها في الساعدين والقدمين . ضاق نفسي . ضاق نفسي . إنني أختنق . علي أن أسرع . السرعة وحدها تنقذني . كي أسرع أحتاج إلى العمق . انحدرت قليلا . في القاع انطلقت كقذيفة . حب الحياة يفجر في قوة خارقة . تشبثت بجدران

الماء الوهمية . صرت أحس كأنني أتمسك بحبال . أيها الضوء، أيتها الفتحة المنقذة ، انني أصعد ، لم يعد لي قدرة على الاحتمال .. صعدت بشكل منحرف .. رأسي وحده خرج من الفتحة وظل جسمي عالقاً بحافتها . ضغطت بأقصى ما استطعت .. طقّت أذناي .. غبت عن الوجود ،غبت تماماً.

حين استعدت وعيي وجدت بعض البحارة من حولي. كان الخبر قد بلغ الحي ، وجاء بعض من أهله إلى الشاطىء. ولم يصبر البحارة حتى يأتيهم خبر منا . فنزل ثلاثة منهم إلى البحر وسبحوا الينا . كانوا رجالاً أقوياء ، رغبوا في المساعدة ، غير آبهين بالخطر . أدرت عينيّ فيهم ولم أقل شيئاً . لو كانت الجثة خارج الماء لاستعنت بهم . كانوا ، عندئذ ، يقدمون مساعدة من نوع ما . غير أن الجثة في الباخرة ، وثمة خطر بأن يضيع الذي ينحدر اليها ، لذلك فان المهمة تبقى من نصيبي وحدي . إضافة إلى أن الموضوع ، في الأصل ، يتعلق بالغوص ، وهذا يحتاج إلى نَفَس طويل وقدرة خاصة ، وقد لا يكون بين البحارة من هو صالح لذلك ، بصرف النظر عن الخطر ذاته .

كل ما فعلوه أنهم تناوبوا في إسنادي . لقد انتشلوني من فتحة الباخرة . فلقوا علي فغاصوا يبحثون عني .رابطوا عند باب العنبر ، وما أن ظهر رأسي حتى هرعوا إلي وسحبوني إلى الخارج ، ثم عوّموني معهم ، وكنت في حالة إغماء .

قال أكبر البحارة سناً :

– لن ندعك تنزل اليوم مرة أخرى .

فطافت على فمي ظلال ابتسامة ولم أقل شيئاً ..

وقال بحار آخر :

– سعيد ينتحر عامداً متعمداً ..

– لقد نبّهناه .. طلبنا منه ألا يغامر .

– لا يستطيع الانسان أن يقدر سلفاً ما سوف يجري معه تحت .. اللعنة على هذه الباخرة !

– يجب أن نخبر السلطة .. لعلها تهتم وترسل غطاساً للبحث معنا .

– السلطة لن تفعل شيئاً سوى اعتقالنا ، واستجوابنا حول الحادث ..

– ستتهمنا بسرقة صفائح الكاز ..

– وتحاكمنا بتهمة السرقة والقتل ..

– المهم أن نخرج الغريق من الباخرة .

– ليس لدى السلطة من هو أمهر من سعيد .

– قد يكون لديها جهاز للغوص .

– نحن لم نَرَ مثل هذا الجهاز في يوم من الأيام .

– قد تستعيره من إحدى السفن ..

– لو كان الغريق ضابطاً فرنسياً لفعلت ..

وعاد أكبر البحارة يقول :

ــ إذا كان الأب قد غرق فلا داعي لأن نضحّي بالابن أيضاً . لنمنعه من النزول .

ــ علينا أن ننصحه وهو يقرر مايريد ..

ــ النصيحة لا تكفي .. يجب منعه ..

ــ امنعه إذا استطعت .. هاهو أمامك .. ماذا تقول يا سعيد ؟ .

كنت أسمع ولا أقوى على الكلام . كنت بحاجة إلى الراحة . تفرست في الوجوه من حولي . عرفت الجميع ، إنهم من الحي ، ومن أصدقاء والدي ، وهم يخافون علي، لو كنت مكانهم لقدّمت نصائحهم ذاتها . إنهم معذورون. وقد سمعت كل ما قالوه ، ووجدت نفسي معذوراً أيضاً. أنا ابنه ، والجرح يؤلم صاحبه . جرحي في صدري ، ولن يشفيه الكلام . العثور على والدي سيخفف من ألمي .سيجعلني مرتاح النفس لأنني قمت بواجبي . البحث سيستمر إذن، ولن أتراجع قبل العثور عليه ، وهذا قراري ...

عاد البحارة يسألونني :

ــ ما رأيك ياسعيد ؟

ــ سأتابع البحث .

ــ لكنك تحتاج إلى جهاز للغوص ..

– جلدي يكفيني ..

– وهذا الإرهاق الذي يهدّ قواك ؟ .

– سأتحمله ..

– لا تكن عنيداً .. أقلع عن المحاولة ..

– ليس قبل أن أعثر عليه ..

– أنت بحاجة إلى الراحة .. أخرج من الماء ..

– سأرتاح وأنا في الماء .. ثم أعود للغوص .

– أنت تخاطر بحياتك ..

– لو كان والدي مكاني لفعل مثلي .

وقال أكبر البحارة سناً :

– هذا خطأ يا سعيد .. اسمع نصيحتي .. لا تجعلنا نستعمل القوة لمنعك من المجازفة .

قلت بحسم :

– اذهبوا جميعكم إلى الشاطىء ودعوني وحدي .. لن أترك هذه الباخرة حتى أعثر على والدي . وإذا لم أجده اليوم سأعود غداً وبعده .. ولن تستطيع قوة أن تحول بيني وبين القيام بواجبي..اهتموا أنتم بأمي ، إمنعوها من المجيء إلى الشاطىء ، واحرصوا على كتمان الخبر ، حتى لاتأتي الشرطة وتفرض حراسة على الباخرة .

– إذا كنت مصراً على البحث فسنبقى معك ..

قالها أحد البحاريْن اللذين نزلا معي إلى الباخرة منذ الصباح .

– قلت لكم لن أتراجع ..

– ونحن لن نبرح الباخرة .. يمكنك الاعتماد علينا ..

وقال البحار الآخر :

– شرط ألا تجازف كما فعلت في المرات السابقة .. ضع السلامة في حسابك . لا ترهق نفسك بغير طائل .. أن تغوص على دفعات ، خير من أن تعرض حياتك للخطر في دفعة واحدة ..

أيّد البحارة قول زميلهم . وجدت كلامهم معقولاً . وعدت أن أحترس . كنت مندفعاً في الصباح . خيّل إلي أن في وسعي العثور على والدي من النزلة الأولى . بددت قواي بغير اقتصاد . عرّضت نفسي للخطر . كنت غراً وجاهلاً . لو لم ينتشلوني من فتحة العنبر لغرقت أنا أيضاً . أية فاجعة كانت تلحق بالعائلة ! ينبغي أن أكون حذراً . ألا أطيل الغوص إلى درجة فقدان النَفَس . إنني أفهم خوف البحارة علي . كل ماقالوه صحيح . الحكومة لن تحرك ساكناً . ليس في الميناء أية أجهزة للغوص . وليس بين البحارة من يغوص بجهاز . نحن بلد محتل . المواطن فيه لا قيمة له . لو كان الغريق ضابطاً فرنسياً لاستدعوا غواصاً من فرنسا .. الحكومة

لا تعترف بحق صالح حزوم حياً أو ميتاً .

استعدت مشاعر الحقد على السلطة . كنت بحاجة إلى هذه المشاعر . الحقد على العدو وقود داخلي . جسمي بحاجة إلى هذا الوقود . لقد قاوم والدي السلطة بما استطاع . مات شهيداً في سبيل الحي ، وحيّنا لا ينسى والدي ، لكنه الآن عاجز . حيّنا جائع وعاجز . والبحّارة تشرّدوا . إنهم يدفعون ثمن تلك المظاهرة التي طالبت بالخبز. فرنسا لا تعترف بحق الجياع في الصراخ بأنهم جياع . تريدهم أن يموتوا صامتين ! .

عدت إلى الغوص . كنت فتى وكان جسمي مطاوعاً . قليل من الراحة وأستعيد لياقتي . الشمس الساطعة تنعشني. الحرارة تعيد إلي نشاطي وتوازني . أحضر إليّ بحّار زجاجة ماء . سقاني جرعة صغيرة . طلبت المزيد فمنعني . كان الشاطىء الآن يعج بالناس . بعضهم من الحيّ والبعض الآخر رأى التجمّع فدفعه الفضول إلى معرفة ما يجري . مرّت دورية من الشرطة وسألت . قيل لها إن في الباخرة غريقاً . لم تأبه للأمر. مضت دون أن تحرك ساكناً . لعلها لم تصدق ، ولعل الأمر لا يعنيها ولا يدخل في مهمتها . قد ترفع تقريراً بذلك . الحكومة لن تتدخل بسرعة . هذا يوفر لي وقتاً طيّباً للبحث .

فرغت من التفتيش في العنبر الأرل . كان هذا عنبراً كبيراً . لعله أكبر عنابر الباخرة . لم أقع على أثر لوالدي . تناولت ظهراً طعاماً يسيراً أحضره البحّارة . صارت الشمس في كبد السماء . اغتنمت تدفق شعاعها بشكل عمودي لكي أبحث بسرعة أكبر . سطوع الضوء يسّر مهمتي في قاع الباخرة . صرت أغوص وأخرج إلى السطح بسهولة .وتجرأ بعض البحّارة فغاصوا أيضاً . أصبحت قائد فريق دون طلب . لم يقتنعوا مني بالكف عن الغوص . استأنست بهم . تشجّعت أكثر بوجودهم . تركت لهم البحث في الأماكن القريبة . نشطنا جميعاً . الفرد ينشط مع الجماعة . دبّت فينا الحماسة . كدنا ننسى الخطر . غدا التسابق إلى الغوص مباراة بيننا ، ومضى وقت طويل دون أن نعثر على الجثة .

عند الأصيل بلغتُ حافة اليأس . مشّطت عنابر الباخرة كلها تقريباً . أين ذهبت الجثة إذا كان والدي قد غرق في هذه الباخرة ؟ لا شيء . على الشاطىء تولّى بعض البحارة مهمة البحث على طول الساحل ولم يعثروا على شيء . الشوحات لم تظهر في السماء أيضاً . لا أثر داخل الباخرة ولا خارجها . أين ذهب والدي إذن ؟ .

تذكّرت ما قاله البحّارة في الصباح . كان ذلك أملاً كاذباً . تعلّقت بهذا الأمل الكاذب . قلت في نفسي لعلّه غادر الباخرة في غفلة من أصحابه . غاص في الماء ولم ينزل

إلى العنبر . تجاوز سطح الباخرة ومضى في البحر إلى مكان ما. إلى مركب ما ، إلى موعد ضربه مع البحارة للهرب . إذا فعل ذلك يكون قد نجا . باستطاعة والدي أن يقطع مسافات في البحر ، وإذا كان مركب ما ينتظره فلا بد أنه بلغه وسافر معه .. يارب ! أية فرحة أن يكون والدي قد سافر !

خفق قلبي وأنا أتصور إمكانية حدوث ذلك ، معنى هذا أن والدي كان يرسم خطة للافلات من قبضة السلطة . معناه أنه أحكم خطته ونفّذها بدقّة . حتى البحّارة الذين معه لم يكتشفوا نواياه . لقد خدع الجميع . وهذه الباخرة لم تكن إلا حجة . استخراج صفائح الكاز كان تمويهاً . دخان اصطناعي حجب الرؤية عن العيون .. والدي لم يمت .. وكدت أصرخ : والدي لا يموت ! لولا أن بحّاراً قطع علي ذلك سائلاً :

ـ والآن ؟

ـ ماذا ؟ .

ـ نتابع البحث أم نعود إلى الشاطىء ؟ .

ـ لا أدري .

وقال بحار آخر :

ـ بحثنا في كل عنابر الباخرة ولم نجد أثراً ..

ـ لو غرق في الباخرة لترك أثراً .. أشك في غرقه .

– أين ذهب إذن ؟ .

– هذا هو السر ..

وقلت في نفسي : « نعم ، هذا هو السر .. والدي لم يكن مغلّفاً بالاسرار . كان يتصرف بجرأة وفي وضح النهار ، لكن الظروف أضطرته إلى التخفي . كان رأسه مطلوباً . ولم يكن بالذي يرضى أن يسلّم رأسه بسهولة ، أو دون مقاومة. لقد فعلها فيما يبدو لي . هرب من اسكندرونة إلى بلد ما . لعلّه عاد إلى مرسين . لعله اتجه إلى الاسكندرونة . إنه غير موجود في الباخرة . وهذا وحده سبب طيّب ، يسمح بالأمل ، وبانتظار خبر منه ذات يوم .

فجأة نبت الشك في نفسي حول هذا الاستنتاج .والدي لا يمكن أن يسافر دون أن يتصل بنا . من الجبل كان يرسل الأخبار لنا . محالٌ أن يستغل حجّة مساعدة الحي لكي يؤمن طريقة للهرب . لقد غادر مخبأه في الجبل كي ينقذ الحي من الجوع ، كان بوسعه أن يهرب من اليوم الأول . لماذا بقي يغوص ، ويستخرج صفائح الكاز كل تلك الأيام ؟ وإذا هرب عارياً من الباخرة ، فقد كان بامكانه أن يهرب دون باخرة . ينزل من الجبل في أي مكان بعيد عن الميناء ، ويقطع المسافة بين الساحل والمركب الذي سيهرب فيه سباحة. لا ، والدي لا يغش بهذه الطريقة . يعرف البحارة ويثق

بهم . يخبر واحداً منهم على الأقل . ينزل في فلوكه من أي مكان ويغافل حراس السواحل ويجتاز الخطر . كل الدلائل تشير إلى أنه هنا ، في هذه الباخرة ، وأن علينا أن نبحث ، وعلي أن أعود إلى المغامرة .

قلت للبحارة : « لو كنت في غير هذا المكان ، وفي غير هذا الموضوع ، لتأدبت أمامكم . ما تقولونه يصير . نصيحتكم على العين والراس . أنا بحّار مبتدىء بالنسبة اليكم . أما في هذا الموقف ، فان الامر يتعلق بي وحدي . هو والدي وأنا ابنه . لو غرقتُ لبحث عني كما أبحث عنه . مستحيل أن يترك جثتي لوحوش البحر . وقد رغبتم في المساعدة وقبلت مساعدتكم . لم أكسر خاطركم . غُصتم بالقدر الذي استطعتم . أكثر من هذا غير مطلوب منكم . تستطيعون أن تعودوا إلى الشاطىء . تستطيعون أيضاً أن تبقوا على الباخرة . ربما احتجت اليكم . أنا سأواصل البحث .. سأدخل إلى أعماق الباخرة . لابد من المغامرة .. سأعود الآن إلى الغوص .

تعالت الأصوات :

– هذا جنون .. البحث شيء والانتحار شيء آخر .. لن نسمح بفاجعة ثانية في عائلة واحدة !

– أنا لا أنتحر .. أقوم بواجبي فقط .. وأنا أعرف

ما أعمل ، أثق بنفسي .

ـ الثقة بالنفس لا تكفي .. كل بحّار يثق بنفسه .. أبوك كان يثق بنفسه أيضاً . كان بحاراً عظيماً . كان سيد البحارة. المغامرة هي التي أهلكته .. لن ندعك تغامر مثله .

ـ دعوني أقم بمحاولة أخيرة .. هذا يرضي ضميري.

أيّدني بعضهم :

ـ دعوه يغص مرة أو مرتين .. سنبقى هنا ، إلى جانبه، ولن نسمح له بأكثر من ذلك .

وعارضني خرون :

ـ قمت بكل المحاولات اللازمة..مشّطت كل العنابر.. لم يبق إلا أن تدخل الغرف .. أنّ تغوص بين المحركات .. أنت لا تقدر الخطر الذي ينتظرك .

ـ هناك ، في أحد العنابر فجوة كبيرة .. رأيتها هذا الصباح . قد يكون والدي دخل منها وعلق فيها .. لابد أن أدخلها أنا أيضاً .. أعدكم أن أكتفي بعد دخولها .

ـ إذا كان والدك ، وهو السباح الماهر .. المجرّب، علق فيها ، فكيف تدخلها أنت ؟

ـ أنا سأحتاط .. لن أذهب بعيداً .. مجرد استطلاع .

وقال أكبر البحارة سناً :

ـ قلبي يحدّثني بأن مصيبة ستقع ..

وقال بحّار فتى :

– الذي يعمل في البحر لا يسمع إلى وساوس قلبه .. إنزل يا سعيد ..

وقال بحار خر :

– هذا هو الكلام الفصل .. البحر لايعرف المزاح .

كنت خلال ذلك ، استعيد صورة العنبر ، والجدار المحترق ، والفجوة التي فيه .. لقد رأيتها هذا الصباح . استبعدت أن يدخلها والدي . ماذا يفعل فيها ؟ الطريق إلى السطح لا يمرّ بها ، ولن يقع حادث كهذا إلا في حالة واحدة : أن يكون توازنه قد اختل ، من جراء اصطدام ما . عندئذ يطلب النجاة في أي اتجاه ، ويدخل الفجوة خطأ .

حزمت أمري . قلت للبحارة :

– غوصوا بالتناوب .. انتظروني عند باب العنبر .

وقال أحدهم :

– ننزل إلى العنبر نفسه ، إذا أردت .. نحن معك ..

– أعرف نخوتكم .. يكفي أن تكونوا حول باب العنبر ، خشية أن يتكرر حادث الصباح .

كنت الآن على استعداد كامل . فترة الاستراحة جيدة. لقد ألفت الباخرة وملكت الجرأة عليها . كنت صباحاً كمن يوشك أن يدخل معركة . كنت عصبياً ، متوجساً ، أواجه

مجهولاً . الآن تغير الموقف . أنا في قلب المعركة الباخرة لم تعد مجهولا . أعصابي هادئة . لقد تمرّنت على هذا النوع من الغوص .

انطلقت على سطح الباخرة والبحارة من حولي . سبحت قليلاً على ظهري . سبحت على جنبي . بلغت موقع العنبر . وبقفزة واحدة صرت تحت الماء ، في فم العنبر مباشرة . غصت إلى تحت ، ثم في خط مستقيم باتجاه الجدار ،ودخلت الفجوة . كانت الرؤية سيئة هنا . صرت في حيرة . خفت الاصطدام إذا واصلت الاندفاع . ارتفعت قايلا . وعندئذ حدثت المفاجأة . زوال أسود ، طويل ، لاح لي عند الطرف الأيمن ، تحول بينه وبين الخروج من الفجوة عارضة خشبية. مددت يدي . وقعت على جسم انسان . كدت أصرخ .. ضاق نفسي . اضطررت إلى تخطي الفجوة والخروج ... لا مجال للمجازفة أكثر .. اندفعت بما تبقّى من قوة عبر باب العنبر إلى السطح .

أخبرت البحارة بما رأيت . كنت في حالة من تضارب المشاعر لا أعرف معها كيف أتصرف . لقد وجدت إنساناً تحت . غريقاً لمسته بيدي . إنه والدي . هل علي أن أبكي ؟ هل علي أن أفرح ؟ هل العثور على الجثة يذهب بالحزن الذي سبّبه الموت ؟ كيف أعود إلى البيت إذا لم أخرج الجثة اليوم ؟ هل من السهولة دفع الجثة وإخراجها من الفجوة ! ؟.

وقلت للبحارة :

– كيف أفعل ؟ إنه هناك .. لمسته بيدي .. ولن أعود إلى البيت دونه . سأقول لأمي : « هاهو والدي ، لقد رجعت به ميتاً واأسفاه » ! وعلى غير توقّع ، وجدتني أضرب رأسي . لقد تأكدت الآن أن والدي قد مات . أي شعور ينتاب المرء حين يعرف أن أباه قد مات ! ؟

ولم يتفوّه البحّارة بكلمة . وجموا أمام حقيقة الموت . كانوا مثلي ، يغذّون أملاً كاذباً . وهاهو الواقع القاسي يهزم ذلك الأمل . وقال واحد منهم : « لقد مات صالح حزوم .. مات زينة الرجال » !

صارت الآن مهمتي محددة : أن أخرج الجثة إلى السطح. تلك الفجوة في الجدار كانت باب الهلاك . ستصير أيضاً باب الخلاص . عبرها سأسحب الجثة إلى العنبر . إذا استطعت أن أسحب الجثة إلى العنبر صار تعويمها سهلاً . يكفي أن أدفعها إلى البقعة البيضاء . هناك تخرج لوحدها . إذا استعصت أخرجتها بطريقة ما . ينزل البحارة ويساعدوني في سحبها. بعد ذلك نمضي بها إلى الشاطىء . أنا سأرتدي سروالي الداخلي المعلق على الصاري . لن أنسى ذلك بأي شكل . عريي سيذكرني بارتدائه . لا يمكن أن أبدو كما ولدتني أمي . موت والدي يجب ألا ينسيني ذلك . ينبغي أن أتماسك .أن أبدو رجلاً . ألاّ أدع الحزن يحيلني إلى خرقة . والدي كان

يفعل هذا . يرفض البكاء والعويل مثل النساء . أمي حرة أن تفعل ما تشاء . لن أمنعها من شيء . وستأتي النادبات أيضاً . المخبرون سيندسّون في المأتم ليتأكدوا أنه مات . هذا ضروري لهم . تقاريرهم يجب أن تثبت ذلك . والأطفال سيتراكضون . إنهم يحبون الجنازات . علي أن أفكر بالنعش. والقهوة المرة ، ونفقات الدفن . يارب ! من أين آتي بنفقات الدفن ؟ أنا لا أملك شيئاً . لا شيء في بيتنا يباع . لا أحد يملك لنستدين . فضيحة ! موت الفقير يتحوّل إلى فضيحة . لكنهم يعلمون . الحي كله يعلم أننا فقراء .. أننا جياع . لا بد أن تأتي مساعدة من بحّار ما . لابد أن يجمع البحّارة بعض القروش . ليس لأن والدي ضحّى في سبيل الحي ، ولا لأنه كان يهب نفسه للدفاع عنهم ، بل لأن إكرام الميت دفنه . وسنتعاون على الدفن . سيرى مخبرو السلطة أي حالة نحن فيها . وسيخطب واحد ما . لا أدري إذا كان الآخرون يحسبونه منهم . هو أيضاً قاوم فرنسا . لو لم يمت لشنق . فرنسا كانت تلاحقه . لو وقع في يدها لحكمت عليه بالإعدام. كان يتمنى ، عندئذ ، لو نفّذ الإعدام بيده . أن يموت في المعركة خير من أن يموت على المشنقة . لقد اختار ميتته بيده. ظل سيّد مصيره . كان إنساناً في كل شيء . وظل إنساناً حتى في موته . ظل رجلاً كما أراد . ولا بد أن يأتي غداً الرجال . سيقولون كلاماً حلواً من كلامهم بهذه المناسبة .

أنا سأكون مطرقاً أمام القبر . لكنني سأصغي جيداً لكل ما يقال . سأعي الكلمات وأحفظها . هؤلاء الذين يقاومون فرنسا ، ويخطبون في المظاهرات ، ويوزعون المنشورات . يتكلمون جيداً .. آه ما أحسن أن يأتوا ويتكلموا . ستكون روح والدي مرفرفة فوقنا . ستسمع كل ما يقال . سيزدان الدفن ، ويكون لائقاً بالبحّار الذي قاوم الأتراك في مرسين ، وقاوم فرنسا في اسكندرونة ، سيكون لائقاً بصالح حزوم ، والدي .

تناهبتني الأفكار . شردت معها . كان الأصيل جميلا . الشمس تميل عن صفحة السماء . كان نهاراً صحواً . شكراً لهذا الصحو . شكراً للشمس . لقد أضاءت لي الباخرة . أرسلت أشعتها كمصباح كهربائي إلى الأعماق . وحين كنت أخرج كانت تدفئني . الماء بارد تحت . جسمي يتبرغل من برودة الماء . انتعش وأنشط . تستيقظ حواسي . كان ضرورياً أن أكون يقظ الحواس . وبعد يوم كامل من الغوص ، سيكون علي ،الليلة ، أن أسهر أيضاً إلى الصباح . هذه آخر سهرة مع والدي ، غداً سنفترق . لن أراه أبداً . لن يملأ علينا البيت ثانية . وحدي سأكون مسؤولا عن العائلة. آه ، في أي زمن صرت مسؤولا عن العائلة ! .

قلت للبحارة :

— استعدّوا لإخراج الجثة .. الآن صرت أعرف مكانها

بالضبط .. إنها وراء فجوة الجدار .

سألني البحار الفتى :

ـ أغوص معك ؟ ألا تحتاجني تحت ؟

ـ ليس بعد .. ليس قبل أن أخرج الجثة من المكان المحصورة فيه ..

ـ وهل تستطيع إخراجها وحدك ؟

ـ العملية تتوقف على النَفَس الطويل وليس على القوة.. إذا لم ينقطع نَفَسي سيكون ذلك سهلا ..

وقال أكبر البحارة سناً :

ـ حاذِرْ أن تخاطر .. لقد بلغنا النهاية ، ولا شيء يتطلب العجلة ..

ـ أنا مضطر إلى بعض المخاطرة .. الجثة وراء جدار العنبر ، وعلي أن أكون داخل الفجوة .

ـ هل تحتاج إلى حبل ؟.. من المؤسف أنه ليس معنا حبل .

ـ لا أحتاج إلى حبل .. الجثة عائمة .. ويكفي أن أدفعها بعد تخليصها من المحشر الذي هي فيه .

ـ جرّب أن تخرجها على دفعات .. يكفي أن تحركها حتى تعوم وتخرج من مكانها ..

ـ هذا ما أفعله .. لن يطول ذلك . انتظروني ..

قلت ذلك وغصت . نزلت من باب العنبر باتجاه الفجوة مباشرة . صرت أعرف طريقي دون جهد . الضوء مازال جيداً في العنبر ، غير أن الجدار يحجبه عن الداخل . ذلك اللوح الخشبي هو الذي يسد الطريق على الجثة . إذا انتزعته هان الأمر .. بحثت ، منذ ولوجي الفجوة ، عن اللوح ، أمسكته وشددت كان ثابتاً في مكانه . هززته فاهتز بين يدي . أدركت أنه ليس مسمّراً . عاودت الكرة فلم أستطع انتزاعه . فكرت أن أرفعه إلى أعلى . كانت هذه محاولة جيدة . ارتفع اللوح دون أن يغير مكانه . كان لوحاً طويلا ليس من السهل تغيير مكانه . ولم يعد نَفَسي كافياً فانسحبت. خرجت وحكيت للبحارة عما جرى معي . أخبرتهم أن ذلك اللوح اللعين هو الحاجز الذي يمنع الجثة من الخروج عبر الفجوة . فقال أحدهم :

– اسحبه إلى الخارج .. حاول أن تخرج الجثة من فوقه.

– أو من تحته .. لا تحصر كل جهدك فيه .

– أقول لكم إنه يسد الفجوة . علي أن أغيّر مكانه..

وقال أكبر البحارة سناً :

– انتبه أن يسد الطريق عليك أنت أيضاً .

وقال آخر :

– قد نحتاج إلى حبل..لابد أن يذهب أحدنا لجلب حبل

وأكدت من جديد :

ـ لا حاجة للحبل ..الجثة عائمة ، ودفعها يكفي .

غصت من جديد دون أية خطة لإزالة اللوح الخشبي. كلمات البحّارة لم تُجْدِ في شيء . تكلموا على أمر مجهول، أنا وحدي الذي رأى الفجوة والجثة واللوح . علي إذن أن أجد الحل . هذا الحل لن يأتي بغير التجريب .. الأفضل أن أدخل عميقاً في الفجوة . أن أسحب اللوح من وراء ، عسى أن يسقط من مكانه . عندئذ أعود إلى إخراج الجثة من الفجوة.

دخلت الفجوة رأساً .. دخلت دون أن أحترس كما في المرات السابقة . أمسكت باللوح ودفعته إلى وراء . اندفع معي ولكن لم يسقط . اختل توازني فغصت إلى القاع . كان الماء نتناً هناك . كان الظلام كاملاً . ارتفعت من جديد . وأمسكت باللوح ثانية ودفعت . خرج من مكانه ولم يسقط . كيف فاتني أنه خشب ولن يسقط ؟ خرجت من الفجوة إلى العنبر ومنه إلى السطح .. هرع البحارة إلي . تساءلوا بصوت واحد :

ـ ماذا جرى ؟ سحبت اللوح ؟ .

ـ أسقطته ..

ـ انتهى الإشكال ؟ .

ـ لا لم ينته .. عام اللوح ثانية ..

ـ وماذا ستفعل ؟ .

ـ سأسحب الجثة الآن .. أدفع اللوح من أمامها وأسحبها. ظني أنني سأنجح .. المهم أن تخرج من الفجوة .

غصت من جديد . تقرّحت عيناي من الملح ،أحسست بحرقة فيهما ، مع ذلك فتحتهما جيداً .

كان علي ، الآن، أن استنفر كل قواي ، كل حواسي ، وأن أندفع كسهم من باب العنبر إلى الفجوة . الضوء أقل من السابق ، الماء عكر داخل الفجوة . اللوح الخشبي يعوم. الجثة وراءه . ارتفعت بقدر ما يسمح سقف المكان . نحّيت اللوح الخشبي ،دفعت الجثة العائمة على ظهرها باتجاه الفجوة. لم تخرج . جاءت بشكل عرضاني . اصطدمت القدمان بالجدار . ارتدّت إلى وراء وخابت المحاولة .

تملّكني حنق على نفسي . لم يعد لدي من النَفَس ما يسمح باعادة الكرة . أنا مضطر إلى الخروج . لاحظت أنني بدأت أتعب . الطاقة الجسدية لها حدود . من الصباح وأنا أغوص . أنهكتني الغوصات المتتابعة . فكرت أن أؤجل اخراج الجثة إلى الغد . أخذ الاعياء يلوي من شكيمتي . صار يؤثر على قراري . اندفعت إلى العنبر ، ومنه إلى البقعة المضيئة وخرجت .. وكالسابق تلقّاني البحارة وأسندوني . تجمّعوا حولي في لهفة السؤال والفضول . أشرت برأسي

أن لا شيء . كنت تعباً وبحاجة إلى راحة . أطبقت فمي وأغمضت عيني . تركوني أستريح . كان التعجّب يرتسم على وجوههم بعضهم قلق علي . حين فتحت عيني رأيت أكبر البحّارة سناً يضرب كفاً بكف . كان يتألم لأن أحداً لا يسمع كلامه . مصيبته ، وهو البحّار القديم ، أن أحداً لا يسمع كلامه . كان هذا إيذاء كبيراً لمشاعره .

سمعته يقول :

– هذا لا يجوز .. الغوص لأكثر من ساعتين لايجوز.. لو كنا على ظهر مركب لتصرّفت بشكل آخر .. لو كان والده حياً لتصرف بشكل آخر .. إننا نسلمه إلى الموت ... أنظروا .. لقد هدّه التعب ..

صمت البحّارة . سمعت صأي النوارس في الجو . كان نورس أبيض يحط على رأس الصاري . كان سروالي الداخلي على رأس الصاري أيضاً . الشمس تميل نحو الغرب . بردت الريح قليلاً . صرت أحس لذعها على جسمي . التعب يهدّني فعلا ، لكن ما العمل وجثة والدي هناك ؟ كيف أعود إلى أمي دونها ؟ ماذا يقولون عن فشلي في إخـــراجها ؟ هل استسلم وأقبل بالهزيمة ؟ يهزمني البحر في أول جولة معه ؟ بعد ذلك كيف أنتصر ؟ إذا تراجعت فلن أتقدم أبداً . يأخذ البحر ساحتي وينتهي الأمر . أصبح

ضحكة للناس.. ربما شكّوا في أني ابن صالح حزوم حقيقة. وهذا البحر الأزرق ، الواسع المتموّج ، الصامت المتكلم ، ماذا يظن بي ؟كيف يقبلني على متنه غداً؟أي عار يلحق بي؟

أغمضت عيني من جديد . أنني أتعذب . ليتني على الشاطىء . فوق الرمل . هناك كنت أستلقي . أعانق الأرض. أضغط بجسمي على الأرض . أدفن نفسي حياً وأستريح . آه ما أطيب الراحة ! أن ننام ونكف عن الإحساس . أن نرقد بغير حراك . بغير أحلام ، بغير ذكريات ، ما أعذب ذلك ، ما أشهاه بالنسبة إلي ، في هذه اللحظة . في هذه اللحظة بالذات !

كان والدي يقول : « ليس المهمّ ألاّ نخاف ، المهم أن نقاوم الخوف . ليس المهم ألا نتعب ، المهم أن نقاوم التعب ». ولقد قاومت الخوف والتعب . حافظت على نصيحة والدي . أثبت أنني ابنه ، وأنني جدير أن أحمل اسمه . الإنسان يُقدم أحياناً على عمل ما لإرضاء الآخرين . هذا لا يدوم . لا يتم إنجاز الأعمال وفي الذهن إرضاء الغير ، يجب أن يكون الانسان نفسه راضياً . الرضى ينشأ عن قناعة. عن إيمان . عندئذ يعمل الانسان بدافع من إيمانه . حين يجدّ الجدّ يلجأ الانسان إلى إيمانه . إن لم يكن مؤمناً ضاع . تراجع . كفّ عن المقاومة . ترك الأمر الذي يطلبه . هذا ما تعلّمته فيما بعد ، حين صرت بحّاراً ، صرت إنساناً

حقيقياً . قبل ذلك كانت قوة المَثَل هي التي تحركني ، تدفعني ، تنمّي روح التضحية في ذاتي . والدي كان مَثَلي. كان النموذج الذي أرغب أن أكونه . وفي كل عمل ، وكل موقف صعب ، وأمام أي خيار . كنت أتساءل : « كيف كان يتصرف والدي لو كان حياً » ؟ .

هذا السؤال انبثق عشرات المرات في ذهني اليوم ... الآن أيضاً ، وأنا أكابد همّاً قاتلا لعجزي عن إخراج الجثة، طرح السؤال نفسه علي : « كيف كان يتصرف والدي لو كانت جثتي هي التي في الباخرة »؟ من المستبعد أن يكون العناد هو الذي يحكم تصرفاته في مثل هذه المواقف . العناد لا معنى له إذا لم يقترن بموقف صحيح . والدي كان يؤمن بصحة موقفه ، ثم يعاند لأجله . في مرسين كانت له قضية، في اسكندرونة صارت له قضية . النهر كان قضيته ،وكذلك البحر ، كل عمل قام به انطوى على هدف ، وفي سبيل هذا الهدف كان عناده ، كانت صلابته وشجاعته . يؤمن بشيء فيعطي نفسه له . لا يسأل : متى أموت ؟ يسأل فقط لماذا أموت ؟ وفي نزوله إلى هذه الباخرة ، لاستخراج صفائح الكاز تساءل لابدّ : لماذا أقوم بهذا العمل ؟ وهل يستأهل عملي هذه التضحية ؟ وهل أموت – لو متّ – في سبيل الحي أم في سبيل مغنم خاص ؟ هل التضحية ، إذا كان لابد منها ، لأجل لقمة أطفالي أم لأجل لقمة جميع الأطفال ؟ وحين

تفحّص ذاته واطمأنّ ، أقدم غير هيّاب ، أقدم بجسارة بالغة ، ومات مرتاحاً ، كما لو مات على المشنقة ، أو برصاصة جندي فرنسي .

العناد ، على هذا النحو ، يغدو مفهوماً ومقبولاً . وحين أغامر الآن ، لاستخراج جثته من قاع الباخرة ، أفعل ذلك لأنه والدي فقط ، أم لأنه والدي وله كل الصفات الأخرى؟ وعلى فرض أنه كان والدي ، وكان جباناً ، نذلا ، خسيساً ، مع الأتراك في مرسين ومع الفرنسيين في اسكندرونة ، هل كنت أغامر على هذا النحو ؟ وكان البحّارة يكونون معي كما هم الآن ؟ وكان البحر الذي أخذه ، يصبح خصماً كما أصبح ؟ إن إخلاء جريح في ساحة معركة تكريم للجرح وصاحبه . دفن ميت وفاء لحق الانسان في حالة الموت ... أما استخراج جثة مناضل كما أفعل الآن ، فهو نضال أيضاً ، هو تضامن مع الشيء الذي غرق لأجله . إنني ، أنا أيضاً ، أضحي لأجل الحيّ ، وأضحي لاجل الوطن ضد فرنسا .

فتحت عيني وقد أفعمتني الأفكار حماسة . أنا إنسان قادر على أن أقيم حواراً مع نفسي في كل الظروف . هذه الخصلة أيضاً ورثتها عن والدي . نَمَتْ في نفسي خلال الدراسة . كان البحر هناك أيضاً . كان الشاطيء قبالة المدرسة . وعلى هذا الشاطيء كنت أقف وأفكر . كنت أعدّ نفسي لأكون بحّاراً ، ومن عادات البحار أن يحاور نفسه ويكلمها ،

وهكذا تمضي نوبات الحراسة ، والوقوف وراء الدفّة ، والمراقبة من أعلى الصواري ، دون أن يحس بها . والدي تعلم الصمت من البحر ، لكنه كان يحاور نفسه في صمته ، كان يقلب الأمور على كل وجوهها ثم يتّخذ قراره.

اتّخذت قراري . مواصلة الغوص . إذا لم أخرج الجثة فسأظل معها في الباخرة . ربما قذفها الموج إلى الداخل غداً. ربما فرضت الشرطة حراسة على الباخرة . عندئذ يضيع كل شيء . يتسبّب ضعفي في فقدان جثمان والدي ، عليّ أن أنجز مهمتي اليوم . البحارة أوكلوا إلي هذه المهمة . وثقوا بي ، لا لأنني ابن صالح حزّوم ، بل لأنني بحّار مثله ، ولأنني أعرف ما كان يعنيه والدي بالنسبة للوطن والناس .

قلت للبحّارة :

ـ لن أبرح الباخرة قبل إخراج الجثّة ..

ـ أنت لاتستطيع إخراجها دون مغامرة .

ـ لتكن المغامرة إذن .

ـ ومع هذا التعب ؟

ـ أشعر أنني استرحت ..

ـ تخدع نفسك ..

ـ ربما ..

وقال أكبر البحّارة سناً :

ـ عنيد مثل والده .. لنمنعه بالقوة ..

سرّتني كلمة عنيد . هذا أول اعتراف بالشبه بيني وبين والدي . العناد في الصراع ضروري . أن يحرق المرء مراكبه، ولا يبقي أمامه غير الاقدام ، يعني ذلك الموت أو الانتصار . أنا لن أموت . سأنتصر . سأنتزع الجثة وأخرجها . لا أتجبّر . لا جبروت أمام البحر . هو الجبار الأعظم ، كان يقول والدي . لكنني إنسان أنا الآخر . الانسان أقوى الكائنات ، كما كان والدي يقول أيضاً . علي أن أغوص . أقاوم حتى النَفَس الأخير . وليس من قوة يمكن أن تمنعني . احترم هذا البحّار ، لكنني سأخالفه . ليرجع إلى الشاطيء إذا ملّ الانتظار . لينفض يديه من العملية إذا يئس منها . إذا كان يخاف على حياتي فشكراً . عليه أن يخاف على مستقبلي . بحّار ويخاف ؟ بحّار ويتراجع ؟ هذا لايكون أبداً .

ـ سأغوص الآن من جديد ..

ـ اسمع يا بنيّ .. اسمع ياسعيد . العناد له وقت ، والفكر له وقت .. لاتكن عنيداً حين يكون العناد ضارّاً .

ـ من يستطيع أن يحكم على الضارّ والمفيد غير صاحب القضية ؟ .

ـ ونحن ؟ من نحن ؟ ألسنا معك في هذه القضية ؟ ولماذا وجودنا على الباخرة منذ الصباح ؟ .

– أنتم على الرأس .. لكن الجولة مع البحر لم تنته ... لا أريد الهزيمة لنفسي .

– تقول الهزيمة ؟ من يتجرّأ على البحر ، وينزل إلى قاع الباخرة كل هذا الوقت ، يكون مهزوماً ؟ .

– الجثة هناك . رأيتها بعيني . سحبت اللوح من أمامها ودفعتها . كيف أتراجع إذن ؟ .

– تؤجّل إخراجها إلى الغد .. التأجيل غير التّراجع .

– التأجيل بداية التّراجع . لن أؤجل ..اليوم أو لا يكون أبداً .

– اللهم اشهد أنّا نصحناك ..عنادك سيقضي عليك ..

– ليكن .. الموت ولا الهزيمة .

سكت البحّارة . انقطع الحوار . حسمت الأمر . سأنزل من جديد . أغوص إلى داخل الفجوة مباشرة . لن أخرج إلا والجثة في العنبر . يكفي دوراناً حولها . إذا لم أحزم أمري فلن أنتهي . أنا لا أشك بالبحر . لن يخذلني البحر والأمر يتعلّق بوالدي . هو يعرف قيمة الوالد . ترى ، هل للبحر والد ؟

أسلمت نفسي للماء . كان أزرق فيروزياً الآن . أشعّة الشمس المائلة إلى المغيب تنعكس في حزمة طولانية ذهبيّة على البحر . يتموّج سطحه ومعه الأشعة الذهبية ، فيبدو كأنه

يلهو بذهب سائل ، تحرّكه من أدنى أيدٍ خفيّة . وفي السماء، على امتداد الأفق الغربي ، سحب بيض تتجمّع ، تتشكل، تتلوّن ، تغدو تراكمات قطنية رمادية أكثر فأكثر .والقبّة، من فوق ، صافية ، ترقب بزوغ نجم بعيد .. والريح خفيفة، باردة ، والطيور تحوم مودّعة ، راحلة إلى المبيت ، تخفق بأجنحتها في تكامل ، وتفردها تاركة للريح أن تحملها على بساطها ، والشاطىء على مرمى البصر ، يحفل بجمهور صغير مبرقش ، وليس من صوت سوى اصطفاق الموج على جسم الباخرة .

لقد كنت دائماً على شيء من تهيّب أمام البحر في الأصائل . إنه يتحدّث كعجوز اقتعد كرسياً واطئاً أمام بيته. يحكي عندئذ حكاياته الشعبية . يدندن بأغاني أسوانة . يتنهّد تاركاً لأنفاسه أن تتصاعد بخاراً سرابياً مع الأشعة التي تمتصه وترفعه إلى أعلى . يكون البحر طيّباً ، وادعاً ، مسترخياً عندئذ ، أو متموّجاً ، متدافعاً يتكسّر على صخور الشاطيء ، أو يخرخر في رتابة على رمله .

إنني أستسلم للبحر . أعطيه نفسي . ليباركني هذا الأب الرحيم . ليكن معي وليس ضدي . ليأخذني في أحضانه ، وليتبنّني من الآن وإلى نهاية العمر . فليكْوِ جبهتي بطغرائه كيّاً باقياً أبديّاً . ليختم على قلبي بختم مملكته الرابضة في الأعماق . ليجعلني بحّاراً من بحّارته ، فارساً من فرسانه.

وليأمن ثورتي عليه ، وكذلك تحريضي . فما جئته غازياً ، ولا ثائراً ، بل سائلاً أن يردّ لي أبي . أن يعطيني جثته لأدفنها في الأرض الطيّبة . أن يعقد بيني و بينه ميثاق شرف .. أن يؤمن بي أنا الانسان ، وليكن بيننا سلام لا حرب ، وأخوة لا عداوة ، وتعاون لا خصام .

ماذا تقول أيها البحر ؟ كلّمني أيها الصديق . قل إنك تقبلني في رحابك ، وتفتح لي أبوابك ، وتذلّل لي متنك ، وترعى شراعي ، وتكرم وفادتي ، وتسقيني من خمرتك التي في قمقم مختوم . أجبني ، فقد بُحّ صوتي ، ووهنت قواي ، وارتجف جسمي العاري أمام محرابك العظيم . أنطق ، فقد كفاك صمتاً منذ الدهور ، واستجب لتضرعي فقد تجرّحت ركبتاي من الركوع أمام عرشك .

ولم يقل البحر شيئاً . هذا الواسع كالظنّ ، العميق كهاوية الخطيئة ، الجائش كالنفس المطلوبة ، الصامت كالجبل الأقرع ، المهيب كالغابة ، المخيف كوادي الجحيم ، لم يقل شيئاً . « ويا بني — قال لي والدي يوماً — البحر يتكلم ولا نسمعه إلا في الألف عام مرة . محظوظ البحّار الذي يخاطبه البحر . يتوّجه ملكاً على البحّارة . يفتح له كنوزه من اللؤلؤ والمرجان . يسمح للملكة البحر أن تحبّه . يُخضع الموج لإرادته . يذلّل الماء لمركبه . يُظهر عرائسه له في الليالي المقمرة . يأمر موسيقى القاع أن تعزف له والمركب

مسافر . يُدخله ممالك لا عين رأت ولا أذن سمعت . يُريه حدائق المحيطات من الخضرة الزمرديّة . ينفخ في روحه الشجاعة ، وفي زنده القوة ، وفي شراعه الريح المؤاتية ».

وقلت لأبي : « وهل رأيت بحّاراً كلّمه البحر» ؟ قال : « لا ، وإنما سمعت ذلك من أشياخنا البحارة . تناقلوه أباً عن جد ، وعرفوه بالتجربة ، وتمنّوه كليلة القدر ، ودقّوا صدورهم العارية في ابتهالات لا تنتهي كي يحدث ذلك لهم فلم يحدث ، لكنهم ، في ليالي السفر الطويلة يحلمون بأن البحر جاءهم في صورة شيخ ، بشعر أزرق ، ولحية بيضاء، وعيون من فيروز ، وثياب من تخاريم الموج ، ووعدهم أن يكون معهم ، وأن يحرسهم ، ويقوّي زنودهم ، ويجعل الريح في خدمتهم ، إذا هم أثبتوا أنهم أبناؤه ».

وقلت لوالدي : « كيف يثبت البحّار أنه ابن البحر » ؟ قال : « بأن يثبت للعاصفة ، ولا يخاف النوء ، ولا يجبن عند الشدائد ، ولا يفتر في أوقات الصحو، ولا يجدف عليه، ولا يتجبّر ، ولا ينخلع له قلب إذا جاءه ملك الموت».

قلت : « أبلغت هذه المرتبة » ؟ قال : « لا ، وأين أنا منها » ؟ قلت : « ولكنك كنت ثابتاً للعاصفة في النهر ، متحدّياً النوء في البحر . صادق القلب في الشدّة ، متواضعاً في الصحو ، مباركاً البحر في كل حالاته ، جديراً بأن

يكلمـك ويكرمك» قال والدي : « ربما حصل ذلك ، ولكن للبحر معياراً غير معيار البشر ، وحكمة لا ندركها نحن ». قلت : « وكم من السنين على البحّار أن يقضي في البحر حتى يبلغ رضاه »؟ قال : « هذا لا يتوقف على العمر بل على العمل ...».

منذ ذلك اليوم قرّرت أن أعمل بصمت . لا أتملّق البحر ولا أتجبّر عليه . لا أخاف منه ولا أستهين به . لا أطأ ماءه بقدم قذرة ، ونيّة سيئة ، وجسم دنس ، ولا أخشى تعكير مائه طلباً للصيد ، أو استثارة موجه في الإبحار ، أو ملاقاة عربدته بابتسامة الواثق . أبي علـمني ذلك ، فحفظته ، ونفذته ، وها أنا أطبقه في أول موقعة بيني وبين البحر .

رفعت يدي إشارة للبحّارة . أنا أبرز للبحر في جولة حاسمة . لقد طال الكرّ والفرّ ، وآن لنا أن نحسم الموقف ، فإمّا أن ألحق بوالدي ، أو أخرج بجثته إلى السطح .

شملت كل شيء بنظرة واحدة : السماء ، والشاطىء ، والأفق .. البحر الواسع ، والطيور المحوّمة ، والمنارة البعيدة ، والمراكب المبحرة . الباخرة الغارقة ، التي لايبين منها سوى الصاري ، وسطحها المائل الذي أقف عليه منذ الصباح ، ووجوه البحّارة التي تجمّد فيها التعب والترقب.

غصت .. خيّل إلي أنني ذاهب إلى معركة . آتيك أيها

البحر على فرس أصهب . ينفتح الغبار عن خوذتي وقناتي. أبرز لك من اليابسة . إنني الانسان . أبحث عن إنسان . دعني أمرّ . دع غنيمتك لي . إنها جثة الآن ، وأنت ، يامقبرة الجثث ، لن تخسر شيئاً إذا وفّرت قبراً في قاعك ،فالأرض تشتاق ابنها ، ولن يكون سيئاً أن تعيدها اليه ، وأن تكسب، مقابل ذلك ، حمداً وشكورا .

انفتح البحر . انشق أمام الجسم البشري الذي غاص فيه ، ثم التحمت حافتا المـــاء . انردمت الفتحة تاركـــة على سطحها رغاء أبيض . أنا أنزل إلى القاع . عيناي مفتوحتان . ساعداي أمامي . ساقاي عمودان لحميان يدفعان الماء كي ينطلق الجسم إلى أمام . البحر اضطرب . من هذا المتجرىء ؟ فتح إحدى عينيه . « أعرفه ! » قال : « غرّ هو ». قال . وأشفق . تركني أمرّ . ابن يبحث عن أبيه . البحر أ ب أيضاً . يعرف معنى الأبوة . ابتسم محايداً : أية صدمة تنتظر هذا البحّار ؟! .

مضى جسمي يشقّ الماء . كان يقطعه كنصل حادّ . كنت أشعر ببرودة محيية . غابت الذرات التي لاعدّ لها ، المتخايلة في أشعة الشمس المنسربة إلى الأعماق.الشمس تسرع في الانحدار . علي ، أنا أيضاً ، أن أسرع في انحداري . هوذا القاع . طبقة من عفن لازج في القاع . هاهي ذي الفجوة. الجدار المحترق كان يفصل بين العنبر وما يليه . إنني أحب

رائحة البواخر . لقد عملت فيها راسيةً في الميناء . لكنها ، وهي تغرق ، تصبح منتنة . هذه الباخرة منتنة . اجتزت الفجوة . اللوح الخشبي عاد إلى مكانه . دفعته إلى أعلى . كان لصق السقف . مددت يدي وشددت الجثة . غاص الرأس. دفعته باتجاه الفجوة . لم يصل اليها . أمسكت الجسم . جذبته إلى تحت . دفعته باتجاه الفجوة من جديد . ارتطم بالحافة . ارتفعت إلى أعلى وسحبته ورائي ..أنا خارج الفجوة والجسم يتبعني .. كنت أمسك من الشعر . كان شعراً غزيراً . خفت أن يتقطّع . أمسكت من الرقبة . واصلت السحب . صار الجسم طيّعاً . تخلص من ربقة الفجوة . أصبح في العنبر . تركته يعوم . ارتفعت اليه وعمنا معاً ..ضاق نَفَسي . كابرت . ازداد ضيق نفسي . قررت الخروج . خرجت كسهم . تلقّفني البحارة ، وسمعت ، بعد قليل ، صراخهم:

– خرجت الجثة !

ران علي ما يشبه الوجوم . لأول مرة، بعد غياب طويل، ألتقي والدي . كنت أنتظر اللقاء على نحو آخر ، فاذا القدر يشاء أن ألقى جثته بدلا عنه .. أصبحت يتيماً فجأة .أحسست باليتم إحساساً مضنياً . هوذا والدي أخيراً . لو لم أجده لعشت ولو أملاً كاذباً . الآن أنا والحقيقة ، أنا والجثة ، وغداً أكون وحيداً . أفارقه إلى غير لقاء .

خفت الاقتراب . تركت للبحّارة مهمة إخراج الجثة من فوهة العنبر . صار بامكانهم أن يغوصوا ويخرجوها . مهمتي في الباخرة انتهت . علي أن أستعدّ نفسياً للقاء أمي . سأقول لها : « جئتك بوالدي » . ستبكي أمي وتولول . سيبكي أخوتي أيضاً . وسيتراكض الجيران ، هذه ليلة للسهر لاللنوم. سنمدّد الجثمان وسط البيت . نشعل من حوله الشموع . لن نخاف عليه من أحد . الحياة التي كنا نخاف عليها ضحّى بها . صار الآن في عداد الأموات . أدّى دوره ورحل . دورة العمر ، بالنسبة اليه ، اكتملت .

سبحت إلى الصاري . كنت ما أزال عارياً . تذكرت أن علي أن أواجه الناس . خجلت . كيف أقف عارياً أمام أبي ؟ وجودي في الماء أزال إحساسي بالخجل طول النهار. كان العري الكامل ضرورياً للغوص . انتهى الغوص الآن . انتزعت من البحر فريسته . رضي أخيراً أن يتخلّى عنها. تقبّل ابتهالاتي الصامتة . أدركته رأفة الأب بالابن . عرف أنني سأموت أو أخرج الجثة . أشفق علي . ادّخرني ليوم آخر . أباح لي أن أكسب جولة . اللاعب المبتدىء يكسب عادة . البحّار المبتدىء يكسب أيضاً . يمدّ له البحر حبل النجاة . يطمعه في نفسه . يعجم عوده . من الصباح والبحر يعجم عودي . أيها البحر ! كيف رأيت عودي ؟ .

تسلّقت الصاري وأنزلت سروالي . طارت النوارس

وهي تصفق بأجنحتها . رأيت كل ما حولي . كان البحر مرجاً مائياً أزرق يمتد بعيداً بعيداً إلى تخوم الأفق . المدينة تنتشر على الشاطىء . تدور مع الشاطىء حول الجون . هذا خليج مدينتنا . في المدرسة علّمونا أنه خليج الاسكندرونة. رسمنا خريطة وأبرزناه فيها . البيوت واطئة ، حمراء الأسطحة ، متناثرة . حيّنا يقبع على الشاطىء من جهة الشرق . ثمة جمهور مقابل الباخرة . أبناء الحي ينتظرون نتيجة البحث .. هل شكّوا في قدرتي على إخراج الجثة ؟ هل استخفّوا بي كبحّار ؟ الآن سيعرفون أني جدير بالاسم الذي أحمله . سيقول البحارة : « الذي خلّف ما مات ».. من اليوم سأكون خليفة والدي ، سأبرهن على أنني من صلبه.

ارتديت سروالي المبلل . أحسست بالبرد يلذع جسمي. تمنّيت أن نسرع في الوصول إلى الشاطىء لارتداء ثيابي. الشمس توشك أن تغيب . أشعتها تنسحب على الماء وتتبعها كذيول أميرة تدخل مخدعها . الأفق أرجواني . السحب البيض استحالت إلى جمرات قانية . أخرجت الجثة في الوقت المناسب . لو تأخرت أكثر لضاع جهد النهار سدى .

كان البحّارة ، في هذا الوقت ، قد سحبوا الجثمان من العنبر . كان طافياً على وجه الماء . لم يجدوا صعوبة في سحبه إلى ظهر السفينة . حملوه إلى قسمها الأعلى ، إلى حافتها التي ترتفع إلى سطح الماء ، وهناك أحاطوا به ، ثم

رأيتهم ينحنون فوقه ويتأملونه ، وصاح أكبرهم سناً :

– سعيد ! هل رأيت الجثة وأنت في العنبر ؟

– لا !!

– إنها ...

– ماذا ؟ .

– لا شيء ...

خفق قلبي بشدة . لا أدري أي نوع من الشعور سيطر علي . كان صوت البحّار مرتعشاً . كان محيّراً . كان غريباً .. وكان الصمت الذي تلاه أبعث على الحيرة والغرابة ، فتساءلت . في شيء من عودة الأمل :

– هل مازال حياً ؟ .

وهتفت في ذات نفسي : « ياإلهي ! هل يعقل أن يكون حياً » ؟ .

ولم يأتني جواب .. كانوا غير قادرين على الجواب . ألقيت نفسي في الماء . سبحت بكل ما تبقّى من قوتي . خبطت بساعدي خبطاً عشوائياً كأنني أتعلم السباحة . وحين وصلت ، كانت تنتظرني هذه المفاجأة :

– الجثة ليست لوالدك ! .

– كيف !؟ .

ـ أنظر ..

نظرت !!

يا للهول ! كانت الجثة لبحّار غريب !

* * *

سعيد مازال يمشي ..

سعيد ما زال يفكر ..

يتحدث بغير كلام . يقول أشياءه للبحر ...

لقد وعد تلك السيدة أن يسكن بيتها في الشتاء ، عندما يقفر الشاطىء ويعود جيران البحر إلى المدينة ..

وعدها بنفحة كرم . برنّة اعتداد . وهاهو يتساءل : ماذا تريد تلك السيدة ؟ .

ماذا تريد ! ؟.

قل أنت أيها البحر ..

ولم يقل البحر شيئاً ..

كان هدير الموج يموسق الجو ، وكان الليل رائعاً .. كان ليلاً منوراً من ليالي الصيف الجميلة على البحر .

انتهى الكتاب الأول من «حكاية بحار».

دمشق ٣٠ نيسان ١٩٨٠ .

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Passer By_in Time

MARCH 2009

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time